الثقافة الجديدة

270

الموقف الأدبي

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

270

العددان ٣ حزيران - ٤ تموز ١٩٩٦

محتويات العدد

5 ■ من المحرر

7 ■ من أجل رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا والخلاص من النظام الدكتاتوري — ل.م / هـــشـــع

42 ■ الطبقة والتحليل الطبقي — د. ثــائــر كــريــم

51 ■ مسؤولية العلماء الأخلاقية — د. محمد عبد اللطيف مـــطـــلـــب

59 ■ الجنسية العراقية منذ العشرينات — هـادي الـحـسـنـي

64 ■ الإنتاج الزراعي والأمن الغذائي — د. عـلـي هـنـوش

76 ■ «منشقة» سوفيتية نادمة — لقاء مع غوريتشيفا

87 ■ منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي — عرض: د. سوران صلاح

أدب وفن

94 ■ «الفرق بيني وبين المجنون أنني لست مجنوناً» — د. محمد صادق رحيم

القصة العراقية ـ ملف

101	■ حوار مع القاص محي الأشيقر	أجراه: جنان ج. حلاوي
108	■ هوامش لقصص لم تكتب بعد	لؤي عبد الإله
111	■ المشهد القصصي العراقي الجديد/ متابعة	نجم والي
116	■ «أحلام الفيديو» للؤي عبد الإله/ متابعة	جنان ج. حلاوي
120	■ قراءة أخرى في «زهرة الأنبياء» لسالمة صالح	محمود سعيد
126	■ «متاهة المصحح» (قصة)	رياض الخضيري
138	■ حصار يوسف (قصة)	سلام ابراهيم
144	■ هيبت سلطان (قصة)	نجم محمد
150	■ المسافات المظلمة (قصة)	كاظم الحلاق
157	■ طرق على الباب (نص)	عدنان عاكف
166	■ صورة (نص)	عهد الفهد
172	■ تداعيات البحيرة البيضاء (قصة)	مؤيد عبد الستار

● لوحة الغلاف الأول: «حلم زاهر» للفنان فايق رسول / ١٩٩٣

● لوحة الغلاف الأخير: «لا نُحسن النظر إلا بالقلب» ـ اكزبري للفنان حسن المسعود

من المحرر

كان في خطة هذا العدد نشر ملف ضاف على تجربة الصين الحالية ، ليس لأن سكانها خُمس سكان العالم حسب ، بل كذلك لأن سياستها التنموية حققت نجاحات اقتصادية ضخمة . لكن اشتراكية السوق والانفتاح على العالم الخارجي ، وهو عنوان الممارسة الحالية في الصين ، عليها كذلك ملاحظات ومآخذ من حيث العواقب الاجتماعية للتجربة وآفاقها ، ارتباطاً بافتقارها إلى الديمقراطية السياسية . لكن هذا الملف تأجل جراء نشر الموضوعات التي طرحتها للنقاش قيادة الحزب الشيوعي العراقي تحضيراً لانعقاد مؤتمره الخامس في الخريف القادم . والحوار المبكر حول الوثائق التي تبحثها المؤتمرات ممارسة جديرة باهتمام كل المتلهفين إلى العيش في عراق ديمقراطي . وترسيخاً لتقاليد التعددية والحوار ، ستنشر «الثقافة الجديدة» في العددين القادمين المساهمات التي تصلها في مناقشة الموضوعات ، مادام أسلوبها لائقاً بمناقشة موضوعية جادة .

بمناسبة انعقاد ندوة القصة العراقية في أواخر تموز القادم بدعوة من «ديوان الكوفة» بلندن ، كرّست المجلة ملفاً موسعاً للقصة العراقية يتضمن الحوار بين قاصّين ، ومتابعات نقدية لثلاث مجاميع قصصية وأفكار حول فن القص ، إضافة إلى ثمان قصص ونصوص جديدة . وتتصدر باب «أدب وفن» مقالة مؤجلة عن حياة وأعمال الفنان السريالي الشهير سلفادور دالي .

وفي العدد الحلقة الثانية من دراسة د . ثائر كريم حول البنية الاجتماعية في العالم العربي ، يساجل فيها العديد من الكتاب حول الطبقة والتحليل الطبقي . ونأمل اختتام الدراسة في العدد القادم .

ويتناول الأكاديمي د . محمد عبد اللطيف مسؤولية العلماء الأخلاقية وهم ينشطون في تطوير العلم والتكنولوجيا لكي لا يؤدي نشاطهم الخلاق إلى ضرر الإنسان بدل خدمته .

ويتابع الحقوقي هادي الحسني مشكلة الجنسية في العراق منذ تأسيس دولته الحالية ، هذه المشكلة التي تفاقمت في ظل النظام القائم فشهدنا موجات من إبعاد الناس عن وطن آبائهم وأجدادهم بذريعة عدم حيازتهم للجنسية العراقية .

منذ فرض العقوبات الدولية على العراق ، تجلت فداحة أضرار التبعية الغذائية التي تفاقمت في العهد الحالي حتى بات العراق يستورد حوالي ثلاثة أرباع حاجته من الغذاء . وفي هذا العدد يتابع د . علي حنوش هذه المشكلة من زاوية إنتاج الحبوب بوجه خاص .

ماتزال نتائج استطلاع الرأي العام في روسيا تشير إلى تقدم قائد الحزب الشيوعي على منافسيه في معركة الرئاسة . فثمة انعطاف واضح في الموقف من الحزب الذي عكف على تجديد نفسه منذ انهيار الاتحاد السوفيتي . وفي مقابلة مع الكاتبة الأرثوذكسية كوريتشيفا ، التي أبعدتها السلطة السوفيتية عن الوطن ، نجد نموذجاً من إعادة النظر في بعض المواقف والممارسات السابقة لدى الوطنيين والمؤمنين الذين أصبحوا في خندق واحد مع الشيوعيين بعد أن تخاصموا معهم .

وفي العدد عرض كتبه د . سوران صالح لكتاب جديد للدكتور نوري طالباني بعنوان «منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي» .

أواخر أيار ١٩٩٦

للمناقشة

لنحشد الطاقات من أجل:

رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا
الخلاص من النظام الدكتاتوري
إقامة العراق الديمقراطي الفدرالي الموحد

تحضيراً لعقد المؤتمر الوطني السادس للحزب الشيوعي العراقي طرحت لجنته المركزية الوثيقة التالية باعتبارها «موضوعات أساسية للمناقشة حول سياسة الحزب ومواقفه». ويدعو الحزب أعضاءه وأصدقاءه وكل من يهمه البديل الديمقراطي إلى الإسهام في مناقشة الوثيقة التي تتناول: طبيعة السلطة، أزمة النظام السياسي، الجيش، الأزمة الاقتصادية ـ الاجتماعية، الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية، العشائرية، الهجرة، الوضع في كردستان، العوامل الداخلية والخارجية واحتمالات التغيير، سياسة حشع التحالفية، تصاعد التحدي للدكتاتورية، الديمقراطية والتجديد في حشع، أهدافه الآنية والبديل الديمقراطي، الوضع العربي والوضع الدولي.

أولاً: طبيعة السلطة

تمثل طبيعة وممارسات السلطة في بلادنا محور وأساس المحنة العميقة التي يعاني منها شعبنا، وتشكل عاملاً رئيسياً في جميع الأزمات والكوارث التي تعرض ويتعرض لها الشعب بجميع قومياته وفئاته الاجتماعية والدينية والمذهبية.

إن التحديد السابق لطبيعة السلطة بكونها برجوازية كبيرة بيروقراطية وطفيلية أقامت دكتاتورية من نمط فاشي شمولي يقف على رأسها صدام حسين الذي يحكم البلاد بواسطة أجهزة الأمن والاستخبارات التي يرأسها أفراد عائلته، وطغمة محدودة من قيادة

الحزب والدولة، يتطلب التدقيق والإغناء في ضوء المتغيرات التي طرأت على السلطة، وضيق قاعدتها الاجتماعية، واستئثار فئة ضئيلة بالنصيب الأعظم من الثروة الاجتماعية والحياة السياسية والاقتصادية، تتمثل بالأساس بالعائلة الحاكمة وعدد من العوائل المحيطة بها ذات الثروة والنفوذ، وتجار الحرب والحصار، وتدمير الطبقة الوسطى إلى حد كبير، وفي ضوء ما أفرزه غزو الكويت وفرض الحصار على العراق من حرمان الدولة من الموارد النفطية الكبيرة والكثير من مصادر قوتها السياسية والاقتصادية التي ساعدت النظام في فترة سابقة على إرشاء فئات البرجوازية البيروقراطية والطفيلية، ودخول أجهزة الدولة مرحلة التفكك وتعميق القطيعة بين الشعب والسلطة، هذا إلى جانب مجريات الأحداث خلال السنوات الثلاث الماضية وما شهدته من صراعات داخل صفوف الطغمة الحاكمة، وامتداد هذه الصراعات إلى داخل عائلة صدام حسين التي أصبحت عملياً القيادة الفعلية للنظام، فوق هيئات الدولة والحزب الحاكم، التي تخضع عملياً لما يقرره صدام حسين وعدد محدود من أفراد عائلته، ولا تملك، في واقع الحال، من أمرها شيئاً.

وإلى جانب مساعيها لتعزيز قبضة الأجهزة الخاصة، بادرت السلطة منذ العام الماضي إلى إقامة تشكيلات جديدة موازية لأجهزة الجيش والأمن والحزب ذات طابع عسكري. كما جعلت من الفئة المسماة بـ«أصدقاء صدام» وهم حملة أنواط الشجاعة المزعومة والأوسمة، فئة متميزة ليس فقط بما يغدق عليها من رواتب ومخصصات، وإنما خصّها بامتيازات كبيرة تتيح لها الإثراء غير المشروع على حساب أموال الدولة، وذلك لخلق قاعدة اجتماعية ــ اقتصادية للنظام بعد التآكل الذي لحق بقاعدته في السنوات الأخيرة.

كما عمل النظام على توسيع قاعدته الاجتماعية باستمالة رؤساء العشائر وتلفيق «شيوخ» و«رؤساء» ومنحهم الهبات والرشاوي، غير أن جهوده هذه لم تسفر عن شيء جدي. ففضلاً عن فشله في استمالة عشائر الجنوب وخصوصاً بعد ما ارتكبه من فظاعات بحق سكان الأهوار ومساعيه لتجفيفها وتشريد سكانها، شهدت السنوات الأخيرة صدامات مع عشائر الجبور والدليم والدوريين وإبعاد الكثير من أبنائها من مراكزهم في أجهزة السلطة، وخصوصاً في القوات المسلحة.

إن اشتداد عزلة النظام، وتآكل قاعدته الاجتماعية، والتسابق على كسب المغانم ونهب ثروات الشعب، وعلى مراكز السلطة والنفوذ، شدد الصراعات داخل العائلة الحاكمة وأدى إلى تقليص نفوذ الأخوة غير الأشقاء لصدام حسين وأبناء العمومة لصالح ولديه عدي

وقصي وصهريه. ولم يقف الصراع عند هذا الحد، بل استمر حتى داخل هذه الدائرة الضيقة، وأسفر عن هرب وتصفية حسين كامل ومن معه، وهو أمر لابد وأن يؤدي إلى مزيد من التصدع داخل العائلة واشتداد الصراعات وعزلة صدام حتى في تكريت نفسها.

إن هروب حسين كامل والمصير الذي لقيه بعد عودته كشفا من جديد، وبوضوح أكبر، الطابع الدموي لحكم صدام حسين، وافتقاده إلى أية شرعية أو قانونية وعدم إمكانية الوثوق بأية التزامات يأخذها على نفسه أو وعود يقطعها للآخرين. الأمر الذي ينبغي أخذه بنظر الاعتبار من قبل كل الجهات التي تتعامل أو تنوي التعامل مع صدام حسين دولاً كانت أو أحزاباً سياسية أو شخصيات، إذا لم ترد أن تكون ضحية لدمويته وغدره.

ثانياً: أزمة النظام السياسي

يعيش النظام أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية تزيد استفحالاً كل يوم.

فإلى جانب عزلة النظام عن الشعب، واشتداد الصراعات داخل الطغمة الحاكمة، وفقدان النظام أية مصداقية داخلياً وعربياً ودولياً، تتواصل الضائقة المعاشية، والتدهور المريع في الوضع الاقتصادي، وانخفاض قيمة الدينار، والتضخم المفرط، والبطالة الواسعة، وغيرها من الظواهر الناجمة عن سياسة النظام الطائشة التي بددت ثروات الوطن الهائلة على التسلح الواسع تمهيداً لمغامراته المجنونة بالعدوان على إيران وغزو الكويت، بالإضافة إلى الحرب الظالمة ضد الشعب الكردي، والإرهاب الشامل لمجموع الشعب، وما نجم عن ذلك من إغراق البلاد بالديون وبالدمار الكبير في جميع مرافق الحياة الاقتصادية، وبالحصار الجائر الذي مضى عليه ما يزيد على الست سنوات.

لقد صدرت دعوات من أوساط، ليست في الغالب بعيدة عن النظام والتنسيق معه، تدعو لحل سلمي للأزمة باسم تجنيب البلاد حمام دم جديد، واستحالة انتصار طرف على آخر، وعدم إمكانية إزاحة الدكتاتورية بالقوة... الخ من الأسباب. وتدعو هذه الأوساط إلى إجراء مصالحة وطنية.

إن صدام حسين، بما يمثله من انعدام الصدقية له وانعدام الثقة بوعوده وبنهجه، وبما جسده خلال ما يزيد عن ربع قرن من الممارسات في التعامل مع كل القوى السياسية، سواء تلك التي تحالفت معه أو عارضت نهجه، وبما يمتلك، وهو على رأس السلطة، من وسائل الفتك ليس بمعارضيه فقط، بل وبمن لا يرضى عنهم لأي سبب كان، وخصوصاً بعدما جرى لحسين كامل وعائلته، إن صدام حسين هذا ونظامه الذي يقوده لا يمكن الوثوق

به مطلقاً. وإن الدعوة للمصالحة معه ليس من شأنها غير إشاعة الأوهام وتخدير القوى الوطنية وعرقلة جهدها لتخليص وطننا وشعبنا من دكتاتوريته الدموية وطغمته المجرمة.

وارتباطاً بهذه الفكرة يمكن تناول ما يجري من حديث ودعوات، من جانب أوساط داخلية وخارجية، إلى بعض القيادات الكردستانية للتفاوض مع صدام حسين للحصول على بعض «المكاسب» المزعومة مادام ضعيفاً، ودعوات النظام للتفاوض مستغلاً الاقتتال الداخلي في كردستان.

وبرغم ما في القضية الكردية من خصوصية، وعدم جواز رفض مبدأ التفاوض بالمطلق، فإن الواقع الملموس يؤكد خطأ التفكير بإجراء «مفاوضات» مع صدام حسين لا يستهدف هو من ورائها غير كسب الوقت، وإشغال القوى الكردستانية وتعميق الخلافات فيما بينها وتمزيق المعارضة العراقية ومنع وحدة نشاطها ضد الدكتاتورية. فضلاً عن أن أي اتفاق معه، حتى لو كان يستجيب شكلاً لمطامح الشعب الكردي، لا يمكن أن يكون إلا اتفاقاً مؤقتاً سيختلق الذرائع لنسفه عند أول فرصة تسنح له.

وإذ يستبعد حزبنا إمكانية «المصالحة الوطنية» أو المفاوضات مع نظام صدام، فإن ذلك لا يعني اعتماد العنف كوسيلة وحيدة لإزاحة الدكتاتورية وإقامة الديمقراطية في العراق، بل اللجوء إلى أساليب أخرى.

ومن هذا المنطلق طالبنا ونطالب بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨، الذي ينص على وقف اضطهاد الشعب، والذي يمكن أن يكون منطلقاً لإجراء انتخابات حرة في العراق بإدارة وإشراف الأمم المتحدة. وذلك بعد تجريد صدام حسين وأجهزته القمعية من إمكانية التلاعب بمجرى العملية الانتخابية ونتائجها. إن مسؤولية استخدام العنف، وما ينجم عنه من ضحايا يتحملها ـــ كما هي الحال دوماً في التاريخ ـــ مغتصبو السلطة ومضطهدو الشعوب وسالبو حرياتها وحقوقها الديمقراطية.

الجيش والقوات المسلحة

سعى النظام الدكتاتوري منذ عام ١٩٦٨ إلى تشويه العلاقة وضرب التضامن وعرى التلاحم بين الشعب والجيش. وضمن مسعاه لبناء ما أسماه بـ«الجيش العقائدي»، حول الجيش من مهماته في الدفاع عن الوطن، إلى أداة قمع وإرهاب ضد أبناء شعبنا، وزجه في حربين عدوانيتين ضد إيران والكويت، إلى جانب حربه الداخلية ضد الشعب الكردي، حيث جرى خلالها تصفية وإبعاد أعداد كبيرة من قادته وضباطه ومراتبه بحجج واهية، ومايزال يواصل سياسته في البطش بالعناصر الشريفة داخل الجيش النظامي، وهدر كرامة منتسبيه،

وتعميق الهوة بين الشعب وأبنائه في القوات المسلحة، والتنكيل المتواصل بالمعارضين والمتذمرين في صفوفها الذين يقفون ضد سياسة ومغامرات صدام حسين الطائشة.

ولم يكتف النظام بعسكرة المجتمع وصرف المليارات على التسليح، وتصنيع أسلحة الدمار الشامل، وبتمزيق أوصال وبنية الجيش وإخضاعه قسراً لحماية أركانه وتحويله إلى أداة قمع لتحقيق رغبات وطموحات صدام حسين، رغم تصاعد وتنامي معارضة الكثيرين من قادته ومراتبه، وتزايد هروب أعداد كبيرة من الضباط والجنود والتحاق ضباط كبار بصفوف المعارضة. . . لم يكتف بكل ذلك وتحسباً للدور الذي يمكن أن يلعبه الجيش النظامي مستقبلاً في تقرير مصير الدكتاتورية، عمد صدام حسين إلى إيجاد تشكيلات عسكرية وشبه عسكرية موازية كالحرس الجمهوري الخاص، وقوات الطوارئ والأمن الخاص، وفدائيي صدام، وصرف عليها مبالغ طائلة وسلحها أكثر من قوات الجيش النظامي، وأغدق عليها الامتيازات لتشكل القوة الضاربة الأساسية دفاعاً عنه وعن نظامه ضد شعبنا كما حدث في القمع الوحشي لانتفاضة آذار ١٩٩١ المجيدة. وتتفاقم الضائقة المعاشية لمنتسبي القوات المسلحة شأن غالبية أبناء الشعب.

إن هذه التطورات في القوات المسلحة تتطلب توظيفها في مسعى لتوحيد كل قوى الشعب الذي يتطلب ضمان قوة مسلحة ضاربة من أجل إسقاط الدكتاتورية سواء كان ذلك عبر انتفاضة شعبية أو هبة جماهيرية عفوية أو تمرد عسكري أو تضافرها معاً.

ثالثاً: الأزمة الاقتصادية ـ الاجتماعية

لقد أدخل نظام صدام حسين اقتصاد البلاد في نفق مظلم، جراء سياساته الطائشة ومغامراته العدوانية، تصعب رؤية نهايته. ذلك أنه دمر منجزات ما يزيد على الخمسة عقود من السنين، وأرجع الناتج الإجمالي المحلي إلى مستوى ما كان عليه في الأربعينات. وذلك ما أثبتته دراسات اقتصادية جادة.

ويكفي لاستيعاب هذه الحقيقة النظر إلى الأرقام التالية: بلغ الناتج المحلي الإجمالي عام ١٩٦٠ (بأسعار عام ١٩٨٠) ما يعادل ٨,٧ مليار دولار. وزاد خلال عقدين متتالين ليبلغ ما قيمته ٥٤ مليار دولار عام ١٩٧٩، عام تولي صدام حسين المسؤولية الأولى في الحزب والدولة.

وابتداءً من عام ١٩٨٠، عام شن الحرب العدوانية على إيران صار الناتج المحلي الإجمالي يتراجع حتى وصل عام ١٩٩٣، في أعقاب كارثة غزو الكويت والحرب التي

استثمارها، وما نتج عنها من دمار شامل، إلى عشرة مليارات دولار الذي هو أقل من مستوى عام ١٩٦١.

وإذا ما أخذنا بالاعتبار أن حصيلة الناتج المحلي الإجمالي عام ١٩٦١ كانت تنفق على سكان عددهم حوالي سبعة ملايين نسمة، وحصيلة عام ١٩٩٣ تنفق على ما يزيد عن ١٨ مليون نسمة، يتضح التراجع الكبير في معدل الناتج الإجمالي للفرد الذي كان عام ١٩٦١ ١٤٠٠ دولار وارتفع عام ١٩٧٩ إلى ٤٢١٩ دولاراً، وانخفض عام ١٩٩٣ إلى ٤٨٥ دولاراً.

إن هذا هو جانب واحد من الصورة المظلمة للاقتصاد العراقي لا يمكن أن تستكمل بدون معرفة حجم الدمار الذي ألحقته حروب صدام، وما سببته العقوبات الدولية والحصار الاقتصادي. وهو ما يتضح من الأرقام التالية:

ـــ يحتاج العراق، حسب الكثير من الخبراء، لإعادة إعمار ما خربته الحرب العراقية الإيرانية إلى ٦٧ مليار دولار.

ـــ قيمة البنية التحتية المدمرة مع الموجودات الاقتصادية الأخرى في حرب الخليج عام ١٩٩١ ـــ كما قدرها التقرير الاقتصادي العربي المشترك ـــ هي ٢٣٢ مليار دولار. ويقيناً أن كلفة استبدال هذه الموجودات الآن أكبر من الرقم المذكور.

ـــ قدر تقرير لمجلس الأمن الدولي الأضرار التي يتوجب على العراق تعويضها لإيران جراء الحرب ١٩٨٠ ـــ ١٩٨٨ بما يعادل ٩,٧ مليار دولار.

ـــ الأضرار التي يتوجب على العراق دفعها لتعويض الكويت ـــ وفقاً للقرار ٦٨٧ الذي أنشأ صندوق التعويضات ـــ كما قدرتها إحدى الوكالات ١٠٠ مليار دولار.

ـــ ديون العراق الخارجية عام ١٩٩٠، أي قبل غزو الكويت قدرت بـ٨٦ مليار دولار. النظام يعترف بـ٤١,١ مليار منها لأنه يسقط ديون الكويت والسعودية. وتزداد هذه الديون إلى ٧٥,١ مليار دولار إذا ما أضيفت عليها الفوائد المستحقة.

وحصيلة جمع الفقرات السابقة هي ٥٨٢ مليار دولار أي ما يعادل ٦٠ مرة تقريباً الناتج الإجمالي لعام ١٩٩٣ وأكثر بالنسبة لعام ١٩٩٥ أو ١٩٩٦.

وإن هذه الحصيلة المذهلة لا تتضمن على جسامتها الادعاءات بالتعويضات من جانب الشركات الخاصة والأفراد التي تقدر بألوف ملايين الدولارات وما جرى تبديده من موارد البلاد كاستنزاف الرصيد الاحتياطي من الذهب والعملات الأجنبية البالغ ٣٦ مليار دولار، وخسائر إيرادات النفط طيلة الفترة من آب ١٩٩٠ حتى الآن، ونضوب المخزون السلعي والتجهيزات العسكرية وخسارة النمو والقوة البشرية (مئات ألوف

الضحايا والمعوقين) وهجرة الكفاءات من المتعلمين والمهنيين من أطباء ومهندسين وكوادر تعليمية وغيرهم.

لقد كبلت سياسات النظام الاقتصاد العراقي بقيود والتزامات يصعب تقدير المدى الذي يحتاجه التخلص منها والعودة به إلى مستوى عام ١٩٨٠، أو حتى مستوى عام تسلم النظام الحالي السلطة عام ١٩٦٨.

ومما يزيد اللوحة تعقيداً هو العقوبات المفروضة على بلادنا والحصار المضروب على تصدير النفط حتى الآن.

إن القرار ٩٨٦ حتى إذا ما طُبق بالكامل، فإنه لن يكون من شأنه سوى التخفيف الجزئي من الضائقة المعيشية التي يعانيها شعبنا، وليس معاناة الاقتصاد المتدهور.

ولذا فإن استمرار نظام صدام حسين هو عائق جدي في طريق السير نحو الخروج من الأزمة الاقتصادية الخانقة. وإن الخلاص من النظام يشكل خطوة لا مناص منها للنضال من أجل إلغاء كامل العقوبات، وتخفيض نسبة الاستقطاع من موارد النفط المحدد بـ ٣٠٪ أو حتى تأجيل هذا الاستقطاع إلى أجل يتيح استخدام موارد النفط لتأمين حد أدنى مقبول لمعيشة شعبنا الذي ابتلي بنظام صدام ولا يجوز تحميله عواقب سياسات هذا النظام، واستعادة الاقتصاد الوطني العراقي لجزء من عافيته، باستعادة الدورة الاقتصادية لسيرها الطبيعي وإنهاض الزراعة والصناعة إلى مستوى يقرب مما كانت عليه عام ١٩٨٠. كما أن إسقاط الدكتاتورية أمر لا مناص منه لإعادة علاقات العراق الاقتصادية الطبيعية (المالية والتجارية وغيرها) مع مختلف بلدان العالم والمؤسسات الدولية.

وعلى صعيد المجتمع نلحظ زيادة حدة التناقضات وتعمق التشوه الاجتماعي بفعل تلك التناقضات من جهة والحروب والصراعات الداخلية والخارجية من جهة أخرى. وهذا ما يتجلى في تفاقم البطالة وانتشار الفساد والرشوة والجريمة المنظمة وتدهور الحياة الثقافية والروحية إلى جانب حالة القمع المتعدد الوجوه التي تنخر المجتمع، وبناء أجهزة متطورة للقمع يقابلها التخلف الشديد في مجالات الإنتاج والخدمات العامة وقيام الحكم على الإكراه وغياب الديمقراطية، ومصادرة الحقوق والحريات العامة في ظل حالة فرض القوانين الاستثنائية، كل ذلك ينعكس في ظاهرة اكتساح الدولة للمجتمع المدني من خلال احتكار الثروة الاجتماعية وسبل التصرف بها إضافة إلى احتكار الحياة السياسية والاقتصادية. وترافق مع ذلك اتساع ظاهرة الفوضى وانهيار النظام والقانون في أجزاء واسعة من البلاد إلى جانب تصدع نظام القيم الأخلاقية والاجتماعية وتفكك النسيج

الاجتماعي وكيان الدولة العراقية بشكل ملحوظ.

رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب

شغلت موضوعة الحصار الاقتصادي حيزاً هاماً في عمل الحزب منذ المؤتمر الوطني الخامس (م.و ـــ ٥) حتى الآن. فقد كان حزبنا مبادراً، بين قلة من قوى المعارضة، بالمطالبة برفع الحصار الاقتصادي عن الشعب، وقوبلت دعوته لذلك، من خلال وضع المطلب في صلب شعار المؤتمر المركزي بمعارضة من قبل الكثير من قوى المعارضة التي ترى في الحصار وسيلة لإضعاف النظام تتيح للشعب فرصاً أكبر لإسقاطه. وترى في رفع الحصار خطراً على هذا النضال «لأنه سيقوي النظام»!.

كما جوبه الشعار بسوء فهم ومعارضة من قبل عدد من الرفاق الذين رأوا في التركيز على رفع الحصار عن الشعب، والدعوة لتشديد الخناق على الدكتاتورية، إضعافاً للدعوة لرفع الحصار عن الشعب. رغم أن موقف حزبنا كان منذ البداية إلى جانب رفع الحصار الاقتصادي عن الشعب دون قيد أو شرط، وبإشراف الأمم المتحدة لضمان استخدام الموارد لتغطية احتياجات الشعب.

ولم يكن هذا الموقف يعني، بأي حال من الأحوال، القبول بفك عزلة النظام السياسية والدبلوماسية أو تمكينه من التحكم بعائدات النفط وبناء ترسانته العسكرية من جديد.

وفي ضوء ذلك خاض حزبنا نضالاً فكرياً وقام بفعاليات عديدة لتدقيق الشعار وتطويره وتفعيل مضامينه بروحية المناقشات التي جرت في م.و ـــ ٥ ومعالجة نواقص الموقف الذي اتخذه باقتراح آليات محددة يتيح تنفيذها التخفيف من معاناة الشعب. وأكد منذ تشرين الأول ١٩٩٤ «أن المطلوب الآن هو رفع العقوبات عن الشعب برفع الحصار الاقتصادي عنه من خلال توفير الغذاء والدواء والملبس وجميع الاحتياجات الضرورية لحياة المواطنين ومتطلباتهم الإنسانية، وبما تحتاجه إعادة الدورة الاقتصادية السلمية» على «أن لا يعني ذلك فك القيود عن النظام الدكتاتوري وفسح المجال له للاستفادة من العوائد النفطية والموارد الأخرى لأغراض غير تلك المحددة بحاجة الشعب».

وطالب حزبنا بتعديل القرارين ٧٠٦ و٧١٢ بما يؤمن زيادة كميات النفط المصدرة، وأن تكون الحصة المقررة لصندوق التعويضات ونفقات مبعوثي الأمم المتحدة إلى العراق خارج الكمية المطلوبة، واستثناء منطقة كردستان العراق من العقوبات الاقتصادية. . . وضمان التوزيع العادل للمواد المطلوبة على جميع أبناء الشعب. . . وأن يتم ذلك برقابة الأمم المتحدة.

وبفعل عوامل عديدة تناولتها أدبيات حزبنا في حينه، ومن بينها نضال حزبنا وقوى معارضة أخرى، أخذ بعض هذه المطاليب طريقه للقرار ٩٨٦ الذي رأى حزبنا أنه «رغم كونه يبيح بيع كمية أكبر من النفط، ويوفر مقداراً أكبر من الدولارات» فإنه لا يلبي كل ما طالب به الحزب، ولا يضمن تلبية كامل الاحتياجات الملحة لشعبنا. «ولكنه يمكن أن يكون خطوة على هذا الطريق»، ذلك أن حزبنا يدعو إلى «إطلاق تصدير النفط وإلغاء تجميد الأرصدة العراقية في الخارج، من أجل تأمين الموارد الكافية ليس لتوفير الغذاء والدواء للشعب فحسب، بل ومن أجل المساعدة على إعادة الدورة الاقتصادية على أن يتم كل ذلك بإشراف ورقابة الأمم المتحدة.

لقد فضح حزبنا تشدد واضعي القرار ٩٨٦، وخصوصاً الولايات المتحدة وبريطانيا، في فرض اقتطاع الحد الأعلى البالغ ٣٠٪ لأغراض دفع التعويضات وسد النفقات المتعلقة بتنفيذه، وكذلك فرض تصدير أكثرية النفط عبر الأراضي والموانئ التركية. ويرى في ذلك إجحافاً بحق شعبنا الذي يعاني الجوع والمرض.

غير أن كل هذا لم يكن يبرر موقف النظام المستهتر برفض تطبيق القرار ٩٨٦ بذرائع مفتعلة، وتنظيم «مظاهرات» قسرية ضده. واضطر النظام بعد ما يزيد على الثمانية أشهر أن يعلن استعداده للتعامل بشكل إيجابي مع الأمم المتحدة لتطبيق القرار، دون الإعلان عن قبوله له. وابتدع صيغة «النفط مقابل الغذاء والحاجات الإنسانية». وقوبل هذا الموقف الذي يعني التراجع، عملياً، عن رفض القرار ٩٨٦ وسبب ارتفاع سعر صرف الدينار مقابل الدولار عدة مرات وانخفاض أسعار الكثير من السلع، قوبل بفرح غامر من لدن جماهير شعبنا الذي مثل تصويتاً جديداً ضد مواقف النظام المتعنتة المستهترة بمصالح الشعب والمتاجرة بجوعه ومرضه ومعاناته القاسية، الأمر الذي استفز النظام وأثار خشيته من مبادرات شعبية واسعة خارج سيطرته وعلى الضد من توجهاته. وبرغم ما أشاعه النظام وأجهزة إعلامه من تفاؤل بشأن نتائج المباحثات، إلا أنه ظل يماطل ويطيل أمد المباحثات التي تعدت الثلاث جولات حتى الآن، متذرعاً كذباً، بالسيادة الوطنية، ووحدة الوطن، ويرفض قبول القرار ٩٨٦ بشكل صريح.

ومن الجهة الأخرى تقوم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بإطالة أمد هذه المباحثات والسعي لاستفزاز صدام حسين واستثارة حماقته لإحباطها، سواء بما تقدمان من تفسيرات متعسفة للقرار أو ما تقومان به من تكتيكات معرقلة.

لقد ناضل حزبنا ضد الحصار الاقتصادي المفروض على الشعب وحمل نظام صدام

حسين والامبريالية الأمريكية مسؤولية فرضه واستمراره واستمرار معاناة الشعب من نتائجه الكارثية. وسيواصل حزبنا هذا النضال حتى يتم رفع الحصار عن الشعب بالكامل، ويستعيد الاقتصاد الوطني عافيته ليعيد بناء ما خربته سياسات صدام حسين وإرهابه الدموي وحربه الظالمة ضد الشعب الكردي وعدوانه ضد إيران وغزو الكويت والقصف الوحشي الذي قامت به قوات التحالف عام ٩١ والحصار الجائر الذي استمر ما يزيد على الست سنوات. وإن أقصر طريق لتحقيق ذلك هو إزاحة الدكتاتورية وتعاون كل قوى شعبنا المعادية لها في بناء عراق الغد الديمقراطي المزدهر.

الموقف من العقوبات المفروضة على بلادنا

لقد استتبع غزو الكويت والحرب التي نجمت عنه وهزيمة نظام صدام فرض جملة من العقوبات على العراق تضمنتها ٣٠ قراراً صادرة عن مجلس الأمن الدولي وهي عقوبات قاسية، ويشكل عدد منها مساً حقيقياً بسيادة العراق كدولة. وقد ارتضى صدام القبول بها حفاظاً على بقائه في الحكم.

إن استمرار صدام في الحكم، بما يمثله من معاداة للديمقراطية وحقوق الشعب، ونزعات عدوانية، واستهتار بالقوانين الدولية، وبانعدام أية مصداقية تؤهل نظامه للعودة إلى المجتمع الدولي، يجعل الخلاص من العقوبات الدولية أو حتى التخفيف منها، بشكل جدي، أمراً صعباً.

إن حزبنا يرى في هذه العقوبات حصيلة قاسية لسياسات صدام حسين التي قدمت الذرائع لفرضها من قبل أوساط لا تضمر الخير لشعبنا، وتعادي مطامحه النبيلة في العيش في ظل الديمقراطية، والإسهام في إقامة تضامن عربي حقيقي وتكامل اقتصادي مع البلدان العربية لخدمة مصالح شعوبها، وفي بناء عالم جديد يصون الاستقلال والسيادة الوطنية لجميع الدول، ويقيم فيما بينها علاقات متكافئة.

وقد ظهر ذلك في الانتقائية التي تعاملت بها الأوساط المتنفذة في مجلس الأمن مع قراراته، إذ جرى تنفيذ قرارات العقوبات بحماس ومتابعة شديدة في حين أهمل القرار ٦٨٨ الذي يقضي بوقف اضطهاد الشعب. وكذلك القرارات ٧٠٦ و٧١٢ و٩٨٦ رغم كونها اتخذت وفقاً للباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

إن حزبنا سيواصل النضال مع قوى شعبنا الوطنية الأخرى من أجل التخفيف من العقوبات المفروضة على العراق وصولاً إلى إلغائها وذلك بإزاحة المسؤول عن فرضها وهو نظام صدام حسين.

العشائرية والموقف منها

أدى تعثر مسيرة ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، وانتكاسة الحركة الديمقراطية، وما عانته الحركة السياسية عموماً من تصفيات لأي عمل سياسي حزبي يكتسب شرعيته وعلنيته من القانون وفي الممارسة الفعلية، وبغيرها في ظل الحكم الدكتاتوري الحالي، والتخريب للتنظيمات السرية للمعارضة، وانعدام الحياة المدنية الطبيعية، وفقدان دولة القانون، كل هذا أدى إلى حالة من النكوص والارتداد إلى أشكال من العلاقات الاجتماعية التقليدية، وانتعاش الروابط العشائرية من جديد باعتبارها أشكالاً من التضامن والحماية والتنظيم الاجتماعي تسد مؤقتاً الفراغ الذي تركه غياب الأحزاب والمنظمات المدنية الحديثة، خصوصاً وأن الكثير من أبناء العشائر من رافضي الخدمة العسكرية أيام الحرب العراقية الإيرانية، وبعدها في أعقاب انتفاضة آذار ٩١، لاسيما في الفرات الأوسط والجنوب، وجدوا في العشيرة التي ظلت قائمة كمؤسسة اجتماعية، رغم ما أصابها من ضعف، ملاذاً يلوذون به من ملاحقات النظام الدكتاتوري الإرهابية.

وكان راس النظام قد لجأ إلى محاولة كسب رؤساء العشائر بالرشاوى والامتيازات، وسعى إلى تلفيق شيوخ ورؤساء أفخاذ بهدف استخدامهم لأغراض الدعاية لنظامه على اعتبار أنه يحظى بتأييد الشعب. غير أن هذه المحاولات لم تفلح في فك عزلة النظام عن العشائر أو الحيلولة دون التصادم حتى مع عشائر كانت موالية له إلى أمد قريب مثل الجبور والدليم وغيرهم. فقد تعرض أبناؤها في القوات المسلحة وخارجها إلى الطرد والاعتقال والقتل تحت التعذيب. وكانت هبة الرمادي وتمرد أبو غريب في العام الماضي مظهراً واضحاً للشرخ الكبير بين النظام وعشائر الأنبار.

إن صدام حسين لا يريد تغليب القيم العشائرية الإيجابية، من إباء، واعتزاز بالكرامة، ورفض الظلم، وحماية المظلوم والتصدي للعدوان، لأنها تتنافى مع القبول به وبنظامه، وإنما يغلّب القيم المنحطة كنكث العهود والغدر وإهدار دم الخصوم وإبادة عوائلهم من نساء وأطفال، وهدم دورهم وارتكاب الجرائم البشعة باسم العشيرة. وقد جسد ذلك كله في تعامله مع أصهاره وأبناء عمومته في قضية حسين كامل.

إن الكثير من أبناء العشائر الذين يتصدون للنظام من خلال روابطهم العائلية والعشائرية والتنظيمات التي يقيمونها لهذا الغرض، هم قوة من قوى المعارضة للنظام ينبغي التعامل معها بمرونة والاستفادة من طاقاتها في الظرف الراهن لأنها هي أيضاً ذات مصلحة في الخلاص من الدكتاتورية وممارساتها المنافية للقيم والأعراف النبيلة.

الهجرة إلى الخارج مظهر من مظاهر الأزمة الشاملة

لم يسبق أن شهد وطننا هجرة واسعة لأبنائه إلى الخارج. وبعكس ذلك فقد أصبح في السبعينات والثمانينات سوق عمل كبير استقطب الكثير من العمالة العربية والأجنبية.

وإلى جانب استقطاب العمالة الخارجية، وتجنيد العمال العراقيين للحرب تمت عمليات تهجير مئات ألوف العراقيين من الأكراد الفيليين والشيعة العرب قسراً بذريعة زائفة هي التبعية الإيرانية.

كما رافق هذه العمليات هجرة الألوف من أبناء الوطن لأسباب سياسية جراء الملاحقات البوليسية والاعتقالات الاعتباطية، والقتل تحت التعذيب لكل من يشتبه بمعارضتهم للنظام أو حتى مجرد عدم قبولهم الانخراط في حزبه والقبول بسياساته المنافية لمصالح الوطن والشعب.

غير أن مآسي الحرب، وتفاقم الاضطهاد السياسي والقومي والديني والطائفي والضائقة المعاشية والعيش على حافة الجوع، وفقدان الأمن حمل فئات واسعة من أبناء الشعب على الهجرة إلى الخارج بأي ثمن. وخصوصاً في أعقاب غزو الكويت وقمع انتفاضة آذار ١٩٩١، حتى صار يقدر عدد العراقيين المهجرين والمهاجرين إلى الخارج بما يزيد على المليوني مواطن.

إن هذا النزيف البشري، خصوصاً وأن نسبة كبيرة من هؤلاء هم من المتعلمين والكوادر العلمية والفنية والثقافية، يشكلون ثروة بشرية كبيرة كلفت شعبنا الكثير. وإن تهجيرهم القسري بشتى السبل هو انتهاك خطر لحقوق الإنسان وخسارة كبيرة. خصوصاً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الخسارة الأكبر التي لحقت بالوطن والشعب جراء حروب صدام ومغامراته الحمقاء من قتلى ومشوهين ومعوقين قارب عددهم النصف مليون، وهي خسائر لا يمكن تعويضها بسهولة أو بزمن قصير، وتشكل في الواقع إحدى الجرائم الكبرى التي ارتكبها الحكم الدكتاتوري ويتحمل مسؤوليتها كاملة. إن حزبنا يعمل على تعزيز الصلة بالجاليات العراقية في مختلف البلدان وشدها إلى الوطن بمختلف أشكال التنظيمات والفعاليات.

رابعاً: الوضع في كردستان

كان م.و ـــ ٥ قد توقف عند دراسة الوضع في كردستان وسجل دعم الشيوعيين العراقيين للتجربة التي تعيشها. ورأى أن حماية التجربة وتوطيدها وتطويرها يتطلب بذل

الجهود الحثيثة من قبل جميع الأطراف المشاركة في الجبهة الكردستانية العراقية (جك) وخارجها، وكل أبناء كردستان المخلصين، لتخليصها مما يشوبها من نواقص وثغرات تتمثل في نزعة الاستئثار وسياسة المناصفة، وعدم الاستفادة من كل الطاقات والكفاءات، بسبب من ضعف الإيمان بالديمقراطية والتحزب الضيق، واضطراب الأمن، والاغتيالات السياسية، وغيرها من الأمور التي تثير قلق المواطنين، إضافة إلى الضائقة المعاشية الخانقة الناجمة عن الحصار المزدوج، بالأساس. كل ذلك كان يتطلب تأمين مستلزمات حماية التجربة بتعزيز مكتسبات الجماهير للدفاع عنها، وعدم المبالغة في التعويل على العامل الخارجي. غير أن اندلاع القتال في أوائل أيار ١٩٩٤ جاء بالضد مما تتطلبه حماية التجربة وتوطيدها وتطويرها. إذ لم تمض على انعقاد م.و ـــ ٥ بضعة أشهر حتى توترت الأجواء بين الحزبين اللذين يقتسمان السلطة (حدك واوك) وبدت نذر انفجار الصراعات العنيفة بينهما.

وبذل حزبنا مع القوى والفعاليات السياسية والاجتماعية الكردستانية والعراقية جهوداً كبيرة لتهدئة الحالة وتفادي الصراعات والصدامات العنيفة. غير أن هذه الجهود لم تسفر عما يوقف الصراعات ويحول دون تحولها إلى صدامات دموية، وذلك بسبب من استمرار وتعمق النواقص والثغرات التي سبق لحزبنا أن شخصها وأعلنها للرأي العام في بيانات رسمية وطالب الحزبين بمعالجتها، وكذلك بسبب من سوء تقدير الوضع وما يحويه من مخاطر من قبل الحزبين، من جهة أخرى، إضافة إلى أعمال التخريب والاستفزاز التي يقوم بها عملاء النظام، ومساعي القوى الدولية والإقليمية وشبكاتها التخريبية التي لا يروق لها نجاح التجربة الكردستانية وتسعى لإفشالها بمختلف السبل.

وأشار مشروع الحزب الشيوعي الكردستاني ـــ العراق (حشك) لحل الأزمة السياسية في كردستان العراق الصادر في أواسط حزيران ١٩٩٤ إلى طبيعة الأزمة التي سببت القتال والعوامل التي أدت إليه، وفي مقدمتها ضعف الإيمان بالديمقراطية بين طرفي النزاع وسياسة المناصفة، وتغليب العنف وتجنب إدارة الصراع بصورة سلمية، في ظل الحريات العامة والسعي لكسب الرأي العام بقوة الإقناع، وعدم الاستعداد لقبول نتائج هذا الصراع السلمي عبر الانتخابات الحرة النزيهة. وساعد كل ذلك على تصاعد نشاطات السلطة التخريبية وعملائها. إن رفض طريق التنافس السلمي، عملياً، يفسح المجال لنزعة فرض الأمر الواقع بالقوة، ويؤدي، كما حصل، إلى استخدام العنف وسفك الدماء في اقتتال لا يستفيد منه غير أعداء الشعب الكردي وقضيته العادلة، وتهديد

التجربة كلها بالنسف، وإضعاف نضال الشعب العراقي كله ضد الدكتاتورية.

لقد بذل حزبنا، وخصوصاً رفاقنا في حشك، بالتعاون مع القوى الأخرى من عراقية وكردستانية، جهوداً حثيثة منها قيام مظاهرات واجتماعات واعتصامات وغيرها من أساليب الكفاح، طيلة المدة التي أعقبت أيار ١٩٩٤ حتى الآن، من أجل وقف القتال، وذلك انطلاقاً من الإيمان بأن الحل الذي يستند إلى القوى الداخلية، وقناعة الحزبين وقبولهما بالحل السلمي هو الأضمن والأسلم والأكثر انسجاماً مع مصالح الشعب الكردي، ومصالح النضال ضد الدكتاتورية، واستعادة كردستان لمكانتها كركيزة لنضال المعارضة العراقية، وإمكانية صيرورتها مثالاً يقتدى من جانب جماهير شعبنا العراقي ككل.

وتبذل القوى الكردية المؤتلفة في لجنة التنسيق الوطني الكردستاني، وقوى معارضة عراقية، جهوداً حثيثة من أجل استعادة الشرعية على عموم كردستان وعودة البرلمان، وتوسيعه بإشراك القوى السياسية خارج الحزبين وشخصيات وطنية مستقلة، وتمديد ولايته، وعقد المؤتمر الشعبي الكردستاني، وتشكيل حكومة ائتلافية واسعة تأخذ على عاتقها تكريس الأوضاع الطبيعية، وإزالة مخلفات الاقتتال الانتحاري، والتمهيد لإجراء انتخابات حرة نزيهة بعد تامين مستلزماتها السياسية والقانونية والفنية. فعن هذا الطريق يمكن أن يجري الحفاظ على التجربة وتوطيدها وتطويرها، ومنع تطاول النظام الدكتاتوري والقوى الإقليمية والدولية عليها أو جعلها ورقة في صراعاتها.

أما بقاء الحال على ما هي عليه فإنه ينذر باشتداد التوتر، وبمخاطر تقسيم كردستان، ويفسح المجال لتدخلات أكبر وأخطر للقوى الإقليمية والدولية التي تسعى دوماً إلى مراعاة مصالحها بالضد من مصالح الشعب الكردي.

خامساً: تداخل العوامل الداخلية والإقليمية والدولية واحتمال تطور الوضع باتجاه التغيير

إن الإرهاب الدموي الذي عانته القوى والأحزاب السياسية في العراق طيلة حوالي ربع قرن أدى إلى انعدام إمكانية وجود عمل سياسي معارض مكشوف داخل الوطن، وصعّب إلى أبعد الحدود ممارسة قيادة نضالات شعبية معارضة للنظام من قبل قيادات تعمل سراً في ظل سيطرة أجهزة القمع والإرهاب، الأمر الذي أدى إلى اضطرار غالبية القيادات السياسية المعارضة ما قبل انتفاضة آذار ١٩٩١ إما إلى تنظيم الكفاح المسلح في كردستان العراق أو ممارسة المعارضة من الخارج. وقد سبب هذا الواقع ضعف ثقة

عدد من قوى المعارضة بإمكانيات شعبنا على منازلة الدكتاتورية، وجعلها تتطلع إلى العامل الخارجي للاستعانة به على إزاحتها.

وقد فوجئت غالبية قوى المعارضة، بانتفاضة آذار ٩١ المجيدة التي أثبتت بشكل قاطع رفض شعبنا لنظام صدام حسين، وقدرته على منازلته وإلحاق الهزيمة به، لولا فقدان القيادة السياسية الموحدة في ميدان المعركة، والتواطؤ الذي تم بالسماح للنظام بسحق الانتفاضة الشعبية وتمكينه من ذلك عملياً من قبل قوات التحالف الدولي وفي مقدمتها القوات الامريكية.

وشكل هذا الواقع شعوراً لدى أوساط غير قليلة في صفوف المعارضة بالتعويل على العامل الخارجي واستصغار دور العامل الداخلي في تحقيق هدف الشعب بإسقاط النظام الدكتاتوري، وإهمال دروس انتفاضة آذار ٩١ المجيدة.

إننا إذ لا نستهين بدور العامل الخارجي، خصوصاً وأن القضية العراقية قد دوّلت بغزو الكويت، ومن ثم التحكم بالوضع في العراق من خلال العقوبات الدولية، وقرارات التفتيش، والمنطقة الآمنة شمال خط العرض ٣٦، والحظر الجوي جنوب خط العرض ٣٢، وغير ذلك من القرارات، فإن هذا كله لا يمكن أن يلغي أن قوى التغيير الحقيقية ينبغي أن تكون من داخل الوطن، وليس التعويل على القوى الخارجية لأخذ هذه المهمة على عاتقها بدلاً عن القوى الداخلية.

إن هذا لا ينفي واقع حاجة القوى الداخلية — التي يعوّل عليها في التغيير — إلى الإسناد الخارجي المعنوي وحتى المادي عند الضرورة. إن نظام صدام حسين مايزال يمتلك قوى قمعية ضاربة تستطيع التعامل مع أي تحرك منفرد لقوى المعارضة، الأمر الذي يحتم ضرورة تجميع هذه القوى في عمل موحد واسع يستطيع أن يقضي على التفوق المؤقت لقوى القمع الصدامية وكسب أوساط من داخل مؤسسات السلطة وتحريك الطاقات الشعبية ومخزون الغضب الهائل ضد النظام.

وينبغي أخذ مجمل هذه العوامل وتجلياتها بنظر الاعتبار عند التفكير بآفاق تطور الوضع واحتمالاته ووضع الخطط لتحقيق التغيير الذي ينشده شعبنا. فمن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية التي قادت قوات التحالف الدولي — وكذلك قوى إقليمية في مقدمتها السعودية — لم تكن تريد أن ينهار نظام صدام على أيدي أبناء الشعب الذين انتفضوا في آذار ٩١، وكادوا أن يجهزوا عليه لولا التواطؤ الذي أبقى قوات الحرس الجمهوري بكامل قوتها، وسمح لها بالعودة سالمة، لتقوم بذبح الانتفاضة على مرأى

ومسمع قوات التحالف الدولي، ومنع الانتفاضة من الإتيان ببديل لا ترضى عنه أمريكا والسعودية.

إن هذا الواقع بدلالاته العميقة ظل يتحكم بالدور الأمريكي بصفته الأبرز والأهم دولياً. فبرغم التظاهر بمساعدة المعارضة العراقية أدت التدخلات الأمريكية إلى إيذاء المعارضة الحقيقية للنظام وإضعافها، لأن هذه التدخلات كانت محكومة بتقدير يقول: «إن صدام ضعيف ومعزول خير من بديل غير معروف وغير مسيطر عليه»، فضلاً عما يتيحه بقاء صدام في السلطة من إمكانيات لاستخدام نزعاته العدوانية وحماقاته لتعزيز الوجود الأمريكي في المنطقة واستنزاف دول الخليج بتحميلها نفقات هذا الوجود وتسديد الأثمان الباهظة بمليارات الدولارات للأسلحة الأمريكية والغربية التي تفرض عليها.

إن هذا التقدير مايزال يتحكم في سلوك الأوساط المتنفذة في الخليج ويظهر في تصريحات مسؤولين فيها. فعلى الضد من «السخاء غير المحدود» في دعم صدام أيام الحرب العراقية ــ الإيرانية بعشرات ألوف الملايين من الدولارات، يضن هؤلاء بما يتوجب عليهم تقديمه لمساعدة الشعب العراقي الذي يتحدثون طويلاً عن تعاطفهم معه في محنته وتأييدهم لمساعيه للخلاص من نظام صدام حسين.

أما موقف تركيا فقد ظل محكوماً بمصالحها ومطامعها وعدائها للحقوق القومية للشعب الكردي داخل وخارج حدودها. واتخذت من نشاطات حزب العمال الكردستاني في تركيا ذريعة مفضوحة لاجتياح الحدود العراقية أكثر من مرة. وواصلت ضغطها على القادة الأكراد للتصالح مع نظام صدام لضمان عودة قواته وأجهزة قمعه إلى المنطقة وقبر التجربة التي تعيشها كردستان منذ عام ١٩٩٢. كما أن القادة الأتراك لم يكفوا عن ترديد التصريحات التي تكشف مطامعهم العدوانية بأرض العراق وثرواته والمطالبة بعودة ولاية الموصل إلى تركيا. ويواصلون سياستهم التعسفية في مجال المياه ورفض الاعتراف بالرافدين: دجلة والفرات، باعتبارهما نهرين دوليين وما يترتب على ذلك من حقوق تاريخية للعراق وسوريا في مياههما، وسلب هذه الحقوق عن طريق بناء السدود وحجب ما يستحقه البلدان من مياه الفرات. وهي سياسة عدوانية خطرة على مستقبل البلدين تهدد باندلاع نزاعات خطيرة على الضد من مصالح شعوب البلدان الثلاثة، تتطلب الوقوف في وجهها بحزم.

وفي إيران استمر عدم التوازن في التعامل مع نظام صدام. ولوحظ تنامي الميول التي تدعو لـ«التفاهم» معه بذريعة أن الطرفين، إيران والعراق، هدف لسياسة الاحتواء

المزدوج الأمريكية. وبالتالي فإن من «المصلحة» أن يتم التقارب بينهما. وقد أوشكت الجهود التي يمثلها هذا القرار في فترة سابقة أن تفلح في عقد لقاءات على مستوى رفيع بين الطرفين، غير أنها سرعان ما كانت تنتكس جراء عمق الخلافات بينهما، وانعدام الثقة في تحقيق الالتزامات التي يأخذها كل طرف على عاتقه، وخصوصاً بشأن الأسرى، وكذلك الخلافات بشأن قضايا الحرب العراقية الإيرانية كالتعويضات وغيرها.

ولابد عند الحديث عن العامل الإقليمي من التوقف عند التغيير الهام الذي حصل على الموقف الأردني. وتحوله من دعم نظام صدام حسين إلى الإعلان عن ضرورة التغيير في العراق، وتخليص شعبه من المحنة. واستقطب التحرك الأردني بعض قوى المعارضة العراقية وعارضه بعضها الآخر، وظلت غالبيتها تتعامل مع الموضوع بحذر. إن حزبنا لا يرفض المساعي الهادفة إلى تشديد عزلة نظام صدام سياسياً. ولكننا لا نقبل النيابة عن الشعب وقواه الوطنية في تقرير مصيره ورسم مستقبله والنظام الذي يريده.

وجاء اجتماع دمشق (نيسان ١٩٩٦) كمحاولة لانتشال المعارضة العراقية من حالة التشتت والفرقة، إلا أنه فشل في تحقيق أي مسعى في هذا الاتجاه، خاصة بعد استبعاد حزبنا والتيار الديمقراطي من المشاركة، جراء المواقف المتعنتة لحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية مما أدى إلى تعمق حالة التشتت والتمزق التي تعيشها قوى المعارضة العراقية. وقوبلت هذه المواقف باستنكار واحتجاج واسعين من قبل مختلف القوى السياسية في بلادنا والمنطقة.

في ظل الأوضاع المعقدة والمتشابكة في بلادنا والتي شهدت تغيرات متنوعة سلبية وإيجابية، عكفت اللجنة المركزية (ل.م) منذ م.و ــ ٥ على متابعة الوضع واحتمالات تطوره والسعي لتأمين متطلبات كل احتمال. وأعدت ل.م ورقة عمل عن احتمالات تطور الوضع السياسي في ضوء دراسات حزبية سابقة منذ أوائل كانون الأول ٩٤. وتم تعميم أهم ما فيها، وجرت الاستفادة منها في إعداد تقرير ل.م إلى المجلس الحزبي الرابع في آب/ ٩٥ ويمكن تلخيص أهم ما فيها بما يلي:

ــ ازدياد عمق الأزمة الشاملة، واشتدادها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

ــ غياب العمل السياسي الجماهيري المنظم بسبب الإرهاب الدكتاتوري الدموي، وتصفية تنظيمات قوى المعارضة في الداخل إلى حد كبير.

ــ استمرار وتعمق الضائقة المعاشية الخانقة.

ــ حالة الفوضى والانفلات وفقدان الأمن.

كل ذلك يجسد حالة من التوتر الاجتماعي تنذر بالانفجار الذي يصعب التحكم به في ظل غياب كبير للمعارضة المنظمة داخل البلاد (عدا إقليم كردستان). واستناداً لهذا فإن احتمالات التغيير اليوم متعددة. وهي ترتبط بدور وقوة مجموعة من العوامل الأساسية، وهي:

١ــ النظام الدكتاتوري وما يمتلكه من قوى لمواصلة البقاء ومواجهة أي تحرك شعبي مضاد له.

٢ــ قوى المعارضة ودورها وفعاليتها، استمرار تشتتها، أو الوصول إلى نوع من وحدة نشاطها، أو التنسيق بين قواها الفاعلة في الداخل والخارج.

٣ــ دور الحركة الجماهيرية والقدرة على استنهاضها.

٤ــ دور الجيش والقوات المسلحة وإمكانيات توظيف هذا الدور لصالح النضال المعادي للدكتاتورية.

٥ــ العامل الدولي والإقليمي وتشابك وتناقض مصالح القوى المؤثرة فيه، أو بين هذه القوى والنظام الدكتاتوري.

إن النظام يمكن أن يستمر في السيطرة على الوضع، رغم كل العوامل الموضوعية التي تساعد على إسقاطه، إذا ما ظلت قوى المعارضة تعاني ما تعانيه الآن من تشتت، وابتعاد عن الساحة الحقيقية لمنازلة الدكتاتورية، وإذا ما ظل العاملان الدولي والإقليمي في موقفهما غير الحاسم من استمرار النظام، ومن التلكؤ في إبداء دعم جدي للمعارضة العراقية في نضالها لإزاحته.

وبرغم ذلك فإن تفاعلات الأزمة في الداخل، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، يمكن أن تسفر عن انفجار الغضب الشعبي الناجم عن الإرهاب والتعسف والضائقة المعاشية المتفاقمة.

كما أن السخط الجماهيري الواسع والاحتقان الاجتماعي والتذمر المتعاظم، داخل حزب السلطة وفي صفوف القوات المسلحة، يمكن أن يؤدي إلى انقلاب عسكري يحرك دعماً شعبياً يحول الانقلاب إلى انتفاضة شاملة، أو حتى انقلاب يقوم به عدد من الضباط الكبار لتفادي انفلات الوضع والعصف بهم وبالنظام كله. كما يمكن أن يأتي التغيير بفعل تدخلات خارجية تنفيذاً لمخططات تستهدف إقامة بديل ترضى عنه الجهات التي تقف وراء هذه المخططات، بالاستفادة من تدهور الأوضاع واحتمالات انفلات الوضع، وللحيلولة دون قيام بديل لا يرضيها.

إن قوى شعبنا الوطنية التي تناضل من أجل بديل ديمقراطي حقيقي لا تريد هذا التغيير الذي يتناقض مع ما ناضلت من أجله عشرات السنين وقدمت في سبيله أغلى التضحيات.

«إن موقف حزبنا، تجاه هذه اللوحة المعقدة والمتشابكة، سيظل (كما أكد المجلس الحزبي الرابع) كما كان سابقاً، يعتمد، في الأساس، على العامل الداخلي في التغيير، على قوى شعبنا المكتوية بنار الدكتاتورية، بمن فيها فئات واسعة داخل الجيش والقوات المسلحة، وكذلك عناصر بين صفوف الحزب الحاكم، مع السعي للاستفادة من العاملين الإقليمي والدولي بما ينسجم مع مصلحة شعبنا وسيادة وطننا.».

ولابد من التأكيد أن إمكانياتنا، في الظرف الراهن، في ترجيح الاحتمالات التي تنسجم مع مصلحة الشعب والسيادة الوطنية التي يجسدها البديل الديمقراطي، الذي ندعو إليه، ماتزال دون المستوى المطلوب في شتى المجالات، الأمر الذي يحملنا جميعاً مسؤولية تأمين المستلزمات الضرورية من أجل أن يلعب الحزب دوره المطلوب، الذي تنتظره جمهرة واسعة من أبناء الشعب، عند حدوث أي منعطف في تطور الأوضاع.

سادساً: سياستنا التحالفية

سعى حزبنا لإقامة أوسع التحالفات السياسية على أساس الاستقلال الفكري والسياسي والتنظيمي لكل طرف من أطرافها بعيداً عن نزعات الاستئثار والتسلط وغمط حقوق أية قوة سياسية قادرة على أن تسهم في العمل النضالي لإسقاط الدكتاتورية. ذلك أن التجربة أثبتت أن هذه النزعات الضارة هي التي سببت فشل غالبية التحالفات السابقة وأوصلت عمل المعارضة إلى ما هو عليه من تشتت وصراعات غير مبدئية.

وإننا إذ نعمل من أجل وحدة نشاط المعارضة ضد الدكتاتورية بالاستفادة من التجارب السابقة، بما في ذلك تجربتنا في المؤتمر الوطني العراقي الموحد وسلبياتها وإيجابياتها، نسعى من أجل تعزيز دور التيار الديمقراطي الذي يناضل لتحقيق الديمقراطية ببعديها السياسي والاجتماعي، في مجمل عمل المعارضة، تمهيداً للدور الذي ينبغي أن ينهض به في عراق الغد الديمقراطي.

وإن ما سنحرص عليه في عملنا، في مجال التحالفات السياسية، هو الحفاظ على استقلالية الحزب في رسم سياسته وضمان قدرته على التحرك المستقل للدعوة لمبادئه ومواقفه السياسية وتحالفاته الثنائية أو متعددة الأطراف مع القوى الأخرى.

وسنعمل على ضمان مشاركتنا في المداولات التي تجري للبحث في مستقبل العراق،

مع مراعاة التوازن في تحركنا، وتعزيز صلاتنا بالأطراف الأقرب إلينا سياسياً وفكرياً. وسنتصدى لطروحات الاستئثار ونمط التفكير اللاديمقراطي، والتي تسعى لإبعاد حزبنا وإضعاف دور التيار الديمقراطي في مجمل عمل المعارضة.

وعلى هذا الصعيد فإننا بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتقصي لمتابعة مواقف القوى والتيارات والمظاهر المختلفة في ميدان العلاقات والتحالفات من قبيل:

ــ التيارات الأربعة والقوى السياسية في ساحة المعارضة، وسبل تفعيل التيار الديمقراطي.

ــ القوى والاتجاهات الليبرالية.

ــ البحث في أشكال التنسيق والتعاون والأطر الممكنة بين مختلف القوى والفعاليات المعارضة في الوضع المعقد الحالي.

سابعاً: تصاعد مظاهر تحدي الدكتاتورية

أدى تدهور الأوضاع المعاشية وشدة معاناة غالبية أبناء الشعب، إلى جانب إثراء حفنة من المقربين لدائرة السلطة، والإرهاب والقمع الدموي وتفنن السلطة بأساليب التصفيات الدموية والاعتقالات الكيفية، أدى كل ذلك إلى اتساع التذمر والسخط وروح التحدي وتصاعد مظاهر الرفض والاحتجاج وبلوغها مستوى المجابهة المسلحة في أحايين كثيرة، كما حدث في الرمادي وأبو غريب.

وبفعل اتساع مظاهر المقاومة المعادية للسلطة وأجهزتها القمعية أصبح عدد من المحافظات بعيداً عن سيطرة السلطة طوال فترة المساء والليل كل يوم. كما فقدت الأجهزة الأمنية سيطرتها على مناطق واسعة من المدن والقصبات والأرياف في الوسط والجنوب.

وامتد السخط والاحتجاج إلى فئات وشرائح واسعة داخل المؤسسات المدنية والعسكرية للنظام. شاملين الجنود والمراتب وصغار الضباط الذين يعبرون عن تذمرهم علناً. كما أخذت ظاهرة هروب أفراد القوات المسلحة جنوداً وضباطاً صغاراً وكباراً، مديات واسعة. ويزداد عدد الملتحقين من كبار الضباط بالمناطق المحررة في كردستان العراق. وارتباطاً بكل هذا تزداد حالات الغليان داخل المؤسسة العسكرية ومعها تزداد الرغبة في الخلاص من الطغمة الحاكمة. وتتسع عمليات المقاومة الشعبية بأساليب ومسميات ووسائل مختلفة، حيث استطاع عدد من قوى المعارضة ابتداع الأساليب المناسبة في توزيع الصحف والمطبوعات والملصقات، كما تنتشر الشعارات المنددة

بالدكتاتورية في أرجاء واسعة من مدن الوطن. وتلعب إذاعات المعارضة العراقية دورها في تعبئة فئات تتسع باستمرار ضد السلطة وممارساتها الاستبدادية.

وفشلت كل محاولات الدكتاتورية، سواء الإرهابية منها أو إعلانات العفو، في استدراج عشرات الألوف من رافضي الخدمة العسكرية.

إن هذه المظاهر وغيرها يمكن أن تزداد وتصبح أكثر فاعلية إذا ما اقترنت بالعمل المنظم لقوى المعارضة العراقية، ووضع الخطط العملية للنضالات الشعبية المعادية للدكتاتورية، وإذا ما نجحت قوى المعارضة في تحقيق الحد الأدنى من التنسيق والعمل المشترك.

إن تحريك الجماهير وتفعيل نشاطها المطلبي والسياسي يعتبر إحدى المهمات الأساسية لنضال الحزب، لتساهم بدورها المنشود في عملية التغيير وتحديد ملامح المستقبل.

ثامناً: الديمقراطية والتجديد

شكلت موضوعة إشاعة الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية، والتجديد على الصعيد الفكري والسياسي والتنظيمي، هاجساً أساسياً في عمل الحزب منذ التحضير للمؤتمر الوطني الخامس. وإن ما تحقق على هذه الصعد ليس بالقليل، غير أنه يظل دون الطموح، ويتطلب مواصلة العمل بجد على ترسيخ روح الديمقراطية والتجديد، والإبداع في تجسيد وتطوير المنطلقات التي وضعها م.و ــ ٥. فقد جرى التوجه والعمل لتدقيق خطابنا السياسي، والاعتماد أكثر فأكثر على الوقائع والحقائق الموضوعية في رسم المهمات والحلول والتخلص من الأحكام الجاهزة، واعتماد المحاججة والمنطق العلميين في التعامل مع المشاكل، ووجهات النظر المختلفة والمخالفة. وجرى التركيز على الديمقراطية كمفاهيم، وكممارسة ونظام سياسي بديل. ولتحقيق ذلك عمل الحزب على أن تكون علاقاته بالقوى السياسية الأخرى نشطة، تقوم على أساس الاستقلالية والتكافؤ والاحترام المتبادل، واعتماد هذه الأسس في بناء التحالفات السياسية، وتشذيب الممارسات المنافية لها، على هذا الصعيد، بمرونة ومبدئية، تحفظ للحزب مكانته وتزيد من تأثيره في مجموع العمل المعارض وتعبئة الجهود لإنجاز المهمة الرئيسية، مهمة إسقاط الدكتاتورية.

غير أن هذا كله جرى ويجري في ظل ظروف صعبة تمثلت بضغوط عديدة للتأثير على وجهة الحزب وخطابه السياسي وإبعاده عن انتهاج سياسة مستقلة متوازنة تحافظ على هويته الفكرية والسياسية بين كل قوى المعارضة، وحيادية فعالة تجاه الصراعات

التي تجري بين حلفائه، كما جرى في كردستان، ترفض الانجرار إلى هذا الطرف أو ذاك أو المجاملة على حساب القضايا المصيرية ومصلحة الشعب العليا.

وإن مواصلة ترسيخ الديمقراطية والتجديد في هذا المجال، وكل المجالات الأخرى، تتطلب تفهم الواقع الذي يعيشه الحزب وحركة المعارضة، وتأمين المستلزمات الضرورية لتحقيق هذه المواصلة بنجاح.

وفي الحياة الداخلية، حقق الحزب نجاحات في ميدان العلنية في رسم سياسته العامة وصياغة شعاراته وتكتيكاته، إذ لم يعد ذلك حكراً على عدد من قياديي الحزب وكوادره، بل صار شأناً يخص كل هيئاته ولجانه المختلفة تمارس تطبيقه من خلال ترسيخ القيادة الجماعية والتفاعل الحي بين أعضاء الهيئات واللجان وفيما بينها أيضاً، ومن خلال الاجتماعات الموسعة.

فقد انتظمت اجتماعات الهيئات القيادية الاعتيادية والموسعة والمشتركة، ويستقر أكثر عمل لجان الاختصاص المركزية وتتسع مساهماتها في نشاط الحزب.

وانتظم اطلاع المنظمات الحزبية على الأجواء التي تسود عمل ل.م واجتماعاتها وقراراتها من خلال النشرات والرسائل الداخلية، وزيادة مساهماتها في رسم سياسة الحزب وتنفيذها، من خلال ما تعده من تقارير ومشاريع وثائق سياسية وفكرية تحضيراً لاجتماعات ل.م.

ولتنشيط الصراع الفكري وتحسين إدارته جرى إيلاء اهتمام جدي بالرأي الآخر وإفساح المجال لطرحه على مجموع الحزب، سواء في صحافته العامة (طريق الشعب، وريگاي كوردستان ورسالة العراق، الثقافة الجديدة) أو النشر الداخلي (مناضل الحزب وحياة الحزب). هذا فضلاً عن تحفيز دائرة واسعة من الكوادر، على إبداء آرائهم بمجمل سياسة الحزب (كما جرى في التحضير للكونفرنس الرابع والمؤتمر السادس).

وتوطدت خلال السنوات الثلاث المنصرمة الانتخابات الحزبية كاسلوب لاختيار الرفاق لجميع المراكز الحزبية خصوصاً في منظمات (حشك) والخارج.

وبرغم ما تحقق من نجاحات، فليس من الصحيح تجاهل واقع أن الحزب لم يتخلص بعد من جميع الشوائب والعيوب في هذا المجال. وإن هذه العملية تتطلب وعياً عالياً ودأباً متواصلاً وعملاً تربوياً وتثقيفياً كبيراً، للتغلب على صعوبة التكيّف مع الأساليب الجديدة بالنسبة لبعض الرفاق، وحاجة البعض الآخر إلى الوقت لهذا التكيف ونبذ الأساليب المعرقلة، وتذليل الصعوبات الناجمة عن التباعد في المواقع النضالية وما ينجم عنها من

تفاوت واختلاف في فهم الظواهر والمشاكل التي تواجه الحزب. ويثير هذا الواقع أيضاً جملة من العقبات التي تعيق إمكانية التشاور السريع والفعال بين اللجان والرفاق، أو تحول دون إنجاز اجتماعات نوعية متخصصة، أو تهيئة بعض الدراسات والمقترحات وأوراق العمل التي يتطلبها التطور السريع للأحداث.

وتتصدر هذه العقبات الأوضاع غير الطبيعية التي تحيط بالحزب وشحة الكادر القريب من ل.م ولجان الاختصاص المركزية، وضعف إمكانياته المالية.

كما أن بعض التجاوزات أو مظاهر الخروج عما هو نظامي وأصولي في مجال إبداء الرأي الآخر يجب أن لا تدفع الحزب للتخلي عن الاتجاه الصحي السليم الذي اتبعه ومواصلة البحث عن أفضل الصيغ لتفاعل الآراء والاجتهادات وتثمير نتائجها لصالح تطوير العمل الحزبي فكرياً وسياسياً، مع الانتباه إلى أن حرية النقاش يجب أن لا تضر سرية العمل التنظيمي وأن لا تقدم مادة مجانية، بدون قصد، للإضرار بالحزب.

ولابد من التوقف عند واقع أن ممارسة العملية الانتخابية شهدت بعض الأخطاء والظواهر السلبية. غير أن هذا ينبغي أن لا يثني الحزب عن مواصلة السعي من أجل ترسيخ هذه الأداة الضرورية لمعافاة الحياة الحزبية ومعالجة ما أفرزته من سلبيات، من قبيل ضعف الوعي الديمقراطي الانتخابي وتغليب المعايير الذاتية أحياناً، من شخصية وعائلية ومناطقية وغيرها، وأن يتم هذا السعي بوسائل تربوية وتثقيفية منسجمة مع النظام الداخلي ولا تتناقض مع الديمقراطية الحزبية، واعتماد معايير النقد الرفاقي الموضوعي الهادف إلى تصحيح الأخطاء وتطوير العمل الحزبي، وتعزيز اللحمة الرفاقية في العمل والابتعاد عن التبرم وضيق الصدر والتعامل الشخصي، وغير ذلك من الظواهر السلبية.

وعلى الصعيد الفكري ظلت قلة الكادر المختص المؤهل المحيط بالهيئات القيادية ولجان الاختصاص، وضعف استجابة المعنيين من المقيمين في الخارج للمناشدات الحزبية العديدة، بسبب عوائق موضوعية وذاتية، في مقدمة العوامل التي عرقلت توجه الحزب نحو تنشيط العمل الفكري وتحقيق نجاحات على هذا الصعيد تنسجم وأهمية هذا المجال وطموحنا لتطويره.

ولملافاة شيء من هذا النقص تم تشكيل لجنة في الخارج، وبرغم الصعوبات المتعلقة بشحة الكادر وانشغال الرفاق بمهمات كثيرة شكلت لجنة مختصة للعمل الفكري أوائل هذا العام من أجل تحريك الأجواء وتحفيز الرفاق المختصين للإقدام على خطوات ملموسة على طريق تدقيق المفاهيم النظرية بما ينسجم مع واقعنا، وما شهده من

تطورات، وخصوصاً خلال العقود الأربعة الأخيرة، ارتباطاً بتجربتنا الوطنية ومحيطنا القومي، وتدارس التجربة السابقة للحركة الشيوعية العالمية وانهيار «النظم الاشتراكية» السابقة، وتأثير ذلك على عملنا ونضالنا في العراق وفي المحيطين الإقليمي والعربي.

إن حصيلة تجربتنا من م.و ـــ ٥ حتى الآن تؤكد أن عملية التجديد وترسيخ الديمقراطية إنما هي عملية عسيرة ومعقدة، وإن ممارستها بنجاح ليست أقل عسراً وتعقيداً، بسبب بعض المفاهيم النظرية المشوهة، وقوة العادة، وما تركته التقاليد والممارسات السابقة من آثار يصعب تجاوزها بسهولة وبفترة زمنية قصيرة، هذا إلى جانب التأثير السلبي للظروف الموضوعية في بلادنا وعموم الأجواء المحيطة بعمل الحزب المتمثلة بنظام القمع والإرهاب ومستوى التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

وبحكم ارتباط العملية بحركة الواقع والظواهر الجديدة، التي يفرزها، فهي بحاجة إلى المزيد من الجهد الجماعي والوقت الكافي لها، إلى جانب الحاجة إلى الصراع والتفاعل من أجل بلورة مفهوم متكامل متطور لعملية التجديد سواء على صعيدي النظرية أو الممارسة.

ووفق هذا الفهم فهناك الكثير من الأسئلة التي تتعلق بمستقبل حركتنا من العسير إعطاء إجابات نظرية وافية ومتكاملة بشأنها في الوقت الحاضر، مثلما بتنا ندرك أفضل من السابق طبيعة العلاقة والتأثيرات المتبادلة بين المقولات والمفاهيم المجردة وتجلياتها في التجربة العملية، وكيف أن الأهداف المحددة لأي حركة تنبع أساساً من التناقضات والنزاعات الواقعية والإمكانات المتوفرة للتطور وليس وفق مخطط نظري جاهز.

ولازال الجدل قائماً داخل الحزب وفي محيطه حول الموقف من عملية التجديد. ويمكن الإشارة هنا إلى ثلاثة ميول:

ـــ الميل المحافظ المتسم بالركود والانشداد إلى الماضي.

ـــ الميل العدمي المتسم بالليبرالية والتحلل من الالتزامات السياسية والفكرية.

ـــ الميل التجديدي الذي يسعى باستمرار للاقتراب من الواقع والتعامل بموضوعية مع الظواهر.

وبين هذه الاتجاهات العامة الثلاثة هناك وسط لم يتبلور بعد، يظهر في حالات من التأييد العفوي وفق اعتبارات فوقية أو آنية لهذه الوجهة أو تلك. غير أن هناك حقيقة واضحة وهي أن الرأي العام الحزبي الغالب هو مع عملية التجديد والتطوير بالمنظور الذي يسعى إليه الحزب.

من جانب آخر أكدت تجربتنا كم هي خطرة على عملية التجديد المعايير الذاتية والانتقائية، التي تنطلق من مواقف خاصة مخلة بموضوعية هذه العملية. وأظهرت مدى حاجتنا إلى الواقعية في رصد الظواهر في حياتنا الحزبية وعلاقاتنا من خلال تفعيل المنهج المادي الجدلي، في أخذ الظروف الملموسة ومستوى التطور الاقتصادي — الاجتماعي — الثقافي بنظر الاعتبار عند صياغة مفاهيم التجديد والديمقراطية أو عند ممارستها فعلياً.

إن الميول الهادفة إلى معارضة إشاعة الديمقراطية بذرائع من قبيل التقاليد السائدة في المجتمع والحزب وغياب الثقافة السياسية، وحالة التخلف الاجتماعي أو المستوى الحضاري المتدني، والتعكز على «الخصوصيات» و«الواقع الملموس» لعرقلة ما هو ناضج وممكن باتجاه إشاعة الديمقراطية داخل الحزب وتجديده، فكراً وممارسة وتنظيماً، وكذلك محاولات التوظيف المفتعل لمآل البرسترويكا المأساوي لصالح تكريس روح المحافظة والجمود، إنما هي ميول خطرة ومؤذية. ولا يقل خطراً عن هذه الميول سعي البعض لاستنساخ تجارب الآخرين ومحاولة فرضها قسراً على واقعنا دون أخذ خصوصيات هذا الواقع بنظر الاعتبار عند الاستفادة — وهي أمر ضروري — من تجارب الآخرين.

من هنا تبقى الحاجة إلى تشخيص كلا الميلين الخاطئين للموقف من صياغة الأشكال الملموسة لممارسة الديمقراطية في هذا البلد المعين والركون لمقولات الديالكتيك وأحكامه في هذه العملية.

وتبقى عملية البحث قائمة من أجل الوصول إلى قراءة صحيحة للمآل الذي انتهت إليه التجارب السابقة لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية لاستخلاص نتائج سليمة ومعللة لما ادت إليه آليات بعيدة عن أفكارنا ومثلنا من قبيل عبادة الفرد والبيروقراطية والقفز على المراحل والتنكر للفعل الموضوعي للقوانين الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من نتائج مدمرة على بناء الاشتراكية، كي تتمكن أحزابنا من النهوض ومعاودة السير على هدى الاشتراكية كبديل موضوعي للرأسمالية وشرورها.

ويدخل ضمن عملية الاستقراء هذه تفحص النجاحات التي حققتها الأحزاب الشيوعية والاشتراكية واليسارية الجديدة في بلغاريا، المجر، بولونيا، روسيا وعدد من بلدان الاتحاد السوفيتي السابق وإيطاليا وغيرها مستفيدة من تجارب الماضي وإخفاقاته ومستلهمة حقائق الواقع لصياغة برامج علمية تعبر عن مصالح الجماهير الفعلية.

وتبقى الحاجة قائمة إلى التوازن في قراءة الأشياء بعيداً عن الانبهار وعن ردود الفعل العاطفية.

يعبر البعض عن قلقه وشكوكه من إمكانية الحزب أو قدرته على مواصلة نهجه التجديدي وخشيته من التراجع عن هذا المسار، ويطالب بضمانات أكيدة تحول دون هذا التراجع. إن ما يرسخ هذه العملية ويجعل من بداياتها الواعدة ظاهرة عامة وراسخة إنما هو الثقة والقناعة الممتزجتين بالنظرة الواقعية والاستعداد لخوض غمار الصراع الدائر. ذلك هو الطريق الأفضل لتأصيل الديمقراطية ومظاهر الجديد والتجديد، وهو أنجع وأكبر ضمان لديمومتها.

تاسعاً: أهدافنا الآنية والبديل الديمقراطي الذي نناضل من أجله

إن اعتبار طبيعة وممارسات الحكم القائم العامل الأساسي في الأزمة الشاملة التي تعصف بالبلاد، يقود بالضرورة إلى تشخيص مهمة إسقاط الدكتاتورية الحاكمة وإقامة البديل الديمقراطي باعتبارها ضرورة ملحة ولابد منها لإخراج البلاد من أزماتها وإنقاذ الشعب من محنه وإنهاء الحصار الشامل والعقوبات الدولية المفروضة على بلادنا، وعودة العراق بثقله الاقتصادي والبشري والحضاري والسياسي لتبوء موقعه الطبيعي والنهوض بدوره الإيجابي بين دول المنطقة.

وتلتقي مع هذا الهدف المركزي وتساعد على توفير عوامل وظروف مؤاتية للتعجيل بإنجازه جملة من الأهداف والمطالب النضالية الآنية الملحة:

ــ رفع الحصار الاقتصادي عن شعبنا.

ــ فضح وإحباط محاولات الأوساط الحكومية والدولية، على حد سواء، والتي تسعى لعرقلة وتعطيل تطبيق القرار ٩٨٦ المتضمن صيغة «النفط مقابل الغذاء».

ــ الضغط والمطالبة بتفعيل وتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨ الخاص بحقوق الإنسان في العراق.

تصعيد المطالبة بتقديم صدام حسين وأركان نظامه إلى محكمة دولية باعتبارهم مجرمي حرب ومجرمين بحق الإنسانية.

ــ المطالبة بإجراء انتخابات عامة في العراق بإدارة وإشراف الأمم المتحدة وجهات دولية محايدة.

ــ الضغط على الهيئات الدولية لتشكيل لجان تفتيش محايدة للكشف عن مصير

السجناء والمفقودين في معتقلات الدكتاتورية والتقصي عن حالة حقوق الإنسان في العراق أسوة بلجان التفتيش الخاصة بأسلحة الدمار الشامل.

ـــ النضال من أجل ضمان مشاركة ممثلي الرأي العام العراقي، متمثلين بقوى المعارضة الوطنية، في أية مساع ومحاولات تستهدف مستقبل العراق ومصالح شعبه.

ـــ السعي لكسب أوساط من داخل الحزب الحاكم والمؤسسة العسكرية إلى جانب القوى المناهضة للطغمة الحاكمة لضمان التعجيل بإسقاط الدكتاتورية وتجنيب البلاد مخاطر حرب أهلية داخلية والتدخلات الخارجية.

ـــ وضع الحكومات والقوى الوطنية والقومية التقدمية العربية والأوساط الإقليمية الدولية الحريصة على أمن ومستقبل العراق عند مسؤولياتها في دعم نضال شعبنا وقواه الوطنية للخلاص من حكامه المستبدين.

إن الأوضاع المأساوية التي تعصف ببلادنا تتطلب استنهاض كافة الطاقات وأعلى درجات الشعور بالمسؤولية لإقامة أوسع تحالف اجتماعي سياسي من القوى المناهضة للدكتاتورية لبناء العراق الديمقراطي الفدرالي الموحد على أنقاض الدكتاتورية ومؤسساتها وقوانينها وذلك من خلال:

أولاً ـــ تشكيل حكومة ديمقراطية ائتلافية مؤقتة، تضم القوى والتيارات الأساسية في البلاد، تجري انتخابات حرة نزيهة، تحت إشراف هيئات دولية محايدة، لانتخاب مجلس تأسيسي يقوم بسن دستور دائم للبلاد يشرع لإقامة نظام ديمقراطي يؤمن الحريات والحقوق الديمقراطية للشعب، وفي مقدمتها حرية التنظيم الحزبي والنقابي والمهني والاجتماعي، وحرية الصحافة والتعبير عن الرأي، وحرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية والقومية، وإلغاء التمييز بكل أنواعه، القومي والديني والطائفي.

ثانياً ـــ رفع الحصار الاقتصادي المفروض على بلادنا، وإعادة النظر في القرارات الدولية حول العراق بالشكل الذي يضمن مصالح الشعب والسيادة الوطنية، والعمل على إلغائها نهائياً.

ثالثاً ـــ الاعتراف بالحقوق القومية العادلة للشعب الكردي وحل القضية القومية حلاً ديمقراطياً على أساس الفدرالية لإقليم كردستان، والحقوق القومية والإدارية والثقافية للتركمان والآشوريين والكلدان وإزالة كل ما يعرقل احترام التنوع القومي والديني والطائفي وإلغاء سياسة التمييز والاضطهاد.

رابعاً ـــ التمسك بمبدأ التداول السلمي للسلطة، ونبذ العنف، واللجوء إلى الطرق

الديمقراطية السلمية في معالجة الخلافات والمشاكل التي تنشأ بين القوى السياسية.

خامساً ـ إزالة آثار النظام الدكتاتوري في جميع المجالات وإلغاء جميع القوانين والمؤسسات والأجهزة القمعية التي ترتبط به.

سادساً ـ اتباع كل الوسائل الكفيلة برفع معاناة الشعب، وتحسين مستواه المعيشي، والدفاع عن مصالح العمال وفقراء الفلاحين والموظفين والكادحين، ومعالجة مشكلة البطالة وتأمين الضمان الاجتماعي، وانتهاج سياسة وطنية لإعادة إعمار البلد وإزالة آثار الخراب وبناء الاقتصاد الوطني، وإطلاق التنمية الاقتصادية وحماية الثروات الوطنية واستثمارها لصالح تقدم العراق وزدهاره.

سابعاً ـ إقامة علاقات إيجابية مع الدول العربية ودول الجوار على أسس المصالح المشتركة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية واحترام سيادة واستقلال كل بلد وخياراته الحرة في تحديد مستقبله السياسي، وإقامة علاقات متوازنة مع جميع دول العالم على أساس المصالح المتبادلة واحترام العهود والمواثيق الدولية.

عاشراً: الوضع العربي

تدل قراءة الوضع العربي والإقليمي على تشابك وتداخل مجموعة من العناصر المتفاعلة والمعبرة عن توازنات القوى، بفعل التناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتجسدة بسيادة أنظمة الحكم الاستبدادية وسياسة الهيمنة الامبريالية التي عمقت التبعية والتخلف. ولقد عكس الوضع الدولي نفسه على الوضع في المنطقة العربية والشرق الأوسط، وترك غياب الاتحاد السوفيتي أثراً سلبياً على تطور الأوضاع في هذه المنطقة الستراتيجية الهامة.

إن تمزق الصف العربي واشتداد هيمنة الامبريالية الأمريكية، على المنطقة أوجد تداعيات عديدة هي على الضد من مصالح الشعوب العربية وتهدد مستقبلها وتنهب ثرواتها وتحرمها من رسم سبل تطورها المستقل إلى أمد غير معروف إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه.

فإسرائيل المعتدية، التي ماتزال تحتل الأراضي العربية في الجولان وجنوب لبنان والضفة الغربية وقطاع غزة، بدعم أمريكي مكشوف، تخرق حتى الالتزامات البسيطة التي تضمنتها اتفاقية أوسلو المجحفة بحقوق الشعب العربي الفلسطيني، وتستمر في سياسة إرهاب الدولة والتي تجلت مؤخراً في عدوانها السافر على لبنان.

وبدلاً من شجب النهج العدواني لحكام إسرائيل من جانب المجتمع الدولي جرى تكريس الوجهة التي تريد إسرائيل وأمريكا فرضها على العرب لحل الصراع العربي الإسرائيلي، وإقرار «تسوية» لا تكتفي بإهمال كل القرارات الدولية، بل وتلغي حتى مسار مدريد وتسعى إلى محاصرة سوريا الصامدة بوجه المخططات الهادفة إلى فرض ما يمس بسيادتها ومنع استرداد حقوقها المشروعة كاملة في الجولان، وإبقاء الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان خلافاً لقرارات الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

يجري تسويق «الشرق أوسطية» على الصعيدين السياسي والاقتصادي كبديل للنظام الإقليمي العربي في مرحلة تفكك عربية اقترنت باشتداد النزوع نحو القطرية، والتكتلات السياسية بين بعض الدول العربية التي لا تقوم على أساس اقتصادي.

ووفر هذا الوضع المسوغات لعدد من النخب الحاكمة في عدد من الدول العربية لإلغاء مقاطعة إسرائيل، والسعي لتطبيع العلاقات معها، على الضد من مصالح الشعوب العربية، والسعي لقبول النظام الشرق أوسطي بصفقات انفرادية. إن النظام الشرق أوسطي المطروح اليوم هو إعادة إنتاج للهيمنة الامبريالية السياسية والعسكرية بالتعاون مع إسرائيل، في صورة اقتصادية. وهذا ما أكدته قمتا الدار البيضاء وعمان «للتعاون الاقتصادي».

ومن جانب آخر تسعى الدول الأوروبية لإيجاد نفوذ مواز وهو ما تطلق عليه «المتوسط الجديد» الذي تجلى بوضوح في مؤتمر برشلونة الحكومي وفي الحديث عن الشراكة الأوروبية ـــ المتوسطة.

إن العوائل المتحكمة بالسلطة في بلدان الخليج وفئات البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية وبعض الطغم الحاكمة، التي تخاف من شعوبها، وتصادر حرياتها الديمقراطية، أو تقننها بما لا يدع لهذه الشعوب سوى هامش هزيل من الديمقراطية، برغم التفاوت فيما بينها، والملامح الخاصة بهذا البلد أو ذاك، من قطر حتى موريتانيا، صارت ترى في «تطبيع» علاقاتها مع إسرائيل والتعاون معها طريقاً لبقاء سلطتها وحمايتها من غضب الشعب. وتلتقي بهذا الشكل أو ذاك مع ما تسعى إليه الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من تعزيز هيمنتها في المنطقة عن طريق ما تسميانه «التطبيع الكامل» قبل تحقيق التسوية العادلة للصراع العربي الإسرائيلي التي يقف في مقدمة شروطها انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة والاعتراف بحق الشعب العربي

الفلسطيني في إقامة دولته الوطنية المستقلة على أرض وطنه.

إن غياب الديمقراطية، واستهتار الأنظمة الدكتاتورية والوراثية الشمولية، وتفاقم الأوضاع المعاشية والحياتية لفئات واسعة من الشعب إلى جانب الإثراء الفاحش لفئات محدودة، مع ما يرتبط بذلك دولياً وإقليمياً من تهميش الاستقلال والسيادة واستفزاز الكرامة الوطنية والقومية، كل ذلك خلق مناخاً ملائماً لبروز واتساع الحركات «الإسلامية» المتطرفة التي تقدم بديلاً معادياً للديمقراطية وتعيق نضال الجماهير من أجل إقامة أوضاع ديمقراطية حقيقية.

وتتواصل ظاهرة العسكرة والتسلح في البلدان العربية، تلك الظاهرة التي تتجسد في تخصيص ميزانيات ضخمة للتسلح على حساب الأوضاع الاقتصادية، وزج المنطقة بحروب وصراعات دامية سهلت للقوى الامبريالية التلاعب بمصائر وثروات دول المنطقة، وتحويلها إلى سوق دائم للسلاح، إضافة إلى تعميق التبعية للغرب.

وتتفاقم ظاهرة المديونية الخارجية للبلدان العربية وتزداد مخاطرها على تطور الاقتصاد والمجتمع في هذه البلدان التي خضعت للشروط المجحفة لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي الخاضعين لسيطرة الامبريالية الأمريكية والرأسمال الاحتكاري على ضد من مصالح شعوبها.

وبرغم حالة الانكفاء التي تسود المنطقة تواصل الشعوب في البلدان العربية نضالها من أجل الديمقراطية، وحماية اقتصادها الوطني وتطويره لصالح الجماهير الشعبية الواسعة، وحماية قطاع الدولة من نهب البيروقراطيين والطفيليين والرأسمال الأجنبي الذي يجري باسم الخصخصة واقتصاد السوق، ويتم تنفيذاً لتوصيات صندوق النقد الدولي وبنك الإنماء الدولي وغيره من المؤسسات، لفرض مخططاتها في شتى أنحاء العالم لصالح الاحتكارات متعددة الجنسية.

ويجري التصدي لفضح مخططات ما يسمى «الشرق الأوسط الجديد» و«السوق الشرق أوسطية» و«المتوسط الجديد» من جانب القوى الوطنية الديمقراطية والقومية التقدمية، ومجابهة هذه المخططات بالدعوة للتضامن العربي والسوق العربية المشتركة والتكامل الاقتصادي العربي.

إن البلدان العربية تشهد نضالات جماهيرية ومواقف ذات دلالة، في مختلف الساحات ومن بينها ما يجري في العراق والبحرين والجزائر وفلسطين ولبنان وغيرها.

كل هذا يعكس الطاقات الكامنة للجماهير التي يمكن أن تحرز انتصارات أكبر وأكبر

إذا ما جرى تنظيمها بفعالية أكبر، وجرى التنسيق الفعال بين القوى ذات المصلحة في التغيير داخل كل بلد عربي وعلى نطاق البلدان العربية كلها في جبهات وطنية وقومية لتحقيق مطامحها المشروعة في تحرير الأراضي العربية المحتلة وإقامة حكومات وطنية ديمقراطية ترعى مصالح الجماهير وتلبي مطالبها في الحياة الحرة الكريمة وتعزيز الاستقلال الوطني والديمقراطية وتحقيق التضامن العربي المنشود.

إن القوى الوطنية الديمقراطية، ومن بينها الأحزاب الشيوعية والقومية التقدمية والقوى الإسلامية المتنورة المعادية للامبريالية، هي القوى المؤهلة لإنجاز هذه المهمات إذا ما وحدت جهودها النضالية في كل بلد عربي وفي البلدان العربية ككل.

ورغم التراجع الذي شهدته الحركة الشيوعية في البلدان العربية، فإن أحزابها ومنظماتها ماتزال هي الأقرب لبعضها البعض والأقدر على التنسيق فيما بينها، وشهدت السنوات الثلاث المنصرمة جهوداً على هذا الطريق ظلت دون المستوى المطلوب، الأمر الذي يوجب على حزبنا أخذه بنظر الاعتبار، وبذل جهود أكبر مع أشقائه لتذليل الصعوبات التي تعترض هذا التنسيق والارتقاء به إلى مستوى أعلى والعمل على توسيع التنسيق ليشمل القوى التقدمية الأخرى.

حادي عشر: الوضع الدولي

يعيش العالم اليوم حالة من القلق وعدم الاستقرار تجسدت بشكل واضح بعد نهاية مرحلة الحرب الباردة، التي اقترنت بتفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار النظم الاشتراكية في أوروبا الشرقية.

ويتجلى أحد أبرز مظاهر حالة العالم الراهن في استمرار الصراع من أجل الهيمنة على العالم، المرتبطة بطبيعة النظام الرأسمالي وقوانين نموه وطبيعة العلاقات المتناقضة بين مراكزه الرئيسية. ويتخذ هذا الصراع أوجهاً متعددة ومتشابكة منها: الوجه العسكري ـــ السياسي، والصراع من أجل الهيمنة الاقتصادية.

وإن العولمة كأحد المفاهيم الأساسية لفهم العالم المعاصر تعبير عن العملية الاقتصادية والسياسية والأحداث والأنشطة ذات البعد العالمي المتزايد، بما تحويه من منافسة وتطور تقني هائل، وتؤكد على الترابط بين أجزاء العالم الذي تعمل الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على توظيفه لخدمة مصالحها.

ويشكل احتكار المجالات الأساسية من النشاط العالمي مصدراً لتحديات حقيقية

تواجه الشعوب. وهي:

ـ الهيمنة التكنولوجية في المجالات الحديثة.

ـ التحكم في استخدام موارد الطبيعة على الصعيد العالمي.

ـ الهيمنة على وسائل الإعلام والاتصال.

ـ الاحتكار العسكري لوسائل التدمير الشامل.

إن هذه الاتجاهات الاحتكارية تنتج وسائل اقتصادية وسياسية وعسكرية تنعكس سلباً في الميادين الثقافية والروحية للشعوب. وإن التدويل المتعاظم لرأس المال يرسم طريق الهيمنة العالمية لمجموعة قوى رئيسية في «المركز الامبريالي» على باقي العالم المحيط.

وبفعل ذلك كله تزايدت اتجاهات العولمة، في سائر المجالات، وبخاصة الاقتصادية والإعلامية والاتصال والمعلوماتية، حيث يتحول عالمنا إلى قرية كبيرة مترابطة. ويزداد تهميش أطراف هذه القرية العالمية وتزداد تبعيتها للمركز، وتتوسع الهوة بين المركز والأطراف.

إن هذا التحليل العام ينبغي أن لا يقودنا إلى تفسير التحولات الجارية في البلدان المختلفة من زاوية عالمية فقط، بل وينبغي ربط ذلك بالخصائص القومية والمحلية المتفاعلة والمتحركة، حيث تجتاح عالم اليوم قوى وعمليات تنشط في اتجاهات متعارضة متناقضة. فثمة اتجاه إلى التحالف والاندماج والتوحد في بعض مناطق العالم من أجل تعزيز القدرة على الاستمرار والنمو في شروط العولمة الجارية، ويتم ذلك في مجالات شتى، اقتصادية وعلمية وتكنولوجية وسياسية وعسكرية وثقافية وغيرها. مثلاً القارة الأوروبية حيث تسرع المجموعة الأوروبية الخطى نحو الاندماج، وكذلك الشركات الكبرى لتحتل موقعاً متميزاً في السوق العالمية.

وفي المقابل يشهد العالم اتجاهاً آخر نحو التفكك والتشرذم ناتجاً عن انهيار توازن الرعب السابق وانفتاح الباب أمام انفلات بعض النزعات الانفصالية التي كان يلجمها ويكبتها، فثمة قوى عديدة هدفت إلى تأكيد هويتها الخاصة مما أثار حروباً أهلية، محلية، وإقليمية (مثال يوغسلافيا) كما اندلعت العديد من الحروب القومية والدينية في مناطق مختلفة من العالم.

لقد عززت مجريات السنوات الثلاث المنصرمة الاستنتاجات القائلة بأن الانتصار الذي حققته الرأسمالية بانهيار المعسكر الاشتراكي وتفكك الاتحاد السوفيتي ما هو إلا

انتصار مؤقت. وأن الرأسمالية كنظام لا تمثل مستقبل البشرية، وأن ليس بمقدورها القضاء على تناقضاتها المستعصية، وفي مقدمتها التناقض بين العمل ورأس المال، وما ينشأ عنه من توترات وصراعات اجتماعية.

وتبرز في هذه السياق جملة من الأسئلة الهامة تتطلب البحث الجاد، تلك المتعلقة بتجربة الاشتراكية وسلبياتها وإيجابياتها.

فالسنوات اللاحقة لانهيار الاتحاد السوفيتي وتجارب الاشتراكية في أوروبا الشرقية أكدت صواب الاشتراكية كخيار والماركسية كمنهج. ومن خلال تشذيب الثغرات والنواقص التي رافقت التجارب الماضية، والربط السليم بين الديمقراطية السياسية والتنمية الاجتماعية، يمكن تحقيق الاشتراكية القائمة على العدالة والديمقراطية والتقدم.

وبرغم الطابع العالمي لرأس المال، والشركات متعددة الجنسيات فإن التناقض بين الدول الرأسمالية المتطورة سيبقى قائماً، رغم الاجتماعات الدورية المتواصلة لرؤساء الدول الصناعية الكبرى السبع.

فأوروبا، التي تعزز وحدتها، بقيادة ألمانيا ومعها فرنسا، تشكل منافساً حقيقياً للولايات المتحدة الأمريكية التي تصدت لقيادة العالم باعتبارها القطب الأوحد بعد زوال الاتحاد السوفيتي، وأكبر قوة اقتصادية وعسكرية في العالم.

وتلعب اليابان الدور ذاته في منافسة أمريكا واستمرت بينهما حرب تجارية مريرة سعت فيها أمريكا بكل السبل من أجل تخفيض عجز ميزانها التجاري مع اليابان. ولم تنجح قمتا نابولي (٩٤) وهاليفاكس (٩٥) للسبعة الكبار في تخفيف حدة الحرب والصراع بينهما. ولا يبدو أن تهديدات أمريكا بالعقوبات أو العقوبات نفسها قادرة على ذلك، أو إضعاف موقف اليابان في هذا الصراع.

فأمريكا شأنها شأن عدد من الدول الرأسمالية المتطورة تعاني من ركود اقتصادي طال أمده ومستويات بطالة عالية ووجود جمهرة واسعة من السكان تعيش دون خط الفقر رغم الثراء العظيم ونهب ثروات البلدان النامية وما تفرضه من صفقات سلاح بمليارات الدولارات على دول الخليج.

وفشلت المنظمات الدولية التي أقامتها الدول الرأسمالية المتطورة كمنظمة الغات ومنظمة التجارة العالمية، لصالح هذه الدول، وعلى الضد من مصالح الدول النامية، فشلت في تنفيذ الضوابط والتوصيات التي أقرتها والتي ظلت حبراً على ورق بالنسبة لأمريكا لأنها اصطدمت بمصالحها.

تشهد البلدان النامية المزيد من التهمش واحتدام الأزمات الاقتصادية والاجتماعية، واستفحال المجاعات وانفجار الحروب الأثنية والأهلية والقبلية، وتزايد أشكال التدخل الفظ في شؤونها الداخلية، الأمر الذي يتطلب إعادة التضامن فيما بينها والوقوف بوجه التدخلات الامبريالية، وابتداع سبل وأشكال جديدة للتعاون فيما بينها تطور تجربة حركة عدم الانحياز، ومجموعة الـ٧٧، ومنظمة الوحدة الأفريقية.

ويستمر التناقض بين الدول الرأسمالية المتطورة وشعوب دول العالم الثالث المغرقة بالديون التي تزيد على ١٤٠٠ مليار دولار وفوائدها التي تستهلك نسبة كبيرة من الناتج الوطني الاجمالي لهذه الدول، وتعيق التنمية فيها وتمنع تطور اقتصادياتها وتعرقل نضالها من أجل الخلاص من التبعية ونهب ثرواتها الوطنية من قبل احتكارات الدول الرأسمالية المتطورة.

لقد سعت الدول الرأسمالية إلى تثبيت مواقع رأس المال عن طريق تطبيق نهج الليبرالية الجديدة منذ أيام تاتشر وريغان، وساهمت أحزاب الاشتراكية الديمقراطية، التي تولت السلطة في عدد من البلدان الاوروبية، في تطبيق هذا النهج عملياً، رغم منافاته لما طرحته في برامجها الانتخابية التي فازت على أساسها.

غير أن هذا النهج يصطدم بمعارضة قوية من جانب الطبقة العاملة وأحزابها وجمهرة واسعة من الفئات الاجتماعية التي استفادت من المنجزات التي تحققت عن طريق التأميمات في أعقاب الحرب العالمية الثانية وقوانين الضمان الاجتماعي وغيرها من المكتسبات الاجتماعية الاقتصادية. وشكلت الحركة الإضرابية الواسعة في فرنسا والإضرابات في البلدان الأوروبية الأخرى مثلاً واضحاً على هذه المقاومة.

كما انحسرت موجة التراجع في نفوذ الأحزاب الشيوعية واليسارية في بلدان أوروبا الشرقية وروسيا. وشهدت هذه البلدان تصاعد نفوذ هذه الأحزاب المجدّدة وحصولها على ثقة الجماهير من جديد في بولونيا، وفي بلغاريا حصل الحزب الاشتراكي البلغاري وريث الحزب الشيوعي، على الأغلبية في الانتخابات التشريعية وشكل الحكومة.

وجاء الفوز الكبير للحزب الشيوعي في جمهورية روسيا الاتحادية في كانون الأول الماضي، إذ حصل على ثلث المقاعد البرلمانية، وانتخاب أحد أعضائه لرئاسة مجلس الدوما (البرلمان) ليشكل انعطافاً في الوضع ويدلل على اتجاه الرأي العام الروسي، وانكشاف التضليل الذي لجأ إليه يلتسين ومجموعته التي بدأت بالتآكل والانعزال، وادعاءاته، التي تكشفت عن تدمير الاقتصاد وهبوط مريع في مستوى الانتاج بلغ ٥٠٪

وتدهور كبير في مستوى المعيشة، وتسلط المافيات على الحياة العامة. أما ديمقراطيته فقد سقطت في الامتحان وتكشفت عن دكتاتورية مقيتة يوم وجه مدافع دباباته لقصف البرلمان المنتخب وحصل على مباركة الولايات المتحدة الأمريكية على فعلته الشنعاء.

إن الانتصارات التي أحرزتها الأحزاب الشيوعية والاشتراكية ما كان لها أن تتحقق لولا فشل سياسات «الانفتاح» و«الإصلاح» التي لم تعن في الواقع غير تدمير طاقات الإنتاج، وفرض التبعية للدول الرأسمالية المتطورة، وهبوط مريع في مستوى حياة الجماهير، وسلب مكتسباتها، وتدهور مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والثقافية وشيوع الجريمة المنظمة والمافيات، ولولا الرصيد الإيجابي الذي تركته تجربة الاشتراكية السابقة وما مارسته هذه الأحزاب من نقد لأخطائها السابقة، وتدقيق لشعاراتها وتصحيح لأساليب عملها مكنها من الاقتراب من الجماهير وكسب ثقتها.

وهكذا تثبت مسيرة الأحداث خلال السنوات الثلاث السابقة أن هناك إمكانيات واقعية لتعبئة قوى التقدم والاشتراكية على الصعيدين الوطني والعالمي لإحراز مزيد من النجاحات، وخصوصاً إذا ما تراصت الأحزاب الشيوعية والتقدمية أكثر فأكثر، ونسقت جهودها داخل بلدانها، وفيما بينها، لكبح جماح الامبريالية ــ وفي مقدمتها الامبريالية الأمريكية ــ عن التحكم بمصائر التطور العالمي ومنعها من السيطرة على هيئة الأمم المتحدة وتسييرها وفقاً لمخططاتها ومصالحها، ومن أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي وعلاقات دولية تقوم على أساس التكافؤ بين الدول ورعاية مصالحها الوطنية، ومساعدة دول العالم الثالث على التخلص من الديون المرهقة والتخلف، والتمتع بثرواتها الوطنية لصالح شعوبها التي عانت طويلاً من السيطرة والنهب الامبرياليين، ومن عدم التكافؤ في العلاقات الدولية بعد حصولها على الاستقلال.

إن الحركة الشيوعية العالمية وعموم قوى الديمقراطية والتقدم، التي عانت من الانحسار الكبير منذ بداية التسعينات، بدأت تستعيد قوتها شيئاً فشيئاً مؤكدة أن المستقبل هو للاشتراكية الإنسانية الديمقراطية المبرأة من أخطاء الماضي وتشويهاته لمثلها النبيلة.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
أواخر نيسان ١٩٩٦

نحو تنظير واقعي للبنية الاجتماعية في العالم العربي

(٢ من ٣)

د. ثائر كريم

٣ـ الطبقة والتحليل الطبقي

لعل من الأفضل قبل المضي في طرح صياغة موقف جديد من مفهوم «البرجوازية الصغيرة» أو «الفئات الوسطى» التوقف عند إشكالية ماهية التكوين الطبقي. فهناك ليس بالقليل من الباحثين ممن يشير، بصورة أو بأخرى، إلى تخلف أو خفوت وضعف التكوينات الطبقية في البلدان العربية. فالباحثة جيان ليكا، مثلاً، تورد ملحوظة جديرة بالانتباه وتتعلق بخطأ استخدام مقولة البنية الاجتماعية إذا كانت تستند إلى أفكار دالة على ومقتبسة من سوسيولوجيا المجتمع البرجوازي، من قبيل فكرة استقلالية الميدان الاقتصادي وتوحّده عبر السوق، وفكرة التراتبات الاجتماعية الأفقية المتشكلة بواسطة عدم التساوي في الملكية الخاصة لوسائل الانتاج(٢٠). وتتفق ليكا مع باحثين آخرين، كجيمس بيل وايسنشتات حول ضعف فاعلية تلك الأفكار في البلدان العربية بالرغم من أن لها أهمية بارزة بالنسبة للمجتمعات البرجوازية. وتشير ليكا إلى ظاهرة أخرى مترابطة مع ما سبق وفحواها أنه في الاقتصاد المتسم بتفوق وبالتالي بالأهمية الأكبر لميدان التبادل على ميدان الإنتاج المادي، فإن الحصول على الريع يضحي أيضاً أكثر أهمية من مبدأ ملكية وسائل الإنتاج في تأسيسه للتراتبات الاجتماعية. وبما أن التوزيع يشكل أحد مبادئ البنية الاجتماعية، بالتالي إحدى معضلات الصراع الاجتماعي، فإن نشاط الجماعات يبدو طبيعياً وهو إجرائي أكثر مما يعنيه الصراع الطبقي(٢١).

وفي دراسته للعلاقات الأبوية الجديدة في مصر وأصولها التاريخية، يشدد شاهروف أخوي على أنه بالرغم من مرور سنوات ممتدة على التغيرات في نمط ملكية الأرض والتي قام بها خلفاء محمد علي فإن التركيبة الاجتماعية الريفية لم تتطور باتجاه نمط التموضعات الطبقية(٢٢). ويضفي جيمس بيل وكارل ليدن الكثير من التعديلات على صياغاتهما «الطبقية» حين يحللان ديناميكية التفاعلات المتبادلة بين الطبقة، من جهة، والجماعات الصغيرة، من جهة أخرى. يقول الباحثان، مثلاً، إن «الفروقات الطبقية في الشرق الأوسط يجري تخفيفها، بصورة معينة، عبر الانتماء المشترك للجماعة» كما أن «الصراع الطبقي هناك يمثل ظاهرة خافتة بسبب وجود عوامل مختلفة نابعة من آلية التراتبات الاجتماعية العمودية»(٢٣). وفي سياق المضمون الغني لتحليل طابع التراتبات الاجتماعية «الأفقية» و«العمودية» يصل الباحثان إلى استنتاجات جديرة بالتنويه منها، مثلاً، أن علاقات القوة وسلطة الحكم، التي تشكل أساس النظام الاجتماعي التقليدي في الشرق الأوسط، تمثل عقبة هائلة في طريق التحديث ويصعب للغاية قلعها(٢٤). كما أن الصراع الطبقي، الذي قد يمثل في ظروف معينة واسطة للتحويل والتغيير، يتسم هنا بطابع محايد. ففي بلدان مثل مصر وتونس عادة ما تتقاطع، كما يلاحظ الباحثان، التقسيمات القبلية والدينية والأثنية مع الخطوط الطبقية للصراع. وفي بلدان مثل العراق وسورية، فإن الولاء للمنطقة والمحلة ومختلف أشكال التراتب الاجتماعي «العمودي» كثيراً ما يخفف من المواجهة الطبقية(٢٥).

ولعل من الممكن استخلاص ثلاثة محاور أساسية تدور حولها التعريفات المتعددة الواردة في الأدبيات السوسيولوجية المتأثرة غالباً إما بمنهج كارل ماركس أو بمنهج ماكس ويبر والتي تنظر للتكوينات والتراتبات الاجتماعية باتخاذ رؤية طبقية محددة.

أولاً، يجري تحديد الطبقة والوضع الطبقي بمجموعة من المعايير الاقتصادية البحتة كالموقع من وسائل الإنتاج والتقسيم الاجتماعي للعمل وحجم الدخل ومصدره وطريقة الحصول عليه. ويطبق هذه الرؤية الكثير من الباحثين الماركسيين والويبريين وربما آخرون غيرهم. وترجع الكثير من الأطروحات الدائرة حول تلك المعايير إما إلى ماركس أو انجلز أو لينين أو من سار على آثارهم. وليس ثمة حاجة ماسة إلى تكرارها هنا إذ قد جرى تداولها على نطاق واسع نسبياً، أما ماكس ويبر، وهو الأقل شهرة، على الأقل في العالم العربي، فإنه أيضاً يقف في رؤيته للطبقة على هذا المحور الاقتصادي، ولكنه إذ ينطلق منه فإنه يركز على مجال وعلاقات التبادل الاقتصادي بالتحديد وليس على نطاق

الانتاج الاجتماعي بحد ذاته والذي يميل إليه الماركسيون كثيراً[٢٦]. فبالنسبة لويبر فإن العامل الحاسم في خلق «الوضع الطبقي» هو السوق أو ما يعبر عنه بـ«فرص الحياة الناشئة في إطاره» بما في ذلك سيطرة أو عدم سيطرة الفرد على ملكية سلع أو خدمات معينة والمداخيل التي يحوز عليها لقاء ذلك[٢٧]. وبخلاف السوق أو خارجه، الذي يطابقه ويبر بالرأسمالية، فليس هناك أوضاع طبقية فعلية. ومن الواضح أن وراء هذه الرؤية مقاصد بعيدة المرمى واشتقاقات بالغة الأهمية، ليس أقلها أن درجة تطور السوق والعلاقات الناشئة على أساسه تعكس مستوى معيناً من تطور التكوينات الطبقية والأوضاع الطبقية، وأيضاً أن المجتمعات التي لم تفلح في بلورة اقتصادات سوق وعلاقات تبادلية واسعة قد تحتل فيها الأهمية الأكبر ليس التكوينات الطبقية بل تكوينات نابعة من «جواهر» أخرى. . . الخ.

ثانياً، ثمة أيضاً ميل شديد لدى بعض الباحثين لإدراج المحورين السياسي والايديولوجي على اعتبار أنهما يشكلان عنصرين رئيسيين من عناصر الطبقة والوجود الطبقي، بحيث يكون الوعي بالانتساب لطبقة ما وبوحدة المشاعر والآفاق بالإضافة للقدرة على الفعل الطبقي المشترك بمثابة عناصر لا تتجزأ من التكوين الطبقي[٢٨].

ثالثاً، وثمة أيضاً ميل آخر لاستخدام خليط متباين من المعايير لتحديد الطبقة ولكن على أساس اعتبارها (غالباً بدون وعي لذلك) مقولة تصنيفية لا غير، أي مقولة لا تعبر عن كيان قائم في الواقع بل هي أداة توصيفية للتعبير عن مجاميع متباينة تساعد على التمييز فيما بينهم لتسهيل الوصف أو التحليل[٢٩]. وربما كانت الكتابات التاريخية السابقة، سواء كانت في العالم الغربي أم عند مفكري العالم الإسلامي تستخدم هذا المصطلح بتلك الدلالة. وهذا الميل غالباً ما يمارسه غير الماركسيين الذين قلما يضفون خاصية الكيان الواقعي على مفردات الطبقة التي يطرحونها. مثلاً، يدرس جيمس بيل وكارل ليدن التركيبة الاجتماعية للبلدان العربية باستخدام مفاهيم مزدوجة طبقية وغير طبقية. وحتى تعريفهما للطبقة يتسم بنوع من الخصوصية إذ ينطلقان في ذلك من مفاهيم السلطة ـ القوة بالتداخل مع المركز الوظيفي وأيضاً باعتبار الطبقات مجموعات كبيرة من الأفراد المتحدين عبر أنماط متشابهة من الوظائف والمدافعين عن مراكز قوة متشابهة في المجتمع[٣٠]. بيد أن المضامين التي يضعها الباحثان في مفهومي الطبقة والتركيب الطبقي، حين يطبقانهما على المجتمعات العربية، تفضي إلى استنتاج أنهما يستخدمان تلك المفاهيم كأدوات إجرائية للتصنيف والفرز وليس كمفاهيم دالة على كينونات

اجتماعية متبلورة ومنطلقة من تركيبة طبقية محددة. فأولاً، يفرز الباحثان ما يسميانه بـ«أبعاد القوة» التي يمكن اعتبارها، في الواقع، أدوات ليس في صوغ أو تشكيل البنية الطبقية بل في تحديد تركيبة نُخب القوة ــ السلطة في علاقاتها مع الجمهور. ثانياً، يذكر الكاتبان أن أبرز عناصر «النظام الطبقي» الذي كان قائماً تاريخياً في الشرق الأوسط تبدأ بالطبقة الحاكمة مروراً بـ«الطبقة البيروقراطية» و«طبقة رجال الدين»، وانتهاء بالثلاث «طبقات دنيا» والتي تضم الأغلبية العظمى من السكان: «العمال والفلاحون والبدو»(٣١).

وحتى حين يعرج الباحثان على ما يسميانه بعناصر النظام الطبقي المعاصر فإنهما يقحمان أيضاً جماعات متباينة من حيث الوظيفة وحجم الدخل والوظيفة والمركز الاجتماعي (كالموظفين وأساتذة الجامعات والطلاب والتقنيين والمهندسين والكتاب والفنانين والصحفيين وضباط الجيش) في إطار «الطبقة الوسطى المهنية»(٣٢).

وإذا كانت الرؤية الطبقية تتخذ هذا البعد التصنيفي فإنها، في أحسن الأحوال، تهتم بمعرفة السمات الفارقة للجماعات الاجتماعية، ولكن لا الطبقة ولا الوجود والوضع الطبقي يتمتعان بأية حياة خاصة خارج إطار الفرد الواحد من الأفراد المكونين لها. ليس ثمة هنا معنى لـ«الكل الطبقي» يحمل خاصية السيرورة التي تخلق من الأفراد المتناثرين كياناً اجتماعياً جديداً لا يُختزل إلى الفرد الواحد. وإذا استبعدنا إمكانية أن يقوم باحث ما بممارسة عملية الرؤية تلك متخذاً هذا البعد بدون وعي منهجي صريح لدلالاته الخاصة، فإن هناك في الكثير من المجتمعات من المسوغات ما يبرز إمكانية رؤية الطبقة والوجود الطبقي بالضبط كتحصيل أو مجموع عام تصنيفي لأفراد من نفس الفئة حسب الاصطلاح الإحصائي، ولكن ليس ككيان جديد. بيد أنه، من جهة أخرى، إذا وقف الباحث على أرضية المحورين الأول والثاني فينبغي، كما يبدو، أن نواجه رؤية طبقية ترى وجود ظاهرة اجتماعية تتكون من الفرد الواحد وتتجاوزه في الوقت نفسه. بكلمة أخرى، سيكون لا معنى فعلياً لوجود طبقة إن لم تكن تمثل علاقة اجتماعية متمفصلة اقتصادياً وأفقياً على أي من مستويات النشاط الاقتصادي الرئيسية (الإنتاج، التوزيع، التبادل، الاستهلاك) وقائمة بين جماعة كبيرة من الأفراد تمتد على مساحة المجتمع الواحد الاقتصادية. الطبقة والكيان الطبقي يظهران هنا ككينونة تضم عناصر مترابطة ترابطاً شديداً: ١ــ الهوية الطبقية، أي التفريق الصريح بين نحن وهم اقتصادياً؛ ٢ــ الوعي الطبقي وبالذات الوعي ايديولوجياً بتقارب ووحدة المصالح الاقتصادية وهو الأساس المباشر للتنظيم الطبقي الذي يجعل مهمته الأساسية الدفاع عن أو كسب أكبر قدر من المنافع الاقتصادية؛ ٣ــ

القدرة والسعي على ممارسة الفعل الطبقي تأسيساً على العنصرين السابقين. باختصار، مهما كان خيار الباحث للمحور الذي يستند إليه فإن هناك حدين فاصلين في النظرة للطبقة والوجود والوضع الطبقي: فإما أن تكون تلك المفاهيم تعبر عن وجود موضوعي قائم أو هي أداة توصيفية فحسب.

وإزاء هذا الطرح النظري، تبرز الإشكالية الأهم من الناحيتين الفكرية والسياسية، بالذات إن كانت الطبقة أو التكوين الطبقي يعبران عن وجود موضوعي شامل على مستوى العراق ككل، أو غيره من البلدان العربية، أو مجرد وجود محدود. بتعبير آخر، أي وجود للطبقة والكيانات الطبقية يبرز هنا بحيث يتيح النظر إليها وفقاً لأي من محاور الرؤية السابقة؟. إن تفحص بعض الوجوه الاجتماعية الهامة للسيرورة الاقتصادية والاجتماعية السياسية الجارية في العديد من الدول العربية ربما يفضي إلى الاعتراف بالطابع المحدود والمتنامي ببطء للطبقة والوجود الطبقي بدلالة الماهية أو الكيان الاجتماعي الحي الذي يتكون من الفرد الواحد ولكن يتجاوزه في آن واحد.

أولاً، يتمثل العامل الجوهري الأول بعدم تكامل عملية تمايز الحيز الاقتصادي عن الحيز السياسي، لاسيما السلطة، بحيث تتبدى السياسة بعناصرها المكونة، وبالذات السلطة، كإسقاط ابدي يمحور حوله ميدان العلاقات الاقتصادية والتجارية. إن الرأسمالية وحدها، كنظام اقتصادي واجتماعي ـــ سياسي، هي التي ألزمت المجتمعات الغربية أو غيرها، وإلى حد بعيد، بوضع حدود لتمييز الحيز الاقتصادي فاصلة إياه عن الحيز السياسي، بينما تكشفت كل الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية ـــ السياسية السابقة لها عن وجود هيمنة واسعة النطاق وحاسمة للسلطة السياسية على الاقتصاد وتحديداً على القائمين على شؤون التنظيم الاقتصادي المختلفة. وبالمقابل فإن تطور النظام السياسي هناك كان يسير باتجاه نشوء الدولة كمرجع للسلطة السياسية قائم على حكم المؤسسات والقانون والبرلمان. إن تاريخ السيرورة الاقتصادية والاجتماسياسية في العالم الإسلامي، مثلاً، كان يفرض باستمرار أولوية الحيز السياسي ثم الحيز الأخلاقي أيضاً. إن التوجه لبناء حيز اقتصادي مستقل في العالم الإسلامي لم يكن، كما يلاحظ برتراند بادي، أمراً وارداً «ليس لعدم وجود ممارسة تجارية أو حتى رأسمالية، ولكن لأن مفهوم النظام الاجتماعي والسياسي القائم على أساس قوانين السوق قد واجه الفشل بسبب رؤية تستبعد تصور استقلال الحيز الاقتصادي كمقولة متفردة للعمل والفكر»[٣٣]. إن عدم قدرة العلاقات الاقتصادية البحتة على أن تبرز بمثابة بنية متمايزة

عن الحيز السياسي السلطوي لم يكن يعرقل فحسب عملية نضج نشوء جماعات اجتماعية متمفصلة اقتصادياً وفق النمط الطبقي (وربما ظل يعكس نقص قدرة تلك الجماعات على التحرر من وصاية الحيز السياسي)، بل ظل يؤثر سلباً على سيرورة «الدولة» ذاتها. فالأخيرة لم تتطور تاريخياً باتجاه سيرورتها كياناً مستقلاً عن السلطة بالمعنى الحكمي الفظ لمفردة السلطة، كياناً يستمد شرعيته الكاملة من وظيفته هو بحد ذاته، مستقلاً عن الاقتصاد والدين، ككيان يقوم على أطر وأدوار سياسية معينة وبيروقراطية مستقلة وظيفياً عن السلطة السياسية تعمل وفق مبادئ هرمية المهارات والكفاءات، ككيان يوفر الأساس الثابت، بكل معنى الكلمة، لعملية تداول السلطات السياسية بأكبر قدر من الانسيابية والتلقائية وأقل قدر من الفوضى والاعتباط.

ثانياً، ومع ولوج المجتمعات العربية حديثاً في سياق جديد على أوضاعها التقليدية يحمل معه تدهوراً متزايداً وارتباكاً حاداً في عمليات ووتائر إعادة إنتاج الأنظمة والقيم الاقتصادية والاجتماسياسية العتيقة، فإن النظام الرأسمالي، الذي شرعت بعض آلياته النقدية ـــ السلعية (السوق) تنمو منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، لم يكتسب حتى الآن صفة النظام السائد والمهيمن والذي تتشكل وفق مقتضاه دورة الحياة الاجتماعية ـــ الاقتصادية لتلك المجتمعات. ومن الضروري الإشارة هنا إلى أنه، فيما عدا قيام ونمو بعض الأشكال المتقدمة ولكن المحدودة الانتشار للتنظيم الرأسمالي في المجتمعات العربية، فإن ما يميز سيرورتها الاجتماعية ـــ الاقتصادية ككل هو ازدياد ووتائر نمو واتساع المقدمات العامة للتطور الرأسمالي وليس نمو وتطور الرأسمالية كبنية أو تشكيلة اجتماعية ـــ اقتصادية شاملة (حسب التعبير الماركسي الدارج) مع مؤسساتها السياسية المناسبة.

ثمة فوارق عميقة، وربما جذرية أيضاً وذات نتائج نظرية وعملية هامة في العالم العربي، بين، من جهة، المقدمات العامة للرأسمالية، أي مجمل تلك الشروط العامة التي تؤسس لقيام الرأسمالية كمنظومة، بنية شاملة، أو تشكيلة، ومن جهة أخرى، الرأسمالية كتشكيلة قائمة لها أسسها العامة والخاصة. فإن أبرز المقدمات (الشروط) العامة تتجسد في توسع العلاقات والمكونات الاجتماعية للسوق، أي الإنتاج للسوق والتبادل والمعاملات النقدية المختلفة وظهور فرص واسعة وحيوية الأهمية، بالنسبة للقائم على الإنتاج، تتيح إجمالاً تجذير عملية تسلع اقتصاديات الاكتفاء الذاتي أو الكفاف مفضية إلى دمجها في أسواق محلية تتصل تدريجياً بسوق وطنية واحدة. وتظهر في الوقت ذاته لدى

أعداد متزايدة من القائمين على شؤون الإنتاج الزراعي والحرفي والصناعي بوادر وعي حياتي بمحفزات الانتاج للسوق والمنافسة من أجل اتخاذ مكان مهم فيه والاستحواذ على أكبر قدر من منافعه. ومن هنا الميل الضروري لحساب الربح والخسارة الناتج من آليات السوق. أما الرأسمالية، كمنظومة اجتماعية ـ اقتصادية قائمة على صلب نمطها الخاص لإنتاج وإعادة إنتاج الدورة الاقتصادية، فتتجسد في المرتبة الأولى بسيادة وهيمنة نمط الإنتاج الرأسمالي مع ما يترتب عليه من شكل مناسب له للتوزيع والتبادل يشمل مجمل المساحة الاقتصادية للبلد. كما أن هيمنة رأس المال تعني أولاً وقبل كل شيء هيمنة جماعة المنظمين، أرباب وأصحاب الأعمال المشترين لقوة عمل أجيرة والبائعين سلعهم في سوق رأسمالية تتألف من مجموع الرساميل الفردية والخدمات والسلع الرأسمالية بما فيها العمل الأجير والنقود، وتتنافس فيها الرساميل الصناعية والتجارية والمالية. علاوة على ذلك فإن تلك الهيمنة تعني أن طريقة التنظيم الرأسمالية هي التي تتمتع بالسيادة في سيرورة تنظيم دورة الحياة الاقتصادية في المجتمع المعني، وبالذات تأمين التناسبات الاقتصادية العامة الموجهة للنشاط الاقتصادي بعناصره المكونة، ولاسيما عملية توزيع العمل والرأسمال إلى مختلف الفروع الاقتصادية. ذلك الأمر يتم في سياق عملية للإنتاج وتجديد الإنتاج تخضع بالأساس لقوانين الربح ومعدلاته الوسطية وقوانين الطلب والعرض والتداول النقدي. وثمة أيضاً العديد من الوظائف التي تتمحور حول توفير الإطار المؤسساتي العام، وبالذات السياسي والحقوقي، المناسب لهذا النظام.

ثالثاً، وهناك أيضاً عامل اقتصادي سياسي آخر مرتبط أشد الارتباط بما سبق قوله. فبسبب عدم تكون بنية اقتصادية منسجمة العناصر في إطار نظام سائد ومهيمن للإنتاج وتجديد الإنتاج، فإن هناك استمرارية ذات طابع قلق داخلياً لوجود طرق متعددة وغير متلاحمة فيما بينها (مثل الطريقة الحرفية والسلعية الصغيرة في الصناعة، والمحاصصة والمناصفة وما شاكل في الزراعة، والتنظيم الحكومي في ميادين مختلفة، بالإضافة طبعاً للطريقة الرأسمالية نفسها) لتنظيم النشاط الاقتصادي على مساحة اقتصادية كبيرة. بناء على ذلك، ربما تشكل العوامل الثلاثة السابقة الذكر الأرضية الاقتصادية الأعمق لضعف التكوينات الطبقية، بالمعنى الكياني للطبقة. هذا يشمل في المرتبة الأولى العمال (الطبقة العاملة؟) والبرجوازيين (الطبقة البرجوازية؟).

رابعاً، ثمة عامل مركب من مجموعة الظواهر المتصلة مباشرة بطبيعة ونمط تغير

التراتبات الاجتماعية في البلدان العربية. تبرز في المقدمة مسالة المكانة المحورية التي تشغلها الجماعات الصغيرة والمصغرة في الهرمية الاجتماعية. تتألف تلك الجماعات من أفراد يتمفصلون على ولاءات وقيم تضامن خاصة بها، قد تتقاطع مع ولاءاتها وتضامنات أخرى، وتتمحور في المقام الأول حول بندول العائلة الصغيرة (بدون أقرب الأقارب) ثم الكبيرة (مع الاقارب الأولين ثم الآخرين) مكونة جماعة قرابة يدعم أفرادها، كقاعدة، بعضهم بعضاً في مختلف المجالات لاسيما في ميدان المنافسة والتحالف والصراع والتضامن مع المحيط. وبالإضافة لبندول العائلة هناك أيضاً أطر مهمة يمكن أن تتصلب فيها الكيانات الاجتماعية الصغيرة كالعشيرة والقبيلة والطائفة والمذهب والحي والمدينة.

وبذلك فإن العامل الرابع يعني أنه إلى جانب (وأحياناً بالتداخل مع) الرؤية الطبقية للتكوينات الاجتماعية والتراتبات القائمة في المجتمع، هناك أيضاً رؤية ذات دلالات غير طبقية في الغالب الأعم رغم تقاطعها مع الرؤية الطبقية. وتتمثل هذه الرؤية عبر ما يمكن تسميته بالعلاقات العمودية كالمكانة والهيبة والجاه والدور الوظيفي وقيم النخبة (الصفوة) والتي تترتب على وتنبع من شتى التموضعات والكيانات الاجتماعية. ولكن إذا كان التكوين الطبقي يفترض جماعات كبيرة من الأفراد تنضوي إجمالاً تحت لواء الولاءات الطبقية الاقتصادية والايديولوجية، فإن الجماعات الاجتماعية الصغيرة بولاءاتها القوية الخاصة تتقاطع سلباً، في معظم الأحيان، مع التكوين والوجود والصراع الطبقي معرقلة الطبقة من التبلور الايديولوجي والفعل العملي.

الهوامش

(٢٠) Leca, Jean (1988), "Social Structure and Political Stability: Comparative Evidence from the Algerian, Syrian and Iraqi Cases", in Dawisha, Adeed and Zartman I. William (eds.) Beond Coerction: the Durability of the Arab State, London. p.146-165.

(٢١) Ibid., p.165.

(٢٢) Akhavi, Shahough (1975), "Egypt: New-Patrimonial Elite" in Frank, Tachau (ed.), Political Elites and Political Development in the Middle East, Cambridge.

(٢٣) Bill, J. and Leiden, C., Ibid., p.129.

(٢٤) Ibid., p.133.

(٢٥) Ibid.

(٢٦) See Weber, Max (1953), Class, Status and Party, in Pendix, R. and Martin S. (ed.), Class, Status Power. Readings in the Social Stratification, Lepsit, Ellinois; Gerth H. H. and Wright C. Mills (eds.), (1958), from Max Weber Essays in Sociology, New York.

(٢٧) Weber, Max (1953), p.

(٢٨) يمكن ملاحظة الاستخدام الكامن أو الصريح لهذا البعد للطبقة والرؤية الطبقية لدى بعض الكتاب العرب مثل عادل غنيم، محمود عبد الفضيل، عبد العظيم رمضان (مصادر سابقة)، تتجلى هذه الرؤية على أحسن وجه لدى الباحث الانجليزي الماركسي ي. ب. ثومبسون في كتابه «الطبقة العاملة الانجليزية» الصادر في لندن عام ١٩٦٣ وكذلك الباحث نيكولاس بولانتزاس في كتابه المترجم للعربية والمذكور سابقاً.

(٢٩) ثمة أمثلة لا تحصى على مثل هذا الاستخدام تتبدى لدى كتاب من ذوي الاتجاهات القومية أو الدينية أو حتى في الخطابات الرسمية الديماغوجية لحكومات استبدادية كثيرة.

(٣٠) Bill, J. and Leiden C., Ibid., p.112, 117.

(٣١) Ibid., p.124.

(٣٢) Ibid., p.125.

(٣٣) بادي، برتران (١٩٩٢)، الدولتان. السلطة والمجتمع في الغرب وفي بلاد الإسلام. ترجمة لطيف فرج، القاهرة، ص١٠٨.

تطور العلم والتكنولوجيا- ومسؤولية العلماء الأخلاقية

د. محمد عبد اللطيف مطلب

بدأ البحث في القضايا الأخلاقية المتعلقة بالعمل العلمي في النصف الثاني من القرن العشرين بالارتباط مع الثورة العلمية ــ التكنيكية (الطاقة النووية، الجينات، الكمبيوتر، ...). فصنع القنبلة الذرية الأولى وإلقاؤها على هيروشيما أدى، كما هو معروف، إلى تخريب المدينة وقتل مئات الألوف من ساكنيها، وإصابة ألوف أخرى بأمراض وتشويهات جراء التعرض للإشعاعات الذرية. أما التكنولوجيات البيولوجية فتجعل بالمستطاع تركيب سستمات (أنظمة) بيولوجية جديدة في إطار قوانين الطبيعة. إلا أن هذه القدرة الإنسانية التي أتى بها العلم ترتبط بخطر كبير. فالبشرية أصبحت تستطيع أن تبيد نفسها بأسلحتها! ومن التكنولوجيات الجديدة ما يستطيع تشويه شخصية الإنسان. والتجارب التي تُجرى على الإنسان بعقاقير نفسية، أو بطرق تكنيك الجينات (حوامل الوراثة) تستلزم موقفاً أخلاقياً إنسانياً. كل ذلك أدى إلى طرح السؤال عن العلم نفسه: هل العلم شرير؟ وهل يجب على المشتغل بالعلم أن يقيّده أو أن يكفّ عن ممارسته؟ وقد أصبح هذا السؤال أحد الأسئلة الأساسية المطروحة بهذا الصدد. فإذا كان الجواب عليه يذهب إلى الكفّ عن العلم والاستغناء عنه، فنتيجة ذلك ضمور التفكير وتدهور العلم، وضعف إمكانية استخدام التكنيك بشكل يتسم بالشعور بالمسؤولية الاجتماعية.

هل يجوز لنا أن نصنع كل ما نستطيع صنعه؟

هناك حدود لذلك. فما يستطيع الطب إنجازه اليوم في إطار تكنولوجيا الجينات (حوامل الوراثة) يمس أساس فهمنا لكرامة الإنسان. هنا لا يجوز مثلاً إجراء تجارب على الأجنة في الأسابيع الأولى من حياتها بحجة حرية العلم؛ إذ أن هناك حداً لتلك الحرية يفرضه فهمنا للأخلاق وكرامة الإنسان.

تبدأ مسؤولية العالم حينما ينتج من العلم تكنيك، أي حينما يتحول العلم إلى واقع مادي. غير أن جميع المحاولات التي رمت إلى إيقاف العلم أو إعاقته كان مصيرها الفشل. فإذا قرر أحدهم مثلاً إقامة حدود أمام البحث العلمي، فإن ذلك سوف لا يعني إلا قراراً بركود دائم. أما إذا فهمنا التكنيك فهماً صحيحاً جيداً، وكيّفناه بشكل معقول، نشأت لدينا إمكانيات متنوعة واسعة. فلدينا مثلاً إمكانية للحفاظ على بيئتنا رغم زيادة سكان الأرض. ولكن هذه الإمكانية لا يمكن تحقيقها إذا رفضنا التكنيك، ومنعنا المصانع النووية، أو أغلقنا المستودعات الخاصة بالنفايات الذرية.

عند نشوء تكنيك جديد، ينشأ معه السؤال التالي بالضرورة: أية إمكانيات يأتي بها هذا التكنيك؛ وأية مخاطر يمكن أن تنشأ عنه؟

التكنيك بحد ذاته ليس بالنعمة ولا بالنقمة؛ وهو لم يأتنا من الغيب، إنما هو نتاج تفكيرنا ومسؤوليتنا. لذا وجب علينا أن ننظر إلى التفكير والشعور بالمسؤولية كعمليتين تكمل إحداهما الأخرى عند نشوء التكنيك الجديد. والرغبة في خلق شيء جديد صفة قديمة للإنسان، وهي من أروع صفاته.

في سبعينات قرننا هذا جرى نقاش واسع حول «حدود النمو»، خشية من أن الإنتاج العالمي سوف لا يسد حاجات جميع سكان الأرض. أما الجيل الراهن فيستطيع أن يكيّف التكنيك بحيث يضمن لكل الناس في المستقبل مكاناً للعيش والعمل.

التقدم التكنولوجي والمسؤولية الأخلاقية

التقدم التكنولوجي ليس هدفاً بذاته، إنما يرتبط بالإنسان وتطوره الحر. بهذا المعنى يصبح التقدم التكنولوجي تقدماً إنسانياً، أي يخدم الإنسان. هذه العلاقة بالإنسان هي المبدأ الحاسم في التطور التكنولوجي، سواءً في منشأه أو أشكاله أو أهدافه.

التكنيك من إنتاج الإنسان المبدع الخلاق، ومنه يُستخدم. والإنسان هو الذي يعيّن الهدف الذي يستخدم فيه، ويتحمل المسؤولية الأخلاقية في ذلك.

تكتسب القضية الأخلاقية في القرارات التكنولوجية شكلاً اجتماعياً خاصاً، حينما يكون للتجديدات التكنيكية علاقة بالبيئة الحيوية للناس والأجيال القادمة. فقرارات كهذه تفقد صفتها الشخصانية الفردية إذا كانت تسيء للبيئة أو تغيرها، بسبب ارتباطها بالمسؤولية الاجتماعية. ويصح الشيء نفسه على رفض اتخاذ قرار ذي أهمية للمصالح الحيوية للكثير من الناس.

مما يثقل التصرف المسؤول هو أن التجديدات التكنيكية تؤدي بصورة متزايدة إلى «نتائج جانبية» ضارة لم تكن مقصودة، تجلب المسؤولية على منتجها. فقد ينزلق العلماء والمهندسون إلى حالة غير مرضية بسبب «النتائج الجانبية» لتجديداتهم التكنيكية. وهذا يعني عملياً وجوب حساب المخاطر المحتملة بدقة قبل تنفيذ تلك التجديدات عملياً. ومن الناحية الأخرى يجب أن نعرف أن ليس هناك أمن مطلق في التكنيك، كما لا يوجد في حياة الإنسان تحرر كامل من المخاطر. والأمر الواقعي الوحيد في هذا المضمار هو تقليل النتائج السلبية قدر المستطاع في عملية تقدير المخاطر.

الخوف من التكنولوجيا

جميع الإنجازات التكنولوجية تؤثر على الطبيعة وتولّد مشاكل يختلف فعلها مكانياً وزمانياً اختلافاً شديداً. فبعض المشاكل تنحصر في بلد واحد، ولا تستمر إلا مدة قصيرة. والبعض الآخر له من العواقب ما يتجاوز المكان الذي حصلت فيه، أو لا يظهر فعلها إلا بعد سنين عديدة. والحوادث المؤسفة المرتبطة بالطاقة النووية (ككارثة تشرنوبيل) وارتياد الفضاء قد ذكّرت الكثير من الناس بأخطار بعض المشاريع والمؤسسات التكنولوجية؛ وكانت دافعاً لنشوء الخوف من تطور التكنولوجيا إلى حد العداء لها، وتفضيل «الرجوع إلى الطبيعة». غير أن الخلاص من المشاكل الكثيرة المرتبطة بالتقدم التكنولوجي غير المنضبط (أي غير المسيطر عليه بدقة) لا يتحقق في نبذ التكنولوجيا والتحول إلى الحياة البسيطة، حياة التقشف والزهد، مهما كانت أهمية الدعوة للكف عن حياة البذخ والتبذير؛ إنما ينحصر الحل في خلق تكنولوجيا تتصف بطابع إنساني، وتستطيع التخلص من المشاكل الناشئة من التكنيك الحديث. ولكن ذلك يستلزم إعادة الثقة بالعلم والتكنولوجيا لدى المتخوفين منهما. فمن أجل مجابهة الخوف من التكنولوجيا يجب نشر المعلومات عنها وعن فوائدها الاقتصادية نشراً جماهيرياً. فبالمعرفة المتزايدة عن هذه المواضيع لدى

الجماهير مع نظرة للعالم تحترم الإنسانية، يمكن أن تنمو الثقة بالمستقبل التكنولوجي الأحسن.

غالبية الذين يميلون إلى الابتعاد عن العالم التكنيكي العصري، ويعجبون بفكرة «الرجوع إلى الطبيعة» يؤيدون، بوعي منهم أو دون وعي، فلسفة معادية للتكنيك والثقافة انتشرت في اداب العشرينات والثلاثينات من هذا القرن. وكان الفيلسوف شبنگلر Spengler (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) رائد هذا الاتجاه. ففي كتابة «أفول الغرب» (ظهر عام ١٩٢٢) ذهب إلى أن تدهور الحضارة الغربية الراهنة يعزى إلى «الإنسان التكنولوجي» الذي ــ كما رآه ــ يندفع بحب التسلط إلى تدمير الطبيعة، وبهذا يبيد الفكر والروح الإنسانية والحضارة. وتنعكس هذه النظرة الآن في رفض التقدم التكنولوجي.

وعلى هذا الأساس أيضاً تستند أفكار الفيلسوف ماركوزه Marcuse (١٨٩٨ ــ ١٩٧٩) في نقده للمجتمع. فقد كان التكنيك المتطور عنده «أداة للسياسة التخريبية».

ولكن «الرجوع إلى الطبيعة» والاكتفاء بالتقشف لا يعني إلا هجر المدنية التكنيكية باي ثمن، والكف عما يمكن صنعه، أي الرجوع إلى شكل الحياة الذي سبق الصناعة، أي أسس الحياة الطبيعية.

كان هذا الاتجاه في الواقع رد فعل للتطور التكنولوجي الراهن. فالتكنيك النووي مثلاً أصبح نموذجاً للتكنولوجيا المتطورة التي تهدد بأن تفلت من سيطرة الإنسان، بسبب فعلها التدميري والصحي والبيولوجي الوراثي والاجتماعي طويل الأمد، والذي لا يمكن فحصه مقدماً. كذلك فعلت الإمكانيات الجديدة للمكروالكترونيك وتكنولوجيا الجينات في تقوية الميل إلى الهرب من المدنية التكنيكية.

الطاقة النووية وكارثة تشرنوبيل

أصبحت كارثة تشرنوبيل دافعاً للكثير من الناس لأن يطالبوا بالكف عن استخدام الطاقة النووية. إلا أننا لو تفحصنا القضية بدقة، لوجدنا أن السبب المباشر للكارثة هو الطيش وانعدام الحذر في تشغيل المفاعل النووي، إضافة إلى النواقص التكنيكية وقدم المفاعل. فقد كان جهاز حراسة المفاعل قد عُزل عن العمل. ومما يجدر بالذكر هنا أن نقداً علنياً كان قد ظهر في صحافة أوكراينا قبل الكارثة بأربع أسابيع، كشف عن النقص في الضبط التكنيكي في المفاعل النووي، وقلة اكتراث العاملين فيه.

ومع ذلك يعتقد بعض الناس بوجوب القطيعة مع الطاقة النووية كمصدر للطاقة بغية تجنب المخاطر المحتملة التي يؤدي إليها استخدام تلك الطاقة. ويذهب هؤلاء إلى أن البقاء على استخدامها يبتعد عن الشعور بالمسؤولية الأخلاقية. ولكننا إذا نظرنا إلى قضية الطاقة من الجهة الأخرى لرأينا أنه عند نضوب مصادر الطاقة الطبيعية التقليدية «المتحجرة» (الفحم والنفط والغاز) فسوف لا يبقى لدينا من مصدر للطاقة غير الطاقة النووية. وقد بلغت نسبة الطاقة النووية في تجهيز الطاقة المستهلكة في فرنسا مثلاً ٥٩٪ عام ١٩٨٥، وفي بلجيكا ٥١٪، وفي ألمانيا الاتحادية ٣٦٪. والآن تعقد الآمال في العديد من البلدان المتطورة صناعياً على «الانصهار النووي المنضبط» (أي الذي يبقى تحت السيطرة ولا يؤدي إلى الانفجار). ولكن بناء مفاعل «انصهاري»، إن أمكن ذلك، سوف لا يتم قبل عام ٢٠٠٠. أما مصادر الطاقة الأخرى (الريح، الشمس، المد والجزر، ...) فإيراداتها ضئيلة!

يرتبط مستقبلنا الاقتصادي ارتباطاً وثيقاً بالتكنولوجيا الراقية الكبيرة. أما المخاطر المحتملة التي قد يتعرض لها الناس من المفاعلات النووية التي تولد الطاقة الكهربائية فقد بيّنت الدراسات التي جرت حول ذلك أن الخطر الذي يتعرض له المواطن الموجود بالقرب من المفاعل النووي عند حصول حادثة كبيرة في المفاعل، أقل بكثير من جميع المخاطر الأخرى التي يتعرض لها يومياً. ومخاطر الطاقة النووية يمكن إخضاعها للسيطرة مبدئياً. ولذلك فالقبول المتحفظ بالاستخدام السلمي للطاقة النووية يتفق مع المسؤولية الأخلاقية.

التزود بالطاقة من «الوقود المتحجر»

يعتقد البعض أن البديل عن الطاقة النووية هو ما يسمى بـ«الوقود المتحجر» (الفحم والنفط والغاز) إضافة إلى الطاقة الشمسية واستخدام تكنولوجيات تقتصد في استهلاك الطاقة. ولكن استعمال الوقود المتحجر للتزود بالطاقة يبقى محفوفاً بالمشاكل إذا نظر إليه نظرة أخلاقية. فإطلاق المواد المضرة باحتراق الوقود (أوكسيدات الكاربون والكبريت والنتروجين) قد يؤدي إلى عواقب صحية وخيمة، وإلى تغيرات في البيئة قد تدوم زمناً طويلاً.

هناك مسألة أخلاقية أخرى إضافة للأضرار الصحية والبيئوية التي يجلبها حرق «الوقود المتحجر»، هي أن الاستهلاك المتزايد للطاقة المحدودة المخزونة في الأرض،

دون أخذ مصالح الأجيال القادمة بنظر الاعتبار، سيؤدي إلى حرمان هذه الأجيال من إمكان استخدام هذا الاحتياطي القيّم لأغراض أهم وأجدى مما يأتي به الحرق.

الحدود الايكولوجية للتطور التكنولوجي

بتزايد التدخل التكنيكي في الطبيعة يتسع ما يلحق بها من اضرار؛ كما يتزايد الضرر الذي يلحق ببيئتنا الحيوية، بحيث أصبح الحديث يجري الآن عن «أزمة ايكولوجية» (أزمة البيئة في علاقتها بالإنسان). فالموقف الخاطئ الذي يهمل علاقة الاعتماد المتبادل بين الكائنات الحية وبيئة الحياة (أو ما يسمى بـ«النظام الايكولوجي») أدى إلى تدخل مدمر في الطبيعة التي نعيش فيها. وقد لا يطول الزمن، كما يقول الخبراء، حتى تنهار دورة إعادة التوازن الطبيعي الضروري للحياة إلى غير رجعة، ما لم نتخذ إجراءات عنيفة ضد هذا التبذير.

لهذا يتضمن السلوك الأخلاقي تحمل المسؤولية تجاه كل شيء حي، وتجاه بيئة الحياة كلها. فالطبيعة تضع حدوداً للتطور التكنولوجي، وهي باعتبارها الأساس الحيوي للتقدم والنمو، يجب العناية بها وضمان بقائها.

التقدم التكنيكي كما قلنا ليس هدفاً بذاته، إنما يجد مسوّغات وجوده في كونه تقدماً إنسانياً. ولهذا وجب على هذا التقدم أن لا يلحق أي ضرر ببيئة الحياة التي يعيش فيها أي مجتمع إنساني.

التطور العلمي ـ التكنيكي والمسؤولية الأخلاقية

بتطور العلم نشأت إمكانيات جديدة للتكنيك، كما نشأت إمكانيات جديدة للطب في مكافحة الأمراض وإيقاف آلام الإنسان. هنا نشأ الاعتقاد بأن تقدم العلم المستمر سيؤدي إلى حل مشاكل العالم؛ وهذا يعني الأمل بالسعادة والتخلص من الآلام والمشاكل، وبمستقبل يخلو من الشقاء والألم، وينمحي فيه الظلم، ويصبح الناس فيه أحراراً، يعيشون سوية في فردوس أرضي.

غير أن هذا الاعتقاد المتسرع بالخير والرخاء الذي يقدمه التكنيك أصبح يترنح في العقود الأخيرة من السنين، بسبب المشاكل التي أتى بها التكنيك نفسه، أو استخدامه لأغراض غير إنسانية.

الشعور بالمسؤولية الأخلاقية لا يقتصر على التفكير بعواقب ما يعمل المرء، إنما

يشمل أيضاً عواقب ما يهمل عمله. هنا تصبح قضية المسؤولية متناظرة: عمل الشيء وإهماله.

واجبنا الأول هو جعل الأرض قابلة لسكنى البشرية التي نتحمل المسؤولية تجاهها. هنا تتحمل الشعوب الصناعية مسؤولية أكبر تتناسب مع معرفتها العلمية وقدرتها العملية التكنيكية بالقياس مع غيرها من الشعوب.

التقدم التكنيكي يعني زيادة في قدرات الإنسان، وهذا يعني زيادة في حريته، وهذه تعني بدورها زيادة في مسؤوليته. أما التخلي عن التكنيك بدافع التخلص من المسؤولية فلا يعني سوى إهمال التكنيك الجيد المفيد للبشرية، القابل للصنع، وإفساح المجال أمام تطوير تكنيك شرير، وبالتالي تعريض البشرية للمخاطر والمشاكل.

أصبح التفكير حول الأسس والشروط الأخلاقية للحياة اللائقة بالإنسان ضرورياً ضرورة ملحّة. فالنتائج العظيمة للبحث العلمي في مجال التكنولوجيا يجب أن لا تتوجه ضد الإنسان، إنما يجب استخدامها من أجل سعادة البشرية جمعاء. أما الرفض الإجمالي الشامل للتكنيك فخاطئ تماماً. ولذلك يجب التخلي كلياً عن فكرة «الرجوع إلى الطبيعة» أي إلى العالم ما قبل التكنيكي؛ فإننا لا نستطيع الحياة دون التكنيك. والمطلوب منا الآن أن نعيش مع التكنيك بشكل معقول مليء بالشعور بالمسؤولية. وكلما تقدم التكنيك وجب على الإنسان أن يحوز على مستوى عالٍ من الوعي الأخلاقي مليء بروح المسؤولية.

على العلماء أن يربطوا العلم بالضمير، وأن يحترموا أولوية الأخلاق، لكي يبقى العلم في خدمة الحياة والإنسان.

على العالم عند اكتشافه شيئاً جديداً أن يبلغ الرأي العام عن إمكان استخدام اكتشافه والنتائج المحتملة لذلك، إيجابية كانت أو سلبية، وأن يؤيد استخدامه السلمي لصالح الإنسانية، ويقاوم استخدامه ضدها.

يجب أن يعلَن للعالم أن جميع الأسلحة النووية غير شرعية، ولا يجوز استخدامها بأية حال. كما يجب أن يحرَّم الاتجار بأعضاء الإنسان (الكلية، الكبد، القلب، ...)؛ ويجب أن يمهَّد الطريق ليستطيع كل قطر أن يستفيد من المواد الأولية والثروات الطبيعية المخزونة في أرضه.

ضرورة الديمقراطية للعلم والأخلاق والمجتمع

تكافح الشعوب من أجل الحرية والديمقراطية ضد الاضطهاد والظلم. أما الديمقراطية

فلا تنحصر في الحريات السياسية، على أهميتها القصوى، كحرية الرأي والكلام والصحافة واستقلال العلم في البحث عن الحقيقة، إنما تمتد إلى الحق في العمل والسكن وطيب العيش والسعادة؛ كما تتطلب الديمقراطية توفر شروط اجتماعية وإنجازات علمية؛ وهي (الديمقراطية) نفسها شرط للسلوك الأخلاقي. ونظام الدولة الديمقراطي يجب أن يضمن الإمكانيات لتعبّر الجماهير عن رغبتها في الإصلاح؛ وإلا كانت تلك الديمقراطية ناقصة مشوهة. والديمقراطية تتضمن إمكانية استبدال ذوي السلطة العليا بغيرهم، وسحب السلطة من الجماعات التي تتنكر لإرادة الجماهير.

لكي نتمكن من الاستفادة من الديمقراطية ومواصلة تطويرها يلزم جعل العلم نفسه ديمقراطياً، أي يجب ضمان التعليم العام لجماهير الشعب، وإفساح المجال أمام الأفكار الاختصاصية الإنسانية وتوجيه حركة الشعب في سبيل الحرية والديمقراطية توجيهاً علمياً.

يتجسد السلوك الأخلاقي لحل المشاكل في السعي لتحقيق مجتمع ذي روح إنسانية، يتصف بالعدالة الاجتماعية والاتجاه الصحيح في السلوك مع الطبيعة والبيئة. وشرط تحقيق كل ذلك هو ديمقراطية المجتمع والعلم.

الجنسية العراقية منذ العشرينات

هادي الحسني *

عرّف فقهاء القانون الدولي الخاص الجنسية بأنها رابطة قانونية وسياسية بين شخص ودولة ويسمى هذا الشخص مواطناً، ذكراً كان أم أنثى وينظم قواعدها وأحكامها القانون الداخلي لكل دولة بشرط أن لا يتعارض مع أحكام القانون الدولي الخاص وميثاق الأمم المتحدة ولائحة حقوق الإنسان.

كان العراق حتى أوائل سنة ١٩٢١ جزءاً من السلطنة العثمانية. ولذلك لم تكن له هوية دولية مستقلة، أي دولة طبقاً لأحكام القانون الدولي العام، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى التي كانت السلطنة العثمانية طرفاً فيها تفككت السلطنة وأصبحت أجزاؤها دولاً عديدة. وكان العراق إحداها. كان كل شخص يحمل الجنسية العثمانية ومقيماً إقامة دائمة على أراضي السلطنة عثماني الجنسية. ولغرض تنظيم الجنسية الجديدة في الدولة العراقية، جرى تشخيص المواطنين من الناحيتين القانونية والسياسية، لكي يستطيع الواحد أن يكون عراقي الجنسية.

بعد تأسيس الدولة العراقية تحت الوصاية البريطانية سنة ١٩٢١ صدر قانون ينظم علاقة الجنسية الجديدة. فاشترط تحقق شرطين لكي يكون الشخص مواطناً عراقياً هما:

١ــ أن يكون الشخص في سنة ١٩٢١ عثماني الجنسية.

٢ــ أن يكون الشخص مقيماً إقامة دائمة على الأراضي العراقية.

فعند تحقق الشرطين في أي شخص يكون من الوجهة القانونية والسياسية مواطناً

* مارس المحاماة في العراق بعد دراسة القانون بجامعة بغداد. ولعدم توفر مصادر عن القانون العراقي في منفاه بالسويد استند إلى دراسته القانون وممارسته للمحاماة ومتابعته لصحف المعارضة العراقية.

أصلياً من الدرجة الأولى ويعطى شهادة جنسية. ويصبح أولاده القاصرين عراقيين أصليين تبعاً لجنسية أبيهم بحكم القانون، سواء ولدوا في العراق أم في دولة أخرى. إن الأجنبي طبقاً لأحكام القانون العراقي عند قيام الدولة العراقية هو كل شخص لا يحمل الجنسية العثمانية ولو كان مقيماً بشكل دائم على الأراضي العراقية منذ سنة ١٩٢١. وتنظم للأجنبي وثيقة إقامة.

لقد عالج القانون حالات اكتساب وفقد الجنسية بقواعد وأحكام مفصلة، سواء في القانون الأصلي أم في تعديلاته المتواصلة.

أولاً: حالات اكتساب الجنسية العراقية: هنالك ثلاث حالات لكسب الجنسية هي:

١ ـ اكتساب الجنسية الأصلية: ويتجسد هذا في حصول الشخص العثماني الجنسية والمقيم إقامة دائمة على الأراضي العراقية منذ سنة ١٩٢١ وكذا حصول أولاد هذا الشخص على الجنسية الأصلية أي جنسية أبيهم وجدهم. وهي جنسية من الدرجة الأولى وتصدر بها شهادة الجنسية العراقية إثباتاً لذلك.

٢ ـ الجنسية العراقية عن طريق التجنس: هذه الحالة مقصورة على الأجنبي الذي يحمل جنسية دولة أخرى. واشترط القانون العراقي ثلاثة شروط للتجنس:

آ ـ أن يكون الأجنبي الذي جاوز عمره الثامنة عشرة مقيماً إقامة دائمة ومتواصلة في العراق خمس سنوات.

ب ـ أن لا يكون قد حكم عليه بجريمة، بجنحة أو جناية خلال خمس سنوات.

ج ـ أن يوافق وزير الداخلية على منح الأجنبي الجنسية العراقية.

ويلاحظ طبقاً لأحكام القانون العراقي أن موافقة الوزير ليست وجوبية، بل هي جوازية، أي له أن يوافق وله أن يرفض. وهنا تلعب الرشاوى دورها. وكانت في العهد الملكي وحتى سنة ١٩٧٩ تصل إلى ألوف الدنانير. فالأجنبي كان يدفع رشاوى بدءاً من التحقيق معه في الشرطة حتى ديوان الوزير. وعند نوال الجنسية عن هذا الطريق تصدر بها شهادة جنسية عراقية بالتبعية، أي تبعاً لجنسية الأجنبي السابقة، كأن تكون إيرانية ويسمى من التبعية الإيرانية، فيكون المتجنس عراقياً من الدرجة الثانية. فيحرم من الدراسة في كليتي الشرطة والعسكرية ومن وظائف حساسة في دوائر الدولة، كالسلك الدبلوماسي. ويجوز سحب الجنسية من المتجنس في أي وقت وتسفيره إلى دولته. وهناك وقائع كثيرة من مثل ذلك خصوصاً إذا كان الشخص معارضاً لنظام الحكم.

٣ ـ اكتساب الجنسية العراقية عن طريق الولادة على أرض العراق. وهذه الحالة

مقصورة على الأجانب الذين يحملون جنسيات دولهم. أما بالنسبة لمن يحمل الجنسية العراقية فسيان ولد أولاده على أرض العراق أم في دولة أخرى. فهم عراقيون تبعاً لجنسية أبيهم. ولهذا فإن أولاد العراقيين في المنافي، وإن ولدوا خارج العراق فإنهم عراقيون. فإذا كانت أسرة الأجنبي في العراق لغرض الدراسة أو العمل أو السياحة وولدت الزوجة طفلاً فإن لهذا الطفل الحق في الجنسية العراقية عند بلوغه سن الثامنة عشرة وله خلال سنة كاملة أن يقدم طلباً لوزير الداخلية للموافقة على منحه الجنسية. وموافقة الوزير وجوبية بحكم قانون الجنسية. والجدير ذكره أن هذا الحق معترف به في جميع دول العالم. وفي سنة ١٩٦٤ ألغي هذا الحق في العراق بموجب تعديل قانون الجنسية. وجاء الإلغاء مخالفة صارخة لأحكام القانون الدولي الخاص ولائحة حقوق الإنسان مما حرم ألوف الأشخاص من حق اكتساب الجنسية في كل سنة. وكانت تصدر شهادة جنسية بذلك وفيها كلمة تبعية، أي أن الشخص الذي يكتسب الجنسية أجنبي، كأن يكون إيرانياً. فهي جنسية من الدرجة الثانية وهو مواطن من الدرجة نفسها ويحرم من كثير من الحقوق.

ثانياً: حالات فقد الجنسية:

الحالة الأولى تتجسد في اكتساب العراقي جنسية دولة أخرى وتخليه بإرادته عن الجنسية العراقية، فتسقط عنه الجنسية العراقية بحكم القانون ويصبح أجنبياً بالنسبة للدولة العراقية. وهذه الحالة تتطابق وأحكام الدستور والقانون الدولي الخاص ولائحة حقوق الإنسان.

وتتجلى الحالة الثانية في إسقاط الجنسية عن العراقي كعقوبة سياسية. ففي الثلاثينات شرع قانون إسقاط الجنسية. وطبق على الشيوعيين فأسقطت جنسية عبد القادر ويوسف اسماعيل البستاني في آب ١٩٣٧، وجنسية مهدي هاشم في تشرين الأول ١٩٣٧ ونفي إلى إيران، ثم طبق القانون على اليهود العراقيين الذين يتركون العراق إلى إسرائيل. فكانت تسقط جنسيتهم حتى قبل حصولهم على الجنسية الإسرائيلية، وتحجز أموالهم. فكان هذا الإسقاط مخالفة لأحكام الدستور والقانون الدولي الخاص وميثاق الأمم المتحدة ولائحة حقوق الإنسان التي تمنع حرمان الشخص من جنسيته قبل نيله جنسية دولة أخرى، إذ يصبح عديم الجنسية. وطبق هذا القانون عند قيام حلف بغداد سنة ١٩٥٥ على الشيوعي البارز زكي خيري وهو في السجن*، وعلى المناضلين

* أنظر كتاب حنا بطاطو الثاني: الحزب الشيوعي، الطبعة العربية الأولى، بيروت ١٩٩٢، وخاصة الصفحات ٧١، ٩٨، ١٠١.

الشهيدين المحاميين توفيق منير وكامل قزانچي إذ أسقطت الحكومة الرجعية عنهما الجنسية وأرسلتهما مخفورين إلى تركيا حيث أودعا السجن هناك ولم يتحررا من السجن ويستعيدا الجنسية المفقودة إلا بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ الوطنية الديمقراطية. ثم طبق القانون نفسه كعقوبة على نصف مليون عراقي حيث مزقت وثائق جنسيتهم وهجروا إلى إيران بوحشية ونهبت أموالهم وزج بشبابهم في السجون وذلك في أواخر ١٩٧١ وأوائل ١٩٨٠ وما بعدها، بزعم أنهم من التبعية الإيرانية وهم عراقيون من أجيال، وأغلبهم من الأكراد الفيلية. وطبق القانون نفسه في أوائل ١٩٩٥ كعقوبة سياسية على الشاعرين محمد مهدي الجواهري الذي عمره (٩٥) سنة وعمر الدولة العراقية ٧٤ سنة فهو أكبر من عمر الدولة بواحد وعشرين سنة، وعبد الوهاب البياتي والصحفي سعد البزاز فاصبحوا عديمي الجنسية وهم خارج العراق ولم يكتسبوا جنسية دولة أخرى.

الحالة الثالثة تتمثل في إلغاء الجنسية عن المتجنس كعقوبة سياسية ونفيه إلى دولته قبل تجنسه بالجنسية العراقية. ويشكل الإلغاء مخالفة صريحة لأحكام الدستور والقانون الدولي الخاص وميثاق الأمم المتحدة ولائحة حقوق الإنسان. وهناك وقائع كثيرة بشأن إلغاء التجنس في العراق.

أما الحالة الرابعة فتتجلى في الآتي:

أ ـــ قيام وحدة اندماجية (كونفدرالية) بين دولتين فأكثر فيفقد الشخص جنسية دولته ويكسب جنسية دولة الوحدة الجديدة ومن أمثلتها اندماج اليمن الجنوبي والشمالي سنة ١٩٩٠ واندماج الدولتين الألمانيتين واندماج دولتي فيتنام الشمالية والجنوبية.

ب ـــ في حالة تفكك الدولة الاتحادية (الكونفدرالية) إلى عدة دول تزول جنسية الدولة الموحدة ويكتسب الشخص جنسية الدولة الجديدة ومن أمثلتها تفكك الدولة العثمانية، والاتحاد السوفيتي، وتشيكوسلوفاكيا، والجمهورية العربية المتحدة إلى دولتي مصر وسوريا سنة ١٩٦١.

ثالثاً: حالة ازدواج أو تعدد الجنسية:

قد يحوز الشخص جنسية دولتين في آن واحد فيكون في هذه الحالة مزدوج أو متعدد الجنسية وهذه الحالة تشمل ألوف العراقيين في المنافي والمهاجر إذ يحتفظ العراقي بجنسيته الأصلية وهي العراقية ويكتسب جنسية جديدة هي السويدية أو الدانماركية مثلاً. وإن سبب اكتساب الجنسية الجديدة هو الإقامة الدائمة، في السويد مثلاً، مدة أربع

سنوات لمن كان لاجئاً سياسياً ومدة خمس سنوات لمن كان لجوؤه إنسانياً.

رابعاً: حالات انعدام الجنسية: أوضحنا بأن انعدام الجنسية يتجلى في ثلاث حالات هي:

١ــ حالة إسقاط الجنسية الأصلية كعقوبة فيصبح الشخص عديم الجنسية.

٢ــ حالة إلغاء التجنس كعقوبة فيصبح الشخص عديم الجنسية إن كان قد فقد جنسيته الأصلية بعد التجنس.

٣ــ حالة عديم الجنسية وهو الشخص الذي لا جنسية له أصلاً كالأكراد الفيلية في العراق الذين يربو عددهم على النصف مليون إنسان. وقد عاش وعمل آباؤهم وأجدادهم في العراق منذ عهد السلطنة العثمانية. غير أنهم لم يكتسبوا الجنسية العثمانية. وعند قيام الدولة العراقية لم يستطيعوا اكتساب الجنسية العراقية لكونهم لا يحملون الجنسية العثمانية كما أنهم لم يستطيعوا التجنس بالجنسية العراقية لأنهم لا يحملون جنسية دولة أخرى.

وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ تبنى الحزب الشيوعي العراقي قضية الأكراد الفيلية فطالب الحكم الوطني بإعطائهم الجنسية الأصلية ونشرت جريدة اتحاد الشعب مقالات عديدة مطالبة بذلك لكون هؤلاء الأكراد قد عاشوا وعملوا في العراق وساهموا في بناء الاقتصاد منذ أجيال ولأن ولاءهم هو للدولة العراقية وبحوزتهم دفاتر النفوس، وأدوا الخدمة العسكرية. غير أن الحكومة لم تستجب بسبب من سياستها الشوفينية التي أوصلتها إلى شن الحرب العدوانية على الشعب الكردي في أيلول ١٩٦١. وهكذا بقوا عديمي الجنسية حتى جاء النظام الفاشي وقام بتهجيرهم إلى إيران بزعم تبعيتهم لإيران. وهكذا يصبح عديم الجنسية منبوذاً في الحياة ويعاني الكثير.

يتضح مما تقدم أن النظم الرجعية والدكتاتورية والفاشية في العراق انتهكت أقدس حق للإنسان وهو حق الجنسية، أما النظم الديمقراطية فتحترم حقوق الإنسان وينال كل مواطن وأجنبي جنسيتها طبقاً للقانون المنسجم مع أحكام ومبادئ القوانين الدولية وميثاق الأمم المتحدة ولائحة حقوق الإنسان. كما أنها لا تحرم أي شخص من الجنسية كعقوبة سياسية. فمن يرتكب فعلاً جرمياً يحال إلى المحاكم وفي حالة ثبوت ذلك في محاكمة عادلة تطبق بحقه العقوبة الواردة في قانون العقوبات. لذلك لا يجد المرء حالة واحدة لإسقاط الجنسية الأصلية أو إلغاء التجنس أو عديم الجنسية في تلك النظم.

الانتاج الزراعي والأمن الغذائي في العراق

د. علي حنوش

يعد الإنتاج الزراعي الحديث، شأن أي إنتاج اقتصادي، محصلة التفاعلات والتأثيرات المتبادلة لمجموعة من العوامل البيئية والتكنولوجية والإدارية وحجم الاستثمارات الموظفة. فهي تقرر كمية ونوعية الإنتاج في الزمان والمكان المحددين. ورغم توفر بعض عناصر بيئة الإنتاج كالأرض الصالحة للزراعة، والموارد المائية، والخبرات التقليدية «مع ضعف استخدام التراكم التاريخي للخبرات، كما هو حاصل في الزراعة الصينية مثلاً»، بالرغم من محدوديتها، ما عدا نظام النير في زراعة الأراضي والذي لم يعد صالحاً للزراعة الحديثة. واتسمت العوامل الأخرى بالتخلف، وخصوصاً تكنولوجيا الإنتاج (والتي تشمل الأصناف والتقاوي والأسمدة الكيماوية والعضوية، ومواد المكافحة المتنوعة، وأجهزة الإرشاد والبحث العلمي التطبيقي وغيرها)، والعوامل الإدارية (التي تميزت بضعف الإدارات الزراعية، وضعف سياسات التسويق والسياسات السعرية، وضعف التنسيق بين الإدارة والإنتاج، والعوامل المتعلقة بالسياسات المالية، والمتعلقة بانخفاض الأهمية النسبية للاستثمارات الزراعية في تطوير القاعدة الأساسية للإنتاج الزراعي، وضعف معدلات تكوين الرأسمال في القطاع الزراعي). نجم عن ذلك كله استمرار ظاهرة التخلف عن تلبية الاحتياجات المحلية للمنتوج الزراعي.

إن فروع الإنتاج الزراعي الأساسية هي:

١ـ إنتاج محاصيل الحبوب. ٢ـ إنتاج المحاصيل البستنية.

٣ـــ الإنتاج الحيواني.   ٤ـــ التصنيع الغذائي.

يضاف إلى ذلك الصناعات الوسطية التي لها ارتباط مباشر بتطور الإنتاج الزراعي كصناعة الأسمدة والمركبات الكيميائية، وصناعة الآليات والمكائن الزراعية.

إنتاج محاصيل الحبوب

اكتسبت زراعة الحبوب (الحنطة والشعير والذرة والرز) أهمية أساسية لعاملين أساسيين، الأول تاريخي (باعتبار أن الحبوب وخصوصاً الحنطة والشعير تشكل أكثر من نصف المحاصيل الحقلية). وكانت معروفة في وادي الرافدين منذ العصور القديمة، فتزايد اعتماد غذاء الجماعات والأفراد على تلك المحاصيل ومشتقاتها، لهذا أصبحت تشكل حوالي نصف غذاء الفرد. وإذا نظرنا إلى إنتاج الحبوب بين ١٩٦١ ـــ ١٩٩٥، والتغيرات الحاصلة في مساحة الأراضي المستخدمة في زراعة الحبوب (الجدول رقم١)، نرى أن معدل الإنتاج السنوي بين ١٩٦١ ـــ ١٩٩٠ كان ٢,٠٤٣ مليون طن، وعام ١٩٧٢ بلغ أقصاه ٣,٩ مليون طن، أما أدناه فكان عام ١٩٨٤ حين بلغ حوالي المليون طن. أما الحقبة الحرجة بين ١٩٩١ و١٩٩٥ فإن معدل الإنتاج السنوي كان ٢,٦ مليون طن، أي أعلى من معدل الإنتاج للعقود المنصرمة بنسبة ٢٧٪.

وعلى امتداد الفترة ١٩٦١ ـــ ١٩٩٥ كان معدل المساحة المستثمرة في إنتاج الحبوب ٢,٢ مليون هكتار. وهي تعادل ما يقرب من ٤٢٪ من مجموع الأراضي القابلة للزراعة. وأقصاه في عام ١٩٩٣ حوالي ٤,٤ مليون هكتار، وتشكل ما يقرب من ٨٦٪ من مجموع الأراضي القابلة للزراعة. أما أدنى مساحة استخدمت للإنتاج فكانت ١,٠٨٣ مليون هكتار عام ١٩٨٥[1]. وتقدر المساحة القابلة للزراعة عام ١٩٩٠ بنحو ٥,٢٥ مليون هكتار وتعادل ١٢٪ من مساحة البلاد[2]. وإذا أخذنا المعدل العام لمساحة الأراضي التي استغلت لإنتاج الحبوب بين ١٩٩١ ـــ ١٩٩٥ نرى أنه كان ٣,٥ مليون هكتار، ويعادل ثلثي الأراضي القابلة للزراعة، وهي أعلى من معدل المساحة الزراعية المستخدمة في الثلاثين عاماً المنصرمة بحوالي ٥٩٪.

وإذا نظرنا إلى العلاقة المتبادلة ما بين الإنتاج والمساحة، نرى أن معدل إنتاج الهكتار بلغ على امتداد الثلاثين عاماً (١٩٦١ ـــ ١٩٩٠) أقل من طن واحد (٠,٩٣١ طن/ هكتار)، في حين تراجع ما بين ١٩٩١ ـــ ١٩٩٥ إلى ٠,٨٠٤ طن/ للهكتار، أي بنسبة ١٣٪. وأعلى معدل للإنتاج نجده عام ١٩٧٢ حيث كان ١,٤٤ طن/ هكتار. وقياساً إلى البلدان النامية

والدول العربية بشكل عام، نرى أن معدلات العراق هي الأدنى.

إن تحليل مظاهر الإنتاج على امتداد العقود الثلاثة والنصف يوصلنا إلى الملامح الآتية:

ـــ على الرغم من توسع الأراضي المروية، من ١,٧٥ مليون هكتار عام ١٩٨٥ إلى ٢,٥٥ مليون هكتار، حيث أصبحت نسبتها أكثر من ٤٨٪ من إجمالي المساحة القابلة للزراعة(٣)، غير أن غالبية إنتاج الحبوب لاتزال رهن العوامل الطبيعية، وبالأخص الأمطار وتوزيعها في المواسم الزراعية، وخصوصاً في المنطقة الشمالية التي تنتج أكثر من نصف الحبوب.

ـــ ضعف تطبيق تكنولوجيا الإنتاج (أسمدة، آليات، أصناف ذات جودة عالية، وحماية بيئة الأرض).

ـــ إن معدلات النمو خلال العقود الثلاثة المنصرمة لم تتجاوز ١٪، وأفضل الفترات كانت خلال النصف الأول من عقد التسعينات (٤,٨٪) قياساً لعقد الثمانينات، وذلك ارتباطاً بتوسع الأراضي المستخدمة.

ـــ ارتبطت زيادة الإنتاج في منتصف التسعينات بالتوسع في المساحة، بنسبة ٥٣٪، في حين أن الإنتاج الكلي لم يزد كثيراً عن ٣٢٪ قياساً لعقد الثمانينات.

ـــ انخفاض معدل إنتاج الهكتار لعوامل منها تناقص الحاصدات وعدم توفر قطع الغيار لها مما يعيق إنجاز الحصاد، ونقص مبيدات الأمراض النباتية، وانعدام فرص الطيران الزراعي. وترتبط تلك الأوضاع بتأثير الحظر التجاري وضعف الإمكانيات المحلية لتأمين المتطلبات التكنولوجية.

وعند المقارنة مع مصر نجد أن معدل إنتاج الهكتار الواحد فيها أضعاف ما هو عليه في العراق، لأنها تستخدم مستويات متقدمة من تكنولوجيا الإنتاج الزراعي. وعلى سبيل المثال بلغ معدل الإنتاج بين ١٩٩٣ ـــ ١٩٩٥ أكثر من ٦ طن / هكتار(٤) أي أكثر من ستة أمثال المعدل في العراق.

إنتاج المحاصيل البستانية

محاصيل الخضر والفاكهة أبرز المحاصيل البستنية في العراق. وقد عرف التاريخ القديم زراعة تلك المحاصيل مع التوابل والنباتات الطبية. وتشكل منتجات الخضر والفاكهة اليوم ثلث الاستهلاك اليومي. فإنتاج الخضر وحده (كما في الجدول رقم ٢) احتل الموقع الأول في إنتاج الغذاء، ابتداء من عقد الثمانينات، متقدماً على إنتاج الحبوب.

كما تطورت المساحة المزرعية من ٨٪ من مجموع الأراضي الزراعية عام ٨٩/ ١٩٩٠ إلى ٩٪ ٩٤/ ١٩٩٥[٥]. وكانت معدلات النمو لإنتاج الفروع البستنية لأكثر من ثلاثة عقود مقاربة لمعدلات النمو السكاني (أكثر من ٣٪) وهو ما يرجح إمكانيات تطور الإنتاج في هذا القطاع في المستقبل أيضاً، ارتباطاً بحاجة الاستهلاك المحلي والأمن الغذائي الحرج للسكان. وتقدر منظمة الغذاء والزراعة الدولية في أحدث تقرير أن إنتاج الخضر للفترة ١٩٩١ ـ ١٩٩٥ تراوح بين ٣,٢ إلى ٣,٥ مليون طن سنوياً. أما إنتاج الفاكهة فيتراوح خلال الفترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٤ من ١,١ إلى ١,٢ مليون طن سنوياً[٦]. وهذه المؤشرات الإيجابية تزيد نسبة الاكتفاء الذاتي. ويعود الفضل في زيادة الإنتاج للتوسع في الزراعة المحمية، التي ترفع تكاليف الاستثمار اللازمة للتوسع العمودي. ومن بين العوامل التي أدت إلى زيادة الإنتاج، تحسن المداخيل الفردية، والتقاليد الغذائية، وتزايد سكان المدن، مما شجع على استغلال الأراضي القريبة، وهو اتجاه عام لغالبية الدول العربية. كما يلعب القطاع الخاص دوراً إيجابياً في تنمية الإنتاج، وهو اتجاه إيجابي للمستقبل أيضاً.

وعلى الرغم من المؤشرات الإيجابية للإنتاج في المحاصيل البستنية، فإن نوعية الإنتاج ومعدلاته للهكتار شهدت تراجعاً نسبياً، وتعد متخلفة بالمقارنة مع مصر ولبنان وغيرهما. فالتكنولوجيا المستخدمة لاتزال متخلفة. كما يتأثر الإنتاج في ظل الحظر التجاري تأثراً شديداً بصعوبات توفر بذور الخضار والتقاوي والأصناف ذات الجودة العالية في الإنتاج، وضعف الآليات والمواد والمركبات الكيميائية ومواد المكافحة والوقاية التي تواجه صعوبة في الاستيراد. وتلاحظ منظمة الغذاء والزراعة الدولية أن الأسمدة المستخدمة مثلاً تقتصر على استعمال اليوريا المنتجة محلياً. وكثيراً ما تؤدي كثافة استخدامها إلى نتائج سلبية. كما تتعرض نوعية الإنتاج إلى تدهور بسبب تفشي الأوبئة والأمراض النباتية[٩].

الإنتاج الحيواني

تعاني الثروة الحيوانية من البدائية في رعايتها. فلاتزال بعض أساليب الرعي القبلي والبدائي، مثلاً، قائمة. كما تتسم الأنواع المحلية بالضعف، مقارنة مع بلدان الرعي البدائي كالصومال والسودان. ومراعي الأبقار، الأغنام، الماعز، والجمال غالبيتها منهكة، وتطورها هامشي ولم يتحقق تقدم يذكر في تحسين السلالات ذات الإنتاجية المرتفعة مع

ضعف الرعاية البيطرية والإرشاد، وبطء تطور صناعة الألبان. كما تهدد حالات الجفاف المراعي شبه الصحراوية وتعرضها للهزال الدائم وبالتالي انخفاض قيمتها الإنتاجية. كما أن الدراسات والأبحاث المتعلقة بتحسين السلالات ومجمعات الإنتاج الحيواني تتسم بالندرة. في مقابل ذلك تطورت تربية الدواجن في عقد الثمانينات بدرجة أخص، من خلال تكريس الجزء الغالب من الدعم المالي والإقراض الحكومي لها، مما ساعد على تطور إنتاج اللحوم البيضاء بشكل واسع.

وخلال الفترة ١٩٦١ ـــ ١٩٩٥ كان أعلى معدل لأعداد الأغنام ١٣ مليون رأس في سنوات ١٩٦٨ ـــ ١٩٧٠، في حين تراجعت أعدادها خلال سنوات الحظر التجاري، إلى نصف ما كانت عليه في نهاية الستينات[١٠] والأمر ذاته ينطبق على أعداد الأبقار والجاموس والماعز منذ عام ١٩٩٠. فقد انخفضت أعداد الأبقار بنسبة ٣٤٪، والجاموس بنسبة ٤٦٪، والماعز بنسبة ٨١٪، والدواجن بنسبة ٧٧٪. وأصبحت المؤسسات المنتجة للحوم في حالة حرجة بسبب غياب قطع الغيار، وتعرض أصحاب الأغنام والحيوانات إلى أوضاع صعبة جداً بسبب قلة الأعلاف، وتراجع كفاءة المؤسسات الحكومية المعنية بالثروة الحيوانية، وانخفاض الرعاية البيطرية، ونقص الأمصال والأدوية، مما أثر بدرجة واضحة على إنتاج الحليب. وكانت كميات الأعلاف حوالي ٢,٥ مليون طن من مخلفات الحنطة والشعير، والذرة، وفول الصويا، والبروتين الأحادي المركز من مخلفات التمور[١١]. وأسهم تدهور العملة المحلية في تشجيع عمليات تهريب الثروة الحيوانية إلى البلدان المجاورة. أما منتجات الأسماك، فقد أثر تجفيف الأهوار وتوقف أسطول صيد الأسماك في منطقة الخليج العربي منذ فترة طويلة على توفر الموارد السمكية بدرجة واضحة. وتسعى الدولة للاستعاضة عن ذلك بتشجيع إقامة «حقول الأسماك» والاستفادة من السدود والخزانات المائية للثروة السمكية.

إنتاج اللحوم والحليب

وإذا أخذنا إنتاج اللحوم بشكل عام فإن أعلى معدلات الإنتاج بين ١٩٨٨ ـــ ١٩٩٠ بلغت أكثر من ٣٠٠ ألف طن سنوياً(١٢) وتشكل لحوم الدواجن حوالي ٧٤٪ من المجموع، في حين أن نسبتها كانت ٤,٤٪ للفترة ١٩٦١ ـــ ١٩٦٣. ونتيجة الحظر التجاري تراجع معدل إنتاجها سنوياً (بنسبة ٧٧٪ بين ١٩٩٣ ـــ ١٩٩٥ قياساً إلى ١٩٨٨ ـــ ١٩٩٠)، إلا أنه لايزال يشكل حوالي نصف إنتاج اللحوم[١٣]. وكانت حقول الدواجن قد

تطورت كثيراً في عقدي السبعينات والثمانينات، من خلال الدعم الواسع من الدولة، وتوفر السوق المناسبة لتصريف تلك السلع. غير أن اعتماد حقول الدواجن على الأدوات الاحتياطية والعلف المركز وأمصال اللقاح التي تأثرت جميعها بالحظر التجاري، وشحة العملات الصعبة في القطاع الخاص، قد أثر على إنتاجها تأثيراً حاداً. كما أن تنمية إنتاج للموارد الحيوانية كانت غير متوازنة، وتركزت على ذات الربحية والعائد السريع لما الموارد الأخرى (الأغنام، الماعز، الأبقار، الجاموس، وغيرها). وتتعرض مصادر الثروة الطبيعية والحيوانية في الأهوار إلى دمار واسع النطاق، رغم تردي مصادر الأمن الغذائي.

أما إنتاج الحليب فلم يتطور على امتداد ثلاثة عقود إلا بنسبة ١٨ في المئة قياساً للفترة ١٩٦١ ــ ١٩٦٣، في حين تطور الاستهلاك بدرجات عالية. ولم يكن الإنتاج المحلي قادراً على سد الاستهلاك. وخلال فترة الحظر انخفض إنتاج الحليب بنسبة ٣١٪ قياساً لإنتاج الفترة ١٩٨٨ ــ ١٩٩٠(١٤). إلا أن الخطر الأكبر يكمن في انخفاض نسب الحليب الجاف المخصص للأطفال الذي كان يعد المصدر الأساسي لغذائهم، والذي لم تتطور صناعته محلياً.

الصناعات الغذائية

الصناعات الغذائية تضم بالإضافة إلى المنتجات الغذائية، المشروبات (الروحية والغازية) والتبوغ. والصناعات الغذائية أحد أبرز مقاييس المستوى النوعي للإنتاج الزراعي، وتطور فروعه، ومصدر هام من مصادر الأمن الغذائي. وإذا نظرنا إلى مستوى تطورها في العراق بين ١٩٦١ ــ ١٩٩٠، فإنه بشكل عام ضعيف، كما أن نصيبها في التخفيف من العجز الغذائي يعد هامشياً. إذ تواصل الاعتماد على استيراد السلع الغذائية وخصوصاً السكر والزيوت النباتية واللحوم. وازداد الاستهلاك بنسب متصاعدة في عقدي السبعينات والثمانينات. وبالرغم من بيع المشاريع الصناعية والأراضي التي ابتدأت عام ١٩٨٧ ثم تواصلت حتى عام ١٩٩٠، بما فيها حقول الدواجن والمطاحن ومنتجات الألبان والتعليب والمشروبات إلى القطاع الخاص، فإن مستوى تلك المشروعات بقي متدنياً، بالرغم من جدواها الاقتصادية واحتياجات السوق المحلية لها.

وكانت صناعة الألبان المحلية تغطي ٤٦٪ من حاجة السوق المحلية خلال عقد الثمانينات، وقد استمر الاعتماد على استيراد مسحوق الحليب بصورة كبيرة، على الرغم من النجاح الذي حققته مصلحة الألبان الحكومية في خلق الظروف الملائمة لتحسين

الإنتاج المحلي من الحليب الخام خلال عقدي الستينات والسبعينات. وحسب دراسة طارق الخضيري، فإن منشآت الصناعات الغذائية الصغيرة لعام ١٩٨٨ كانت ٦,٢٪ من مجموع المنشآت الصناعية الصغيرة، و٢٦٪ من الصناعات المتوسطة(١٥).

بدأت صناعة السكر ٦٠/ ١٩٦١ في الموصل باعتماد البنجر، وكان من المؤمل أن تتطور بعد إنجاز مصنع سكر ميسان (الذي يعتمد على قصب السكر) ومعمل سكر البنجر في السليمانية، لتشمل مناطق أخرى كالمسيب وأربيل، والهندية والعمارة(١٦). غير أن إنتاج السكر الأبيض لم يتجاوز ٥ ــ ٨٪ من الاستهلاك المحلي خلال الأعوام ١٩٨٨ ــ ١٩٩٠. وكان من نتائج حرب الخليج الثانية والعقوبات الاقتصادية، انقطاع قطع الغيار ومستلزمات الإنتاج، ما عدا بعض المواد الأولية للصناعات الغذائية مما أدى إلى توقف ٨٠٪ من المصانع حسب المعلومات المعلنة رسمياً عام ١٩٩٢(١٧). كما لم تتوفر للقطاع الخاص العملات الصعبة لاستيراد حاجته من المواد الأولية وقطع الغيار.

الأمن الغذائي

لقد تحولت الدول النامية بما فيها العالم العربي من بلدان مصدرة إلى بلدان مستوردة للغذاء منذ نهاية الستينات، وذلك لعدم مواكبة تقدم القطاع الزراعي للنمو السكاني. مقابل ذلك تركزت صادرات الحبوب لدى عدد محدود من البلدان، يضيق يوماً بعد آخر، حتى أصبح اليوم متركزاً في ثلاث دول رئيسية هي الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا، في حين تركز تصدير المنتجات الغذائية الأخرى (كاللحوم والألبان والزيوت والسكر وغيرها) لدى مجموعة قليلة من البلدان الأوروبية. وتحولت أزمة الغذاء إلى أهم المواضيع التي تطرح على الصعيد العالمي. وانعقد المؤتمر العالمي للغذاء عام ١٩٧٤، واستجابت المنظمة العربية للتنمية الزراعية للتحذيرات، لاسيما وأن أجزاء واسعة من العالم العربي تقع ضمن دائرة العجز الغذائي عاماً بعد آخر. وتوجهت المنظمة العربية في أول دراسة لها عام ١٩٧٦ للتعرف على أبعاد المشكلة، أعقبتها بدراسات واسعة، وبرنامج استراتيجي للأمن الغذائي تبلور عام ١٩٧٩ وعرض في مؤتمر القمة في عمان عام ١٩٨٠، وسمي «عقد التنمية». وعزز الاتجاه ذاته الدراسة التي وضعها المدير العام السابق لمنظمة الغذاء والزراعة الدولية وحدد فيها بعض اتجاهات حل مشكلة نقص الغذاء لعدد من الدول العربية من ضمنها العراق بما يلي:

ــ خفض معدلات النمو السكاني.

ــ إعطاء الأولوية للتنمية الريفية وزيادة الإنتاج ضمن برامج قصيرة ومتوسطة المدى.

ــ تحديد أولويات الإنتاج والتركيز عليها[18].

وكان نصيب العراق من مشروعات استراتيجية الأمن الغذائي العربي للفترة ما بين ١٩٨٠ ــ ٢٠٠٠ حوالي ٢٧٪، تركزت في ميدان إنتاج الحبوب والألبان ومواد غذائية أخرى. وكان يفترض إقامة ١٤ مشروعاً يخص القمح والحبوب، وثمانية لإنتاج السكر، وأربعة للإنتاج الحيواني والدواجن. وتبلغ كلفة تلك المشاريع ٧٢٣٥ مليون دولار. وتشكل استثمارات القمح والحبوب ٧٧٪، والسكر ١١٪، والإنتاج الحيواني ٧٪، وبرنامج البذور الزيتية حوالي ٥٪. وكانت التوقعات أن يستطيع العراق تأمين الاكتفاء الذاتي من الحبوب بعد خمس سنوات من بدء تنفيذ المشروعات، على أن تصل الطاقة الإضافية لإنتاجه ٣ مليون طن عام ٢٠٠٠ لتزويد الاحتياجات العربية. ويقدر العائد السنوي لمشروعات الحبوب وحدها بعد وصولها إلى مرحلة الاستقرار بنحو ١٦٤٢ مليون دولار. كما كان متوقعاً أن يحقق العراق فائضاً من إنتاج الألبان في عام ٢٠٠٠ ويرفع نسبة الاكتفاء الذاتي إلى ١٤٧٪، ويستطيع أن يغطي خمس الفجوة العربية من الألبان، وأن يتحقق الاكتفاء الذاتي الكامل من اللحوم البيضاء والبيض، وأن تخفف نسبة العجز من السكر والزيوت النباتية عام ٢٠٠٠. وكان إجمالي العوائد المتوقعة بعد بلوغ جميع المشروعات مرحلة الاستقرار حوالي ٢٣٠٠ مليون دولار[19،20]. وكان بوسع العراق إنجاز تلك البرامج لامتلاكه الموارد الطبيعية والبشرية والمالية. وتظهر الدراسات أن تلك المشروعات ذات جدوى اقتصادية واجتماعية وسياسية بعيدة الأثر. ومن ميزات تلك البرامج أنها جمعت ما بين تطور الإنتاج لمحاصيل الحبوب وبين تنظيف أقسام هامة من الأراضي الزراعية من التملح، لذا فهي جامعة بين تطور الإنتاج وحماية بيئة الأرض، وهي من الدروس المفيدة للحاضر والمستقبل أيضاً.

متغيرات الوضع الغذائي

وإذا ما نظرنا إلى الوضع الغذائي في العراق وتطور المتاح للاستهلاك خلال الفترة ١٩٧٩ ــ ١٩٩٥ (الجدول رقم ٤)، نرى أن العراق يعاني من العجز الغذائي. بسبب التزايد السكاني وتغير أنماط الاستهلاك، وتوسع المدن وتقلص سكان الريف. فقد تجاوزت زيادة السكان ٣٪ سنوياً على امتداد الفترة الممتدة ما بين ١٩٦١ ــ ١٩٩٠

المنصرمة.

كانت نسبة الغذاء المستورد إلى مجموع الاستهلاك ٦٣٪ خلال الفترة ما بين ١٩٧٩ ــ ١٩٨١، وازدادت إلى نسبة ٦٤٪ للأعوام ١٩٨٨ ــ ١٩٩٠، وتراجعت خلال الفترة ١٩٩١ ــ ١٩٩٥، لكن عدد الوحدات الغذائية التي يستهلكها الفرد هبط هبوطاً شديداً مما يؤدي إلى تدهور الوضع الصحي. إن منظمة الصحة العالمية، ومنظمة الغذاء والزراعة الدولية، توصيان بحاجة الفرد اليومية إلى ٢٥٠٠ وحدة (سعرة حرارية يومياً)، في حين نرى تدهوراً في ما يناله الأفراد من الغذاء. وتنعكس أزمة الغذاء وتدهور الأمن الغذائي في الاتجاهات التالية:

ــ نقص كمية الغذاء وتدهور نوعيته، حيث لا تؤمن حصة التموين الحكومي أكثر من ثلث الطاقة الضرورية للفرد. ويتطلب الأمر تأمين الباقي من السوق التي شهدت ارتفاعاً رهيباً في الأسعار، وعجز الدولة عن وضع حد للتضخم، وكثيراً ما تقضي سياسة الحكومة إلى الاستمرار في طبع العملة وإغراق السوق المحلية بها، مما يؤدي إلى تفاقم التضخم.

ــ ارتفاع مستوى الوفيات، وخصوصاً لجهة الأعمار الحساسة، كما تؤكد على ذلك تقارير المنظمات الدولية، واتساع ظاهرة أمراض نقص الغذاء، وحالات الإصابة بالخواء والهزال التدريجي (الكوارشيكور)، وخصوصاً من جراء نقص الكاربوهيدرات والبروتين الحيواني وفيتامين A، وفيتامين C وفيتامين B6، ونقص الحديد، والعناصر المعدنية الصغرى. مما يهدد المستقبل الصحي لقطاعات واسعة من المجتمع.

ودأبت منظمة الفاو على إصدار تحذيراتها حول أخطار الوضع الغذائي في العراق على ضوء الزيارات التي تنظمها مصحوبة ببعثات من منظمات اليونسكو وعدد من المنظمات الإنسانية والجامعية وغيرها. وتبين الزيارة الأخيرة لبعثة المنظمة الدولية، وتقريرها الصادر في روما في شهر تشرين الثاني ١٩٩٥ الأخطار الجدية للوضع الغذائي للفترة ٩٥/ ١٩٩٦. حيث تبين التقديرات أن العجز في الحبوب سيكون بنسبة ٦٦٪، وفي البقوليات ٥٨٪، وفي الزيوت النباتية ٦١٪، وفي منتجات الدواجن ٩١٪ وفي البيض ٩١٪ وفي الأسماك ٩٢٪، وفي الحليب ٦٠٪، وفي السكر ٩٠٪، وفي حليب الأطفال والشاي ١٠٠٪. وإذا ما أخذ بعين الاعتبار الفقر الكبير للسكان، والذي يشمل بالدرجة الأساسية ٣,٥ مليون من موظفي ومستخدمي الدولة والمتقاعدين، وحالة ٣,٦ مليون من سكان إقليم كردستان العراق الذين لا يحصلون على إعانات التموين من الدولة

(عدا حوالي نصف مليون مواطن من منظمات الإغاثة الإنسانية)، والجزء الواسع من سكان المدن، فإن منظمة الغذاء والزراعة الدولية تقدر أن ٧٠٪ من سكان العراق قريبون من مستوى خط الفقر. وبذلك يمكن اعتبارهم كذلك مهددين بأخطار اجتماعية واقتصادية أخرى. وتبين التقديرات أن العراق بحاجة إلى ٢،٧ مليار دولار لتأمين أساسيات الغذاء للعام القادم[٢٤].

الجدول رقم ١: معدلات إنتاج الحبوب والمساحة المخصصة لها ١٩٦١ ـ ١٩٩٥[١]

الفترة	الإنتاج (ألف طن)	المساحة (ألف هكتار)
١٩٦١ ـ ١٩٦٣	١٨٧١	٢١٠٣
١٩٦٩ ـ ١٩٧١	٢٠٥٨	١٩٠٨
١٩٧٩ ـ ١٩٨١	١٨٠٢	٢١٥٩
١٩٨٨ ـ ١٩٩٠	٢٥١٤	٢٤٤٨
١٩٩٣ ـ ١٩٩٥	٢٨٦٩	٣٦١١

الجدول رقم ٢: معدلات إنتاج الخضر والفاكهة بين ١٩٦١ ـ ١٩٩٥ (ألف طن)[٨،٧]

الموسم	الخضر	الفاكهة
١٩٦١ ـ ١٩٦٣	٩٥٨	٥٢٨
١٩٦٩ ـ ١٩٧١	١٨٧٦	٦٥٣
١٩٧٩ ـ ١٩٨١	١٩٩٢	١١٦١
١٩٨٨ ـ ١٩٩٠	٣١٠٥	١٤٤٣
١٩٩٣ ـ ١٩٩٥	٢٩٩٣	١٥٨٧

الجدول رقم ٣: المعدل السنوي لإنتاج اللحوم
بين ١٩٦١ ـ ١٩٩٥[١٢]

الموسم	ألف طن
١٩٦١ ـ ١٩٦٣	٩٦
١٩٦٩ ـ ١٩٧١	١١٤
١٩٧٩ ـ ١٩٨١	١٤٩
١٩٨٨ ـ ١٩٩٠	٣٠٢
١٩٩٣ ـ ١٩٩٥	١٠٥

الجدول رقم ٤: الإنتاج والاستهلاك والعجز الغذائي للفترة
بين ١٩٧٩ ـ ١٩٩٥ (ألف طن)[٢١،٢٢]

الفترة	الإنتاج	المتاح للاستهلاك	العجز الغذائي ٪	الوحدات الغذائية للفرد
١٩٧٩ ـ ١٩٨١	٥٩٥٩	٩٤١٨	٣٧	٢٧٨٠
١٩٨٨ ـ ١٩٩٠	٨٠٠٦	١٣١١٤	٣٩	٣١٢٠
١٩٩٣ ـ ١٩٩٥	٨٧٠٦	٩٣٤١-١٠٠٠٠	٨-١٣	١٨٠٠

الهوامش

(١) FAO (1995) Iraqi cerals: total production, FAO, Gopher, Dec, 1995

(٢) الزراعة والتنمية في غرب آسيا، الامم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، ومنظمة الغذاء والزراعة الدولية (الاسكوا) العدد ١٥، ديسمبر ١٩٩٢، عمان.

(٣) FAO: Trade Yearbook Vol.45, 1990, 1991.

(٤) FAO (1995) Egypt cerals total production (1961-1995), Gopher, 20 Dec, 1995.

(٥) FAO, Production Yearbook, Vol.44, 1990.

(٦) Evaluation of food and nutrition situation in Iraq, by FAO, Rome, 1995.

(٧) FAO (1995) Iraq vegetables total production (1961-1995) Gopher, 1995.

(٨) FAO (1995) Iraq fruit total production. Gopher 1995.

(٩) المصدر رقم ٦.

(١٠) FAO, Iraq, Sheep total (1961-1995), Gopher.

(١١) المصدر رقم ٦.

(١٢) FAO, Iraq meat, total production between (1961-1995), Gopher, Dec 1995.

(١٣) FAO, Iraq poultry total production between (1961-1995), Gopher, Dec 1995.

(١٤) FAO, Iraq milk, total production (1961-1995), Gopher, Dec 1995.

(١٥) طارق الخضيري (نظرة شاملة على واقع الصناعة التحويلية في العراق) ١٩٩٥. الهيئة الاستشارية العراقية. فينا. نوفمبر ١٩٩٥.

(١٦) المصدر رقم ١٥.

(١٧) المصدر رقم ٦.

(١٨) ادورد صوما (١٩٨٤): الوضع الغذائي العالمي، «منظمة الغذاء والزراعة الدولية»، روما.

(١٩) حسن فهمي جمعة (١٩٩٠): الإطار العام لاستراتيجية وبرنامج الأمن الغذائي العربي، الجزء الأول، الزراعة والتنمية، الخرطوم.

(٢٠) حسن فهمي جمعة (١٩٩٠): الإطار العام لاستراتيجية الأمن الغذائي العربي. الجزء الثاني. الزراعة والتنمية. الخرطوم.

(٢١) المنظمة العربية للتنمية الزراعية (١٩٩٠): الكتاب السنوي للإحصاءات، العدد ١٠، الخرطوم.

(٢٢) FAO, Iraq, food availabilty level, and Food supply structure. Gopher 1995.

(٢٣) المصدر رقم ٢٢.

(٢٤) المصدر رقم ٦.

لــقــاء

«منشقة» سوفيتية نادمة

بدأت الكاتبة تتيانا كوريتشيفا حياتها السياسية مسؤولة في الشبيبة الشيوعية حين كانت تدرس الفلسفة في الجامعة. ثم انتقلت إلى المعارضة مع «المنشقين» فنفيت إلى الغرب لتصطدم بوقائع الرأسمالية وأضاليل الإعلام المعادي للشيوعية. وفي أواخر الثمانينات عادت إلى الوطن لتشهد ما حل به في ظل الرأسمالية الزاحفة لتجد نفسها من جديد في صف المعارضة ولكن هذه المرة بالتعاون مع الحزب الشيوعي الروسي مثل الكثير من المؤمنين والوطنيين. في باريس تحدثت إلى محسن حسن فأرسل للمجلة حديثها الذي يلقي أضواء هامة على التحولات الجارية في بلدها منذ الستينات من وجهة نظر أرثوذكسية مؤمنة. فحديثها يساعد على فهم الاصطفاف السياسي عشية الانتخابات الرئاسية.

بدأت الحديث بتعريف نفسها:

ولدت في عائلة سوفيتية بسيطة بلينينغراد التي لا أريد تغيير اسمها. والدي كان مساحاً وأمي معلمة. وفي بدايات وعيي كنت دائماً أحاول أن أفهم الحياة وأعيش أحداثها الهامة، بينما الناس يعيشون مشاكلهم اليومية الرتيبة. هذا ما دفعني في البداية إلى السياسة. فدخلت الكومسمول، ولكن ليس بروحية اللامبالاة التي كانت عند الأكثرية الساحقة من الشباب. فكنت أثق بأفكار الكومسمول والعدالة والمستقبل الوضاء الذي

سيعم العالم. وأنا أحب فكرة المساواة والتآخي بين جميع الناس. وهذه الفكرة تتميز بها الثقافة الروسية. فإذا قرأتم دستويفسكي وتولستوي وغوغول ستجدون فكرة التآخي هي الفكرة الأساسية في النفس الروسية. وقد بدا لي أنني أستطيع أن أعمل شيئاً ما في هذا المجال. أثناء دراستي في المعهد التقني أصبحت مسؤولة لمنظمة الكمسمول فيه لمدة سنتين. وكان الناس يخافون مني بمقدار ما كنت مبدئية وحازمة. وكنت، على ما أعتقد، رومانسية. فمسؤولو الكومسمول من حولي كانوا يحبون الحياة المرفهة، كالأكل والشرب الجيدين والسفر إلى خارج البلاد. فلم يعجبني ذلك أبداً، ولم أجد البداية الصحية التي كنت أحلم أن أراها. وبالتدريج فهمت بأن مع أمثال هؤلاء لا يمكن عمل شيء. وهكذا انهارت آمالي وأحلامي، وخاصة عندما سمعت نبأ دخول الجيش السوفيتي تشيكوسلوفكايا عام ١٩٦٨. وكان هذا العام مهماً بالنسبة لي ولكثير من المثقفين الروس. فقد صدقنا تماماً أقوال إذاعات «صوت أمريكا» و«صوت الحرية» أن المعتدي السوفيتي غزا هذا البلد لقمع محبي الحرية. فخرجت من الكومسمول ومعي كثير من أصدقائي. هكذا كانت بدايات وعيي. الآن أصبحت أعرف ماذا تردد صوت أمريكا وصوت الحرية، وأنهما من مصادر التلفيق والتضليل المريعة. كنا نشعر بأننا معزولون عن العالم، وكنا نسمع هذا الكذب بكل لهفة.

□ كيف نشأت ميولك الإنسانية التي دفعتك إلى صفوف الكومسمول؟

أعتقد أنها نشأت من محيطي ومن قراءاتي الكثيرة لكتاب إنسانيين، مثل غوركي، يدعون إلى مُثل التآخي العالمي والعدالة وحب الفقراء. وكنت أعيش في شقة «جماعية» فيها حوالي ٤٠ شخصاً موزعين على غرف صغيرة. لكن الجميع كانوا سعداء. وكنا نحتفل كثيراً سوية ونتقاسم الأشياء. وكان الشعور بحب الوطن السوفيتي يغمر الجميع. وكان الجو مفعماً بالمحبة والصداقة. وكان الناس بسطاء، ولم يريدوا تبديل هذه الحياة بأي شيء آخر. ويمكنني القول إن حياتنا كانت مثل الأسطورة. كانوا من مختلف المهن والقوميات، بينهم تتريون وبولونيون وروس. وكنا نلتقي مساء في غرفة واحدة. وكثيراً ما ناقشنا أموراً مهمة جداً. والآن، من تجربتي في الغرب، أصبحت أفهم كم كان ذلك شيئاً ثميناً. فقد كنا نعيش الشيوعية الحقة. كنا فقراء ولم يكن عندنا الكثير، غير أننا لم نتذمر، بل كنا نتقاسم ما عندنا. ربما خلق ذلك أرضية لميولي إلى الكفاح بحماس من أجل العدالة العليا الموجودة في أفكار الكومسمول والحزب.

□ متى وكيف بدأ التحول الفعلي ضد السلطة؟

بدأ كثير من أصدقائي، المفكرين الروس، وخاصة بعد عام ١٩٦٨، الانتقال إلى الحركة الانشقاقية، أي أخذنا نناضل ضد السلطة السوفيتية بوعي، ونؤلف النكات المعادية، ونكتب المناشير. . . وكان ذلك خطأ فظيعاً، كما أفهم الآن. لكننا كنا نبحث عن الحرية بسبب الممنوعات الكثيرة، كالسفر إلى الخارج وبعض المطبوعات. وكنا كالأطفال نحتج على ذلك ونتجه نحو الشيء الممنوع. هكذا انجذبت إلى صوت أمريكا ومؤلفات أمثال سولجنستين وساخروف وآخرين. مع الأسف، فالسياسة السوفيتية كانت سطحية وفظة وغير ذكية، بل يمكن القول «مأجورة» بمعنى ما. لذلك انتقل كثير من المثقفين إلى الجهة المعادية.

□ عشت أيام خروشوف وبريجنيف، ماذا تقولين عن التحولات في عهديهما؟

كانت فترة خروشوف، التي تسمى فترة «ذوبان الجليد»، مهمة بالنسبة لنا. وفي ذلك الوقت دخل الحزب كثير من أصدقائي التجديده من الداخل، كما يقال. وبالفعل حاولوا أن يغيروا. وظهرت أشياء كثيرة. سمح بقراءة بعض ما كان ممنوعاً، مثل مؤلفات سارتر وكافكا وكامو وهايدغر. وصار الشعراء يلقون قصائدهم في الملاعب، ونال الفن كذلك حريات واسعة. وكنا كالسكارى بهذه الحرية. فكان ذلك مثابة الربيع بالنسبة لنا. لكن الآمال سرعان ما تحولت إلى يأس، مما دفع الكثيرين إلى الكحول، مثلاً، لأنه لم يكن مسموحاً لهم بمواصلة التجديد. وهناك من انتحر، كالفنان يفغيني فولوسوف، لم يعرف ذلك المبدع الكبير ماذا يصنع.

وفي نهاية الستينيات بدأ كثير من المثقفين التحول نحو الدين، لأنه كان الجوهري الوحيد والعميق حقاً والذي يلغي السؤال الدائم: أين نكون؟ أو مع من نكون؟ وأود أن أضيف أن خروشوف لم يكن شخصية مثلى. قام بأمور سيئة، فقد أضعف الجيش، ولاحق الكنيسة بقسوة فأغلق ثلثي الكنائس، واعتقل رجال الدين، ووضع قسماً منهم في مستشفيات الأمراض العقلية. وهذا ما أعتبره قمعاً للضمير دفع الكثيرين نحو الإيمان. وبالمناسبة وللتذكير أقول إن ستالين في أيامه الأخيرة أعاد فتح كثير من الكنائس.

وفي عهد بريجنيف، الذي نسميه عهد الركود، بدأنا نعمل سراً، ولكن ليس بكل معنى الكلمة. كوّنا في لينينغراد ما كنا نسميه «الثقافة الثانية». وأخذنا ننظم الندوات الفلسفية، وحررنا المجلات. وكان معنا شعراء وفنانون وفلاسفة، مثل فكتور كريفولين، بوريس

كوبريانوف، ألك أخابكين، كريكوريفا، يفغيني بازوخين. ويمكن تسمية كثيرين آخرين، وهم الآن شخصيات معروفة مثل نقزوروف.

في تلك الندوات، كنا نتحدث عن الفلسفة والفنون والدين، واشترك فيها أناس من مختلف الاتجاهات، منهم المسلمون والمسيحيون والماركسيون. وكان في قبو عمارتنا ندوة كل يوم جمعة يحضرها حوالي ١٠٠ شخص ومنهم رجال (كي جي بي) لذلك كنا نقول: يمكن التنكيت يوم الجمعة لأنهم موجودون عند تنيانا.

ولم يكن سهلاً على السلطة اعتقالنا مع أن اعتقالات بسيطة قد جرت في بعض الأحيان وسرعان ما أطلق سراح المعتقلين. فقد انتهى عهد ستالين وانتهى أيضاً عهد خروشوف حين كانت مثل هذه الاجتماعات علنية، خصوصاً وأن معارضتنا لم تكن سياسية بقدر ما هي معارضة ثقافية ودينية. وكانت تجري مثل هذه الاجتماعات في موسكو وفي مدن أخرى ككييف ومينسك وسفردلوفسك.

□ وماذا كان موقف كي جي بي منك باعتبارك صاحبة مكان الاجتماع؟

فيما بعد اعتقلوني وقالوا لي إنني وصلت إلى «آخر حدود القانون». ولم أفهم لماذا كنت في آخر حدود القانون. وهم لم يستطيعوا توضيح هذه العبارة. اعتقالاتي لم تدم طويلاً. كان أولها عند عودتي إلى لينينغراد من موسكو بعد حضور مؤتمر هيغل الدولي في أيام بريجنيف. وفي هذا المؤتمر كنت أشرح آرائي المؤيدة لسولجنستين وساخروف. وتآلفت كثيراً مع بعض الماركسيين في ألمانيا الغربية لمعرفتي الجيدة للألمانية. وكنت مخلصة في نقاشاتي معهم. ولكن شعروا، فيما بعد، أنني لست منهم. ويظهر أن أحدهم وشى بي عند المسؤولين السوفيت. والشيء نفسه حدث لي مع الماركسيين الفرنسيين من تلامذة أدورنو الذين اهتموا بي كثيراً في البداية لأنني كنت أعرف جيداً هوسرل وهايدغر، ولكنهم، كالألمان، تركوني آخر الأمر.

وعندما اعتقلوني في لينينغراد قالوا إنني سمحت لنفسي أن أتكلم عن سولجنستين، وكانوا يتكلمون معي بكل احترام مدّعين أنهم يريدون مساعدتي، ويثمنونني عالياً، أي كان الكلام معي بروحية دبلوماسية. وفي البداية كنت أتناقش معهم. ولكن قررت السكوت في الأخير لأنني أدركت ألا فائدة للكلام في هذه المؤسسة الضخمة. فأبقوني حوالي ثماني ساعات ثم أطلقوا سراحي. لكنهم كانوا يعتقلون الضعفاء لمدة أطول آملين أن يحصلوا على بعض الاعترافات لنشرها في التلفزيون والإذاعة والصحف. وقد خدمني

الحظ فلم أعترف بشيء. فاعتقالاتي كانت قصيرة، أطولها يومان.

☐ وماذا عن ظروف إبعادك من الاتحاد السوفيتي؟

أبعدوني في ٢٨ تموز ١٩٨٠. والسبب هو أنني إحدى مؤسسات الحركة النسوية (Feminist) في روسيا. وكان هذا شيئاً جديداً خاصة وأن أغلب نساء العالم كان يعتبر أن المرأة في الاتحاد السوفيتي تتمتع بكامل المساواة مع الرجل. أصدرنا مجلة «نساء روسيا» ودخل نضالنا حيز السياسة. فمثلاً خرجنا يوم حقوق الإنسان بمظاهرة. وكانت منظمتنا الوحيدة في لينينغراد التي عارضت الحرب في أفغانستان. وكانت عبارة الحرب في أفغانستان محرمة. فالبنسبة للسلطات الرسمية كنا نساعد أشقاءنا في أفغانستان.

ولم تكن حركتنا النسوية، كما تصوروا في الغرب، ضد الرجال. وكنا نؤمن بالخالق وضد الإجهاض ولنا أهداف أخرى. كانت لدينا علاقات وثيقة خارج الاتحاد السوفيتي. وحصلنا من الخارج على بعض المساعدات المادية. أعطونا بعض الكتب وقليلاً من النقود. لكننا لم نكن بحاجة إلى النقود. فكما تعرف، كانت الحياة سهلة في الاتحاد السوفيتي آنذاك وكنا نحصل على النقود اللازمة عن طريق العمل. وقد تُرجمت بعض أعداد مجلتنا إلى حوالي ٣٠ لغة. كانت تصل أولاً إلى باريس، إلى حركة تحرير المرأة (M.L.F) التي كانت في وقتها قوية وعلى رأسها سيمون دي بوفوار. وهذه المنظمة قامت بترجمة مجلتنا إلى اللغات الأخرى. ونشروا أسماءنا وصورنا وجاؤوا إلينا وساعدونا في عقد مؤتمر صحفي سراً. وهكذا أصبحنا مشهورين. وكنا نتوقع الاعتقال، وحدث ما توقعناه فمزقوا منظمتنا. البعض أرسلوهم إلى السجن وأعطوا الثلاثة أنا من بينهم جوازات سفر مع بعض التحوير في أسمائنا لتوحي بأننا يهود. فأصبحت أنا تتيانا ابراهامنا غوريجفا بدلاً من تتيانا ميخايلفنا غوريجفا ليشير اسم الأب ابراهمنا إلى أنني يهودية، لأن اليهود كان لهم الحق في الهجرة حينذاك. وهكذا أبعدونا إلى فيينا فاستقبلنا عدد كبير من الناس، منهم الصحفيون وشخصيات أخرى.

☐ كيف تعاملت وسائل الإعلام الغربية معكم؟

أصبحنا فوراً موضع اهتمام إعلامي واسع. كانت الأسئلة أثناء المقابلات والمؤتمرات الصحفية واضحة العداء للاتحاد السوفيتي ولكنها سطحية. مع ذلك أشعر بالفخر لهذا الاهتمام. لكن عندما بدأت أقرأ ما يكتبون عن أجوبتنا وجدت أنهم لم يهتموا

بالحقيقة بل بكليشات مقصودة معادية للشيوعية، والتخويف من عدوان الاتحاد السوفيتي عليهم في أي وقت وأن السوفيت أناس قساة. وكانوا يصورون الاتحاد السوفيتي للناس وكأن لاشيء فيه غير السجون والمستشفيات العقلية. وأهملوا في وسائل الإعلام محاولاتنا لتوضيح أن الناس وديون في الاتحاد السوفيتي ويعيشون حياة اعتيادية، يقرأون كثيراً، ويرتادون المسرح والسينما، الخ. كانت إجاباتنا تشوّه تشويهاً فظيعاً. فكان هذا بالنسبة لي صدمة فاجعة، حتى صرت أرفض الكلام مع الصحفيين. كان موقفهم معنا غير إنساني فكل همهم أن يكتبوا ضد الاتحاد السوفيتي على لساننا. ولم يسألنا أحد من الصحفيين عن ظروف حياتنا عندهم. واستغلونا بصورة غير إنسانية ليجعلوا من مجيئنا خبراً مثيراً لا غير. كانوا يأتون حتى في وقت منامنا. هذه العلاقة اللاإنسانية وجدتها، فيما بعد، في كل مكان في الغرب. لكن الصحفيين مصاصو دماء من نوع خاص. وقد لاحظت في الغرب التأثير الشيطاني للدعاية المعادية للشيوعية والاتحاد السوفيتي. وكنت أقول خاصة للناس المتدينين إن التخوف من الاتحاد السوفيتي لا يتلاءم مع الإيمان لأن المؤمن لا يجب أن يعيش في الخوف الدائم من أن يأتي أناس ما ليأخذوا ممتلكاته.

☐ ما عدا ذلك، هل اتصل بكم أناس من المخابرات الغربية؟

بالنسبة لي أقول لا. ولا أعلم ما يخص الآخرين. ولكن من الطبيعي أن هذه الأجهزة استغلت ما كنت أقوله كل يوم في التلفزيون وأجهزة الإعلام الأخرى، بالإضافة إلى التشويه المستمر لما أقوله. وهذا ما اضطرني أن أهرب من فيينا إلى ألمانيا. فأعطوني هناك حق اللجوء السياسي. وبدأت أدرس في معهد اللاهوت المسمى القديس جيورجي في فرانكفورت. واستغربت عندما وجدت في هذا تأثيراً قوياً للمثل الشيوعية حتى أنهم كانوا يرتدون القمصان الحمر ويتحدثون عن ضرورة إنقاذ بلدان العالم الثالث، وخاصة كوبا ونيكاراغوا والسلفادور. . . الخ، من الغرب الرأسمالي وخاصة من أمريكا.

☐ وكيف سارت حياتك في المعهد، وفي ألمانيا عموماً؟

كانت الحياة بالنسبة لي مملة وعديمة المسرة. وتعرضت إلى المرض من شدة الحنين إلى بلدي حتى تصورت أن أجلي قريب.

في الغرب أدركت أنني كنت أعيش حياة جميلة في بلدي. وفي الغرب، عكس

تصوراتي، وجدت التوتاليتارزم (الشمولية) بصورتها الحقيقية. فالشمولية هنا تتمثل بكون الناس خاضعين لتأثير وسائل الإعلام المضللة والدعاية لكل شيء وهي تصور هذه الدعاية أنها حرية الفكر والإعلام. ولكني لم أجد كثيرين يفكرون هنا بحرية فكل شيء، بما فيه الأفكار، مرسوم لهم. تقابلت مع كثير من المختصين بالفلسفة واللاهوت، حتى هؤلاء وجدتهم متأثرين بدعايات وسائل الإعلام. وكنت أشعر بالملل من ذلك. أما في الاتحاد السوفيتي فإنك تجد أحاديث الناس ممتعة، حتى السكير يمكنه أن يحدثك عن نفسه وعن العالم أحاديث شيقة. هذا المستوى الثقافي لا تجده في الغرب. أدركت أنني لا أستطيع أن أعيش في الغرب. ففي روسيا الحياة أفضل مهما كانت الآلام.

☐ أمضيت فترة طويلة في الاتحاد السوفيتي وأتفق معك بأن مستوى الثقافة والتعليم عندكم كان أعلى مما هو في الغرب. والسوفيتي يعرف الغرب أكثر مما يعرف الغربي الاتحاد السوفيتي. ولقد سنحت لي الفرصة أن أقابل الكثير من الغربيين فوجدت معرفة الأكثرية عنكم سطحية جداً. فهم يعرفون ما تريد وسائل الدعاية أن يعرفوا ولاحظت عمق شعور التضامن والطيبة في مجتمعكم. وهذا رأي الأجانب عنكم. ترى ما علاقة هذه السمات بالنظام السوفيتي؟ هل أثر المستوى المعاشي والثقافي المتقارب للناس في تلك الفترة في تكوين الصفات الشخصية التي تتحدثين عنها، أم أن هناك أسباباً أخرى؟

مبادئ العدالة التي كانت تسود بلادنا هي مبادئ عظيمة، رغم تمردي على الوضع. لكن أعتقد أن هناك جذوراً أعمق تكمن في إنسانية الفرد الروسي وعطفه، وهذا ما عبّر عنه دستويفسكي وفقهاء الروس. فأرثوذكسية الروس تختلف كثيراً عن مسيحية الغرب بما فيها الكاثوليكية والبروتستانتية. فحسب الأرثوذكسية، جميع الناس متساوون أمام الرب مهما كانت منزلتهم. ولم تكن هذه الأفكار للنفاق والكذب والمسرحية وإنما كان هذا يجري في روسيا بصدق. وطوال السنين كانت روحية التضامن وحب المساعدة ملازمة للشعب الروسي. ربما يكون ذلك ناجماً عن المساحة الشاسعة لروسيا، فلم يضطر الناس للاحتراب من أجل الأرض كما حدث في بلدان أخرى. لذلك كانت الشيوعية تنسجم مع الحياة والفكر عندنا. فاستقبل الروس الشيوعية كما لو أنها ديانة. وفي الاتحاد السوفيتي والصين آمنت الشعوب بالشيوعية بصورة حقيقية لأن مبدأ الجماعية متجذر في هذين البلدين.

□ كيف أثرت البرسترويكا على مسار علاقتك بالوطن؟

لم أثق بها في البداية. لكن في عام ١٩٨٨ حصلت على الموافقة لزيارة بلدي بدعوة من الوالدين وبوثيقة السفر الفرنسية، باعتباري لاجئة في فرنسا. وقانونها لا يبيح استخدام هذه الوثيقة في سفر اللاجئ إلى بلده. لكني خرقت هذا القانون لأزور لينينغراد. حال وصولي غمرتني مشاعر دافقة فنسيت الأكل والنوم. حتى الهواء هناك أسكرني. بعد الفراق الأليم كان رائعاً اللقاء. . . وجدت أصدقائي محافظين على شبابهم وروعتهم.

وبمرور الزمن أصبح واضحاً أن البرسترويكا أريدَ منها تقسيم الاتحاد السوفيتي، وجعل بعض الناس أغنياء والأكثرية فقراء. وأغنياؤنا حالياً أغنى الناس في العالم. لكن لي ثقة بالشعب الروسي الذي سيعود مرة أخرى إلى مكانته السابقة. أما غورباتشوف فصار مكروهاً عندنا. فهو المسؤول عن تفكك الاتحاد السوفيتي، الدولة القوية. والآن تباع ثروات روسيا بأبخس الأثمان. وقد ضمت المافيا العالمية إليها المافيا الروسية. ثم إن غورباتشوف ماسوني ويتهيأ للترشيح نفسه للرئاسة بدعم القوى الماسونية العالمية. إنه بدون مبدأ. وهذه من أسوأ الصفات المخيفة في البشر. إنه مع الحكومة الخفية التي تحكم العالم برئاسة أمريكا. ويراد منا أن نتحول إلى ولاية أمريكية. لكن ذلك لا يمكن أن يمر بالرغم من أن روسيا تمر في مرحلة صعبة جداً لم ترها في تاريخها. لقد غدرنا، نتيجة البرسترويكا، بشعبنا وبشعب كوبا والشعوب العربية وغيرها. نحن ندرك ذلك جيداً.

□ إذن تقلبت حياتك بين الاتحاد السوفيتي والغرب وروسيا الحالية. . . ترى ما هي الدروس التي تستخلصينها من تجربتك الطويلة هذه؟

سؤالك هام جداً. أولاً أنا نادمة لأني كنت من المنشقين. . . لو عرفت إلى ماذا سيؤدي ذلك لكانت تصرفاتي مختلفة جداً، هذا مع العلم أنني كنت حسنة النية. فأثناء إقامتي في الغرب عرفت ماذا تعني النقود. فجأة بدأت هنا أقرأ ماركس، وفهمت معنى عبارته الشهيرة: نقود ــ بضاعة ــ نقود. فالنقود هي الشيء الذي يمكن أن يتحول إلى كل شيء، وكل شيء يتحول إليه. وهذا يؤدي إلى اللامبالاة والاستهتار (Cynicism). فالنقود شيطان حقيقي.

عند عودتي إلى الاتحاد السوفيتي وجدت أن أصدقائي من الوطنيين والمؤمنين قريبون إلى الشيوعيين. وما كنت أعرف سابقاً إلا شيوعيي جهاز الدولة، وما كانوا شيوعيين حقيقيين. لكن الآن لدي كثيراً من الأصدقاء الشيوعيين. فهم أناس نظيفون جداً، فقراء جداً، ويعانون الكثير. ونحن معاً ننظم المظاهرات التي ترفرف فيها الأعلام الحمر

مع الرايات المسيحية والأيقونات. وسالت دماء الشيوعيين والمسيحيين والوطنيين الآخرين معاً عندما قصف يلتسين البرلمان عام ١٩٩٣. ويظهر أن الناس الذين لا يقدسون المال بل العدالة والطيبة والمساواة صاروا معاً. وأكثر هؤلاء هم في الحزب الشيوعي ومن بين الأرثوذكسيين. لذلك تغير رأيي تماماً بالشيوعية. وقررت أن أصوت إلى زوجانوف بالرغم من انه أقرب إلى الديمقراطية الاشتراكية.

التغيرات الأخيرة بيّنت أن الرأسمالية، بالنسبة إلى روسيا، هي شر مطلق، بكل بساطة جحيم. أبشع الناس عندنا هم الأغنياء الجدد. والحمد لله فإن أعمارهم غير طويلة بسبب التقاتل فيما بينهم. لذلك لم تصبح الرأسمالية نموذجاً لشعبنا. لن يتحقق هذا عندنا. وإذا زرتم لينينغراد ستتعرفون على بيتي من الشعار المخطوط عليه: تسقط الرأسمالية.

□ وكيف تتصورين المخرج من الأزمة الحالية؟

إنه في عودة الروس إلى مبادئهم الأخلاقية. على سبيل المثال الخلاعية التي انتشرت في التلفزيون وفي كل مكان، ليست من أخلاقنا. وكذلك التبشير بكسب المال بأي طريقة، وانتشار الجريمة إنها أشياء من صنع أعداء روسيا. وتأثير ذلك فظيع جداً ويفوق التعذيب والسجون.

□ هذا على المستوى الأخلاقي، وكيف ترين النظام الاقتصادي في المستقبل؟

يجب أن توجد المكتبات العامة والخاصة بحيث تكون الملكية العامة هي المسيطرة. وعلينا أن نعتمد أكثر على أنفسنا، ونقلص إلى أبعد الحدود العلاقات الاقتصادية مع قطاع الطرق الغربيين، وإشاعة محاربة الجريمة حتى لو تطلب ذلك شيئاً من الدكتاتورية.

□ لكن هذا قد يعيد الأمور إلى الدكتاتورية التي رفضها الناس في النظام السوفيتي؟

الآن أنا أعتقد انه كان نظاماً جيداً ويتطلب بعض الإصلاحات الأخرى، وأهمها عدم اضطهاد الفكر والكنيسة. والمفروض احترام حرية الإنسان وخياره الفكري لكي يتوصل إلى ما هو سليم.

□ ماذا حصل في الحركة الانشقاقية السابقة؟ هل هناك ما يجمع الآن عناصرها؟ كيف يرى زملاؤك أوضاع روسيا حالياً؟

إن مصيرهم مختلف ومأساوي. صرنا الآن ندرك أن كفاحنا لم يحقق الهدف الذي كنا نأمله. لقد استغلنا الأعداء. الكثير من أصدقائي يعانون كآبة مستمرة فظيعة. فهم قليلو الكلام. واختفى عن الأنظار الكثير منهم. مات بعضهم من الأسى. الأكثرية لم تعد إلى روسيا، فمن الصعب هضم ما يجري الآن من إراقة الدماء والتعسف ومآسي الرأسمالية. لم يشكل الذين عادوا حركة خاصة بهم. ولكن الشعور لدينا هو الندم العميق لما قمنا به ضد هذا البلد العظيم وساعد على تفتيته. وطبعاً يوجد بين المنشقين الصهاينة الذين يفرحون بما وصل إليه الاتحاد السوفيتي. وليست لدي علاقة، ولا أريدها، مع هذه الفئة من المنشقين.

☐ كانت أنظار المثقفين الروس تتجه إلى الغرب. رأى بعضهم أن الغرب هو منبع العلم والفكر والثقافة. آخرون رأوا أن الغرب لم يعد لديه ما يقدمه إلى روسيا. والملاحظ قلة اهتمام المثقفين الروس بالثقافة الشرقية، بما فيها العربية.

إنك على حق. فنحن نوجه لأنفسنا الأسئلة دائماً. لقد انتهى الغرب فلا توجد فيه الآن الثقافة والروحية التي عرفنا بالماضي، ولكن عيوننا مازالت موجهة إلى هناك. ومع هذا فقد بدأ عند مثقفينا الميل نحو دراسة الشرق. لكن ذلك يجري بصعوبة بسبب ظروفنا المأساوية. ويقول الكثير من المثقفين الروس إن الدول الإسلامية والدول العربية هي قريبة منا من حيث نمط الحياة ورفض الفردية والقسوة والتكنوقراطية التي تميز الحضارة الغربية. وهذه البلدان قريبة منا برفضها للصهيونية وأمريكا. وإذا لم نتعاون مع هذه البلدان فسيكون من السهل أن تنتصر علينا الصهيونية الدولية والحكومة العالمية الموحدة. وهذه القوى تريد لنا أن نتخاصم فيما بيننا. فإذن علينا أن نتعاون. التعاون يجري في الوقت الحاضر بصورة شوهاء. فمثلاً يريد البعض تحقيق هذا التعاون مع صدام حسين معتقداً أن ذلك يخدم القضية التي ذكرتها. وهذا يعود إلى الدعاية المضللة في بلداننا. ولذلك أقترح توسيع العلاقة بيننا حتى على المستوى الفردي. تعالوا إلى لينينغراد وسأكون سعيدة بتعريفكم على الكثيرين وإجراء الحوار حول تصوراتنا. فالتعرف الأفضل على بعضنا يساعد على تكاتفنا في المعركة العالمية ضد العدو المشترك.

☐ من قراءتي لما تكتبين وكذلك من حديثك الآن، أرى أنك لا تعادين الشيوعية رغم أنك أرثوذكسية مؤمنة. فكيف تفسرين الجمع بين التزامك الديني والميل إلى الشيوعية؟

ليس من السهل توحيد هذين المبدأين العظيمين. زوجانوف قال يوماً إن الشيوعي الأول هو المسيح. وهذه هي الحقيقة. فأوائل التجمعات المسيحية كانت فيها الملكية مشاعية. والشيء الوحيد الذي تختلف فيه الشيوعية عن المسيحية هو العنف. فالمسيحيون لا ينزعون الملكية عن طريق الإكراه.

☐ الرأسمالي يراكم ثروته من خلال الاستغلال الطبقي، حسب التعبير الماركسي، ومن خلال أساليب غير أخلاقية حسب تعبير المؤمنين من أمثالك. المشكلة أن الرأسمالي لا يتنازل طوعاً عن ثروته. . .

المسيحية لا ترى أن أمور الحياة أمور مثلى. . . فلابد من قوانين يضعها المجتمع للحيلولة دون الاستغلال والجريمة.

☐ في الختام، يهمني موقفك وزملاؤك من أوضاع شعبنا الذي يعاني من العقوبات الدولية التي يقال إنها ضد دكتاتورية صدام الذي لم يتضرر كثيراً في حين يموت أطفال العراق لنقص الغذاء والدواء. فالإحصائيات تقول إن نسبة وفيات الأطفال زادت بنسبة ٤٠٠٪. قبل غزو الكويت كان صدام حسين يتمتع بدعم الغرب حتى أن البعض يعتبره صنيعة أمريكا. وفي بلادكم من يعتبره معادياً للامبريالية رغم أن أي عميل لم يخدم مثله أهداف الامبريالية، على الأقل موضوعياً.

بالرغم من الدعايات الكاذبة التي تنشر عندنا، فإن بعض الصحفيين الشرفاء، ومنهم نوفزوروف، عملوا كثيراً لتبيان الحقيقة عن الوضع في العراق. وكثيرون يعرفون هذه الحقيقة الآن. (وبالمناسبة ففي روسيا أيضاً تزداد نسبة الوفيات وإن كثيراً من المستشفيات ودور الولادة قد أغلق). لقد قمنا بتجمعات ومظاهرات ضد السفارة الأمريكية في موسكو ولينينغراد لنصرة الشعب العراقي. في بلادنا توجد بعض القوى التي تدعي الوطنية، مثل جيروينوفسكي وليبومودوف، تفضل التعاون مع صدام. في حين المفروض التعاون مع شعب العراق ومثقفيه ومفكريه، الشعب العزيز بالنسبة لنا نحن الروس.

«منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي»

عرض: د. سوران صلاح

كانت مشكلة مدينة كركوك الكردية ولاتزال أحد أهم مواضيع الخلاف بين الكرد والحكومات التي تعاقبت على حكم العراق الحديث. وفي كتابه بالعنوان أعلاه، الذي صدر في العام الماضي، يتعرض الدكتور نوري طالباني إلى هذا الموضوع الشائك، الذي كان السبب المباشر في عدم التوصل إلى حل سلمي وديمقراطي للقضية الكردية في العراق. يعتبر الكتاب بحق من الكتب الجريئة التي أغنت المكتبة الكردية والعربية بمعلومات يكشف عنها لأول مرة. ويعالج بصورة جدية مأساة هذه المدينة الكردية، بهدف البحث عن الحقيقة بعيداً عن سياسة تزييف الحقائق التي لجأت إليها الحكومات العراقية، والتي حاولت، دون جدوى، إضفاء المسحة العروبوية والطابع القومي العربي على هذه المدينة. وقد شهدت هذه المدينة سياسة تعريب منظمة استهدفت تغيير واقعها السكاني والجغرافي وانتهت بتغيير اسمها من مدينة كركوك إلى التأميم. إن التعامي عن مأساة مدينة كركوك، والقبول بالأمر الواقع، من أي طرف ليس بالحل العملي، إنما الحل يكمن في إرجاع الحق إلى أصحابه، في عراق الغد، بهدف إعادة غرس الثقة بين فئات الشعب العراقي بعيداً عن الشوفينية والتعصب القومي. ويعمد مؤلف الكتاب المشهود له بالنزاهة والموضوعية في الكتابة إلى تحميل كل طرف ساهم في إيجاد المشكلة وتعميقها المسؤولية، قدر مساهمته فيها، مبتدئاً بسلطات الاحتلال البريطاني التي بادرت بعد احتلالها المنطقة إبان الحرب الكونية الأولى، ومن ثم اكتشاف النفط فيها،

إلى وضع خطط خبيثة ودنيئة لإجراء تغيير ديموغرافي في المنطقة، مع دأبها على تشجيع التنافر بين الأقوال الساكنة فيها بقصد ضرب بعضهم ببعضهم الآخر ولاستنزاف ثروات هذه المدينة.

يضع المؤلف بخبرته الواسعة وشخصيته الأكاديمية ـــ وهو من الخبراء القانونيين المعدودين في العراق ـــ معلومات تاريخية وجغرافية قيمة من مصادر عرفت بموضوعيتها ونزاهتها، بعيداً عن العواطف والمشاعر التي يحملها عادة معظم الكتاب والمفكرين عند طرح أفكارهم. لقد استند د. طالباني على مصادر معروفة بأمانتها العلمية، عربية أكانت أم تركية، كردية أو غربية فاستطاع جمع حقائق كثيرة تتعلق بالمنطقة التي نشأ فيها، وهو الذي ينتسب إلى أسرة دينية جليلة قدمت خدمات كبيرة لهذه المنطقة والدين الإسلامي الحنيف عبر تاريخها.

يقع الكتاب في ١٢٩ صفحة من القطع المتوسط ويبدأ بتقديم اللورد (ايفبري) له بعبارات تعبر عن معاناة شعب العراق بعربه وكرده وأقلياته القومية، وكيف أن النظام القائم باشر بعد الاستيلاء على السلطة، بتنفيذ عمليات ترحيل قسرية في هذه المنطقة أدت، فيما أدت، إلى تشريد عشرات الألوف من العوائل الكردية، ليعيش أفرادها منفيين ومشردين في مناطق أخرى. ثم يشبّه الحالة السائدة في مدينة كركوك بسياسة التطهير العرقي التي نفذها الصرب في البوسنة والهرسك. يتناول المؤلف في المقدمة معاناته والمصاعب التي لاقاها في سبيل جمع المعلومات الدقيقة عن سياسة النظام العراقي التي استهدفت تغيير الواقع الكردي في منطقة كركوك التي تشمل سهولاً واسعة كانت تضم قرابة ٧٧٩ قرية كردية وبضعُ قرى تركمانية جرى تدمير معظمها أو تم تعريبها من خلال إجبار ساكنيها على تركها وتوطين العشائر العربية فيها، والتي جُلبت من وسط وجنوب العراق، هذا بالإضافة إلى مركز مدينة كركوك والقصبات التابعة لها التي اتُّبعت السياسة ذاتها بشأنها. ونجد في الكتاب العديد من الوثائق التي حصل عليها (البيشمه ركه) الكرد بعد تحرير كردستان على أيديهم لأول مرة عام ١٩٩١. فقد حصل الكرد خلال تحريرهم لمدينة كركوك على آلاف الوثائق والمستندات الهامة التي كانت محفوظة لدى أجهزة النظام القمعية والتي تكشف لنا سياسة الإبادة والدمار التي مارسها النظام ضد هذه المدينة.

بدأ المؤلف دراسته القيمة بإيراد فكرة موجزة عن جغرافية المنطقة وما شهدته من تغييرات عبر التاريخ وإعطاء فكرة عن الحال السائدة فيها لإجراء مقارنة بين ما كان عليه

الوضع سابقاً (أساساً)، وما آلت إليه الأمور بعد الممارسات اللاإنسانية التي اتبعتها الأنظمة التي تعاقبت على حكم المنطقة. ويشير المؤلف بوجه خاص إلى ما ورد في الموسوعة العثمانية «قاموس الأعلام» التي نشرت في الآستانة من قبل المؤرخ والرحالة العثماني شمس الدين سامي عام ١٨٩٦، التي اعتبرت ولاية الموصل العثمانية جزءاً من كردستان. ثم يتطرق بصورة موجزة إلى تاريخ المنطقة وتعرضها منذ أقدم العصور إلى هجمات الامبراطوريات التي حكمت المنطقة، ابتداءً بالكوتيين والآشوريين والساسانيين والمسلمين العرب ومن ثم الصفويين والعثمانيين.

وبصدد تسمية المنطقة، يذكر المؤلف أنها كانت تعرف في العهد الساساني باسم (گه رمه كان)، وهي التسمية التي لاتزال باقية حتى الآن مع تحوير بسيط إلى (گه رميان). وهناك آراء عديدة ومختلفة بشأن تسمية (كركوك) ذاتها، أشار المؤلف إليها بإسهاب. ثم يأتي المؤلف إلى تنازع الامبراطوريتين الصفوية الشيعية والعثمانية السنية للاستحواذ على المنطقة بأسرها، وكيف أن الكرد كانوا ضحية تلك الحروب التي دامت قروناً عديدة. ثم يشير إلى موضوع آخر مهم وهو أسباب وكيفية توطين التركمان، الشيعة منهم والسنة، على طول خط المواصلات بين الأناضول وإيران، وكان يمر عبر منطقة كركوك. ويذكر أن عدداً من شاهات وسلاطين الامبراطوريتين وضعوا حاميات عسكرية في المدن والقصبات الواقعة على طول ذلك الخط التجاري والستراتيجي الهام، بهدف الدفاع عنه والمحافظة على طريق المواصلات المذكور. ثم يضيف أن تلك القلاع العسكرية كانت تستخدم كقواعد لتحركات جيوش الدولتين ضد أعدائها كما اتخذت من تلك المواقع أيضاً مراكز لجباية الرسوم الجمركية من القوافل التجارية المارة فيها. كما يورد المؤلف آراء العديد من المؤرخين الذين يؤكدون أن السادة الحقيقيين لهذه المنطقة كانوا الرؤساء الكرد، وأن العثمانيين لم يستطيعوا السيطرة عليها إلا بمساعدة (باشاوات) (شه هره زور)، مستغلين المشاعر الدينية القوية لدى الكرد، لكونهم من السنة كالعثمانيين أنفسهم. فحاولوا استمالتهم بقصد إثارتهم ضد الصفويين الشيعة. لذلك أقر العثمانيون في البداية بسلطات الأمراء الكرد على مناطقهم وإماراتهم، من بينها منطقة كركوك التي كانت تابعة لإمارة (سوران).

يتناول الكتاب معلومات جديدة عن التركمان المتوطنين في المنطقة، فيبين أن قسماً منهم ينتمي للمذهب السني، بينما ينتمي القسم الآخر لمذهب (قزلباش). ويبين لنا اختلافهما من حيث العادات والتقاليد واختلاف اللهجات التي يتكلمون بها. ويشير أيضاً

إلى عدد التركمان في العراق بوجه عام، ويذكر أن التقديرات المعلنة عنهم حتى أواسط الاربعينيات كانت تصل إلى ٢,١٪ من مجموع نفوس العراق، ثم ازدادت نسبتهم قليلاً في الإحصاء العام لعام ١٩٥٧، لتصل إلى ٢,١٦٪، ويعتبر المؤلف هذا الإحصاء أقرب الإحصاءات إلى الواقع، ويمكن الاعتماد عليه في تحديد الواقع السكاني في المنطقة (وينشر في الملحق صورة عن الجدول الخاص بتصنيف السكان من حيث الجنس واللغة واللغة الأم في لواء كركوك بموجب إحصاء عام ١٩٥٧).

ويكرس المؤلف القسم الأخر من كتابه لمحاولات تعريب منطقة كركوك من قبل الأنظمة العراقية المتعاقبة منذ إلحاق ولاية الموصل بالمملكة العراقية في كانون الأول ١٩٢٥. ولأجل توضيح أبعاد هذه الحملة، يصنف المؤلف مراحل تعريب المنطقة إلى:

ـــ فترة الحكم الملكي.

ـــ فترة الحكم الجمهوري الأولى (١٩٥٨ ـــ ١٩٦٨).

ـــ فترة الحكم الجمهوري الثانية (١٩٦٨ ـــ وحتى الآن).

فيما يتعلق بالفترة الأولى، يشير المؤلف إلى أول زيارة للملك فيصل الأول لمنطقة كركوك في كانون الأول ١٩٢٤، بهدف حث أبنائها على المطالبة بالانضمام للمملكة المستحدثة. وخلال زيارته رفعت الإدارة البريطانية العلم العراقي لأول مرة على مباني الدوائر الرسمية في اللواء. ثم يتطرق إلى دور شركة النفط البريطانية في تغيير الحالة القومية في مدينة كركوك، لأنها عمدت إلى جلب آلوف العوائل من خارج المنطقة الكردية لتشغيلهم في منشآت الشركة. وقد ترتب على ذلك إنشاء عدة أحياء خاصة بالآشوريين والأرمن والعرب، لم تكن موجودة سابقاً. أما الإجراء الآخر في العهد الملكي لغرض توطين العرب في المنطقة، فكان إنشاء مشروع ري الحويجة الذي خططت له وزارة ياسين الهاشمي في أواسط الثلاثينات، وانتهى المشروع بعد عشر سنوات تقريباً، وترتب عليه توطين أبناء عشائر (العُبيد) و(الجبور) و(البوحمدان) (وكانوا من البدو) في سهول الحويجة. وقد ساهم أبناء هذه العشائر مساهمة فعلية في تكريس سياسة التعريب بعد تجنيدهم من قبل حكومة الإنقلاب عام ١٩٦٣ في الهجمات المسلحة التي شنها الجيش على القرى الكردية العزلاء منذ أواسط عام ١٩٦٣ وما بعده.

فيما يتعلق بفترة الحكم بين ١٩٥٨ ـــ ١٩٦٨ يشير المؤلف ابتداءً إلى تعيين عدد من الضباط القوميين في قيادة الفرقة الثانية في كركوك وكانوا يعادون الكرد وينكرون أبسط حقوقهم الثقافية، ناهيك عن حقوقهم القومية.

ويعتبر المؤلف الفترة التي هيمن فيها اليسار العراقي على المؤسسات في عهد عبد الكريم قاسم بفترة غلب فيها الطابع الكردي على مدينة كركوك وشعر خلالها الكرد بشيء من الأمان لأن السلطة كانت تعمل على تلبية بعض حقوقهم الثقافية وغيرها ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً حيث اندلعت أحداث دموية مؤسفة خلال الاحتفال بالذكرى الأولى للثورة في تموز ١٩٥٩، ويحدد أسباب تلك الأحداث الأليمة والأوساط التي ساهمت في إشعالها. ثم يذكر المؤلف أن انقلاب شباط عام ١٩٦٣ البداية الفعلية لسياسة تعريب شوفينية منظمة لجأ إليها قادة الإنقلاب، كتدمير (١٣) قرية كردية متاخمة لمدينة كركوك، وترحيل الفلاحين الكرد في (٣١) قرية كردية أخرى في ناحية (دوبز المعربة إلى دبس)، بالإضافة إلى استقدام العرب لاستخدامهم في شركة النفط أو تعيينهم كشرطة محليين، وتبديل أسماء المدارس والشوارع في كركوك وإجبار المحلات التجارية على اتخاذ أسماء عربية، بالإضافة إلى نقل أعداد كبيرة من الموظفين والعمال الكرد العاملين في شركة النفط إلى مناطق أخرى في العراق.

أما الفترة التي أعقبت انقلاب عام ١٩٦٨، فقد اتبعت السلطة فيها سياسة أكثر شمولية ووضوحاً في محو المعالم الكردية لمدينة كركوك وفق خطة مدروسة ومنهج ثابت للدولة. والهدف تعريب المدينة وباقي المحافظة، عن طريق ترحيل الكرد عنها وتوطين عشرات الألوف من العوائل العربية من وسط وجنوب العراق وإسكانهم في بيوت ومزارع الكرد. وقد عمد النظام إلى تجريد الكرد من حق بيع عقاراتهم ودورهم داخل كركوك لغير العرب. كذلك منعهم من شراء العقارات والدور، وامتنعت دائرة البلدية عن إعطاء إجازة البناء وترميم البناء للكرد لإجبارهم على بيعها وتركها. وقد حول النظام المدينة وضواحيها إلى ثكنة عسكرية كبيرة، بإنشاء التحصينات العسكرية داخل المدينة والطرق الخارجية المؤدية إليها. وعمد إلى بناء عدة أحياء سكنية لألوف العوائل العربية التي أسكنها في المدينة لتغيير واقعها القومي، وأطلق عليها أسماء عربية مثل الاشتراكية والعروبة وقتيبة والحجاج والشرطة وغيرها... كما عمد النظام إلى تغيير اسم محافظة كركوك إلى (التأميم)، كما قام بفك أربعة من مجموع سبعة أقضية كانت تابعة لمحافظة كركوك، وربطها بمحافظات أخرى، وذلك لجعل الكرد أقلية سكانية في المحافظة.

ويعدد لنا المؤلف بعدئذ عدد القرى المدمرة في جميع النواحي والأقضية العائدة للمحافظة، بما فيها المساجد والمدارس والمراكز الصحية القليلة فيها. وقد بلغ عدد القرى الكردية المدمرة في المحافظة (٧٧٩) قرية بما فيها عدد من مراكز النواحي الإدارية التي

كانت تضم (٢٤٥) مسجداً و(٢٧٥) مدرسة و(٢٧١) مركزاً صحياً. وقد بلغ عدد العوائل الكردية المرحّلة (٢١٩٨٢٨) عائلة في سياسة لازالت تتبع حتى الساعة.

ويشير المؤلف بصراحته المعهودة إلى أن «حل المسألة الكردية في العراق يبقى مبتوراً وناقصاً ومهدداً بالانفجار في كل حين، إن لم يصاحبه قرار صريح يقضي بعودة جميع الكرد والتركمان المرحلين من قبل النظام العراقي إلى مدينة كركوك وإلى قرى وقصبات المحافظة»، إذ أن «كل ما بني على باطل فهو باطل»، وأن أولى مهام أي نظام وطني بديل هي إرجاع الحق لأصحابه وإبطال كل المحاولات التي استهدفت تغيير الواقع القومي لكل المناطق داخل حدود العراق. وبذلك يمكن بناء عراق قوي وإعادة الاعتبار لهذا البلد الغني بتاريخه وبعقول أبنائه وثرواته الطبيعية.

إن الكتاب وبكل ما يتضمنه من حقائق ثابتة، يدعو كل المعنيين بشؤون العراق وجميع المثقفين العرب والمسلمين كافة إلى الاطلاع على مأساة هذا الشعب المسلم المغلوب على أمره، وتصحيح كل الأفكار الخاطئة التي روجتها الأنظمة العراقية الفاسدة عبر إعلامها المغرض، وإدانة سياسة التعريب التي مارسها ولايزال يمارسها النظام في منطقة كركوك، هذه السياسة التي تتنافى مع جميع القيم والأعراف الإنسانية ومع كل ما جاء في الدين الإسلامي الحنيف بل وحتى مع كل معالم الحضارة.

كتابٌ قيم وجدير بالقراءة، هذا الذي كتبه الدكتور نوري طالباني، للاطلاع عن كثب على مأساة هذه المدينة الكردية الغنية والعريقة التي سرقت في غفلة من التاريخ من أصحابها الأصليين وسط صمت هذا العالم، لتبقى نارها الأزلية شاهدة وحيدة على الظلم والجور الذي لحق بها.

لندن ١٩٩٦/١/١١

أدب وفن

«الفرق الوحيد بيني وبين المجنون هو أنني لست مجنوناً»

د. محمد صادق رحيم

مات سلفادور دالي وعمره لا يتجاوز السنتين. جاء في شهادة وفاته أنه مات بأحد الأمراض التي تصيب الرُضع. ولكن شائعات دارت بين الناس مفادها أنه مات بضربة من أبيه على رأسه. ثم قرر الأبوان إنجاب طفل آخر فولد لهما ذكر قرر الأب تسميته سلفادور أيضاً.

هكذا وُلد سلفادور دالي في ١٩٠٤ بديلاً لأخيه الأكبر الميت وعاش طوال حياته بديلاً. كانت طفولته غاصة بالتوتر والاحتجاج، فكان عمره خمس سنوات عندما رمى بنفسه من أعلى السلم ليلفت انتباه وعطف والده نحوه.

هذا الولد الصغير الذي ترعرع في مدينة (فيغيراس) نشأ مؤمناً بثقافة قومية كاتالونية متزمتة. لكن والده كان جمهورياً معادياً للبرجوازية. وخلافاً لكل السرياليين الآخرين نشأ دالي مؤيداً للفاشية متمثلة بالجنرال فرانكو في إسبانيا، ففي عام ١٩٧٥ مثلاً، بعث ببرقية لفرانكو يهنئه بإعدام خمسة من الثوار الانفصاليين (الباسك).

ترعرع سلفادور في جو عائلي غريب ومتطرف، فكان أبوه يعتبره دائماً بديلاً لأخيه البكر الذي مات قبل ولادته بتسعة أشهر وأربعة أيام. وفي غرفة نوم الأبوين علقت صورتان فوتوغرافيتان كبيرتان فوق السرير إحداهما صورة سلفادور البكر، والأخرى لوحة للمسيح مصلوباً للرسام الإسباني (فلازكويس).

كان والده غير متدين، لكن أمه كانت متدينة، وقد كانت قلقة من تسميته باسم أخيه

الميت. وماتت بالسرطان وعمرها ٤٥ عاماً بعد آلام مبرحة. وخلال مرضها كان للزوج علاقة جنسية مع أختها.

إلى حين سفره إلى باريس في ١٩٢٨ كان يمارس حياة غريبة قاهرة فيها أحزان وتعقيدات وممارسات غير اعتيادية تجلت في رسومه لاحقاً. وكان طموحاً فقد قال مرة: «عندما كان عمري ست سنوات كنت أحلم بأن أصبح طباخاً، وعندما أصبح عمري سبع سنوات كنت أحلم أن أصبح نابوليوناً، ومازالت أحلامي تلك في تصاعد متواصل».

في باريس، اعتقد الرسامون الذين عرفوه أنه مجنون، برغم كونهم متعمقين في علم النفس ودراسة أوضاع مجتمعهم، فتصرفاته كانت غير اعتيادية. كان لا يستطيع، مثلاً، شراء حذاء لنفسه لأنه لم يستطع أن يخلع حذاءه وجوربيه، لخوفه من أن يرى شخص قدمه عارية... وهكذا لم يستطع أحد رؤية قدم دالي عارية، كان لا يستقل المترو، ويخاف جداً من السفر بالباخرة أو الزورق، ويخاف ويتقزز من الجراد، يمشي في نفس الطريق كل يوم ويأكل نفس الأكل ويجلس في نفس المكان... الخ. وكان يحتفظ بقطعة خشب جاء بها من شاطئ البحر في مدينتة مثابة رقية لطرد الأرواح الشريرة. عندما تقدم إلى كلية الفنون في مدريد كان يرسم الأشياء مصغرة دون إرادته. وأثناء دراسة الفن في مدريد، جرت انتخابات إدارية لتعيين أو ترفيع مدرس جديد إلى درجة (بروفيسور) وكان دالي حاضراً فخرج من القاعة دون أن يشارك في الانتخاب، وتبعه بعض أصدقائه مما أدى إلى طرده من الكلية لمدة سنة.

وعندما عاد بعد مرور السنة ليؤدي امتحاناً في الاختصاص قال لأستاذه: «أنت غير مؤهل لامتحاني» مما أدى إلى فصله من الكلية نهائياً. لقد امتاز بتصرفات كهذه غالباً.

عندما زار باريس أول مرة ذهب لزيارة بيكاسو وقال له: جئت لزيارتك قبل زيارة اللوفر. فرد بيكاسو: وصحيح جداً ما صنعت.

كان بيكاسو وخوان ميرو أكبر سناً من دالي وكلاهما من الأندلس (كاتالونيا) وعندما قرر البقاء في باريس ساعده ميرو على الاستقرار والاعتماد على نفسه، وعرفه على تجار الفن، فأخذه بعضهم مأخذ الجد. لم يكن حينها رساماً سريالياً بعد. كان يرسم، بطريقة تبدو بليدة أحياناً، مناظر طبيعية من إسبانيا مرسومة بأساليب أكاديمية أو تأثرية أو تكعيبية... وغير ذلك. ثم اطلع على أعمال بيكاسو وكذلك على أعمال ميرو فأعجب بأسلوب وتكنيك ميرو الذي لم يكن سريالياً، لكن السرياليين احتضنوه شاء هو أم أبى.

كانت عملية الرسم أو النحت بالنسبة للسرياليين علاقة طويلة مملة، غالباً ما تؤدي

إلى فقد مقدرة الفنان على إخصاب اللوحة ـ كل ذلك التدريب الذي حصل عليه الفنان والمعرفة المخزونة في ذهنه والتكنيك المتعدد الذي يستطيع تسخيره في تنفيذ العمل الفني، إن هي إلا معرقل لمقدرته على الإخصاب الفني بتلقائية. ولهذا فقد استعمل السرياليون أساليب الكولاج (لصق الورق والجرائد ومواد أخرى)، والفروتاج (وضع الأصباغ على جذع شجرة أو قماش أو قطعة خشب ثم طبعها على ورقة واحدة تصبح هي اللوحة)، وسكب اللون السائل. . . وغيره.

لوحة خوان ميرو بعنوان «رسم» Painting ١٩٢٧ مستوحات من جزء من مسرحية شعرية لأبولينير (Les Mamelles de Tirésias) ١٩١٧ حيث استعملت كلمة السريالية لأول مرة. ترجمنا جزءاً منها عن كاتالوك التيت غاليري: في بداية المسرحية تعلن الزوجة تيريز تقاعدها عن كونها امرأة. إنها لا تريد أن تلد أطفالاً، إنها تريد أن تصبح جندياً، طبيباً، وزيراً في الحكومة، فيلسوفاً، صيدلياً كيماوياً، وما إلى ذلك. ثم قالت إنها بدأت ممارسة عملية تغيّر فيزياوية: «لحيتي تنمو، ثدياي يبارحان صدري»، ثم تطلق صيحة عالية، ونصف قميصها يُخرج ثديها المليء، طائراً في صورة بالون أطفال. . .

هذا ما تعرف عليه سلفادور دالي وأعجب به، لكنه بقي يعاني من سؤال يواجه كثيراً من الفنانين وهو: كيف تستطيع تنظيم لوحتك التي ترسم؟ كيف تستطيع جمع الأشياء مع بعضها في لوحتك، إذا كنت لا ترسم شيئاً موجوداً أو شخصاً ما ماثلاً أمامك؟ قال جاكومتي: «إن لوحات ميرو متوازنة بشكل جميل إلى درجة أنك إذا وضعت اصبعك على أي من أجزائها فستنهار اللوحة كلها». في هذا الكلام مبالغة طبعاً، لكنه هو ما أراده دالي وناضل لاقتباسه وتحقيقه. والجدير بالذكر أيضاً أن دالي كان معجباً بفناني القرن السابع عشر الهولنديين وخاصة ڤيمير. وتأثيرهم واضح على أسلوبه وتكنيكه.

في لوحته «بحيرة الجبال» في عام ١٩٣٨ نجده يحاول الجمع بين المنظر الطبيعي وأشياء قريبة من الناظر إليه في عمل واحد، وهو تقليد استعمله التأثريون عند رسم منظر طبيعي من خلال نافذة أو باب، فرسموا [illegible] موجودة في الغرفة أو على الشرفة ترى عبرها أو من خلالها منظراً طبيعياً مرسوماً في البعد. هنا نجد دالي يرسم سماعة تلفون مرفوعة بعصا وإلى اليمين عصا أخرى تحمل حبل التلفون المقطوع من الناحية الأخرى. فالتلفون والحبل المقطوع والعصاتان هي المقدمة التي نرى من خلالها المنظر. (يعتقد البعض أن استعمال التلفون عند دالي مستوحى من الاتصالات التلفونية بين جمبرلين وهتلر قبل معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا وبريطانيا في ١٩٣٨).

بلدته فيغيراس صغيرة لا تبعد كثيراً عن المتوسط، محصورة بين البحر والجبل، بين الماء والصخر. كان والده يأخذ أمه في نزهة تسلق الجبال المحيطة لينسيها حزنها على ابنها البكر، فوجدا مرة بحيرة صغيرة أشبه بحوض ماء كان منظرها مواسياً لأمه، وهذا ما يرسمه هنا سلفادور، ثم أصبحت تلك البحيرة مزاراً له ولأهل منطقته. إلا أن بعض المعالم المرسومة في هذه اللوحة هي من الساحل الذي كانت عائلته تقضي الصيف فيه وهو ساحل (كاريكاس). هذه اللوحة إذن تحمل ذكريات من طفولته.

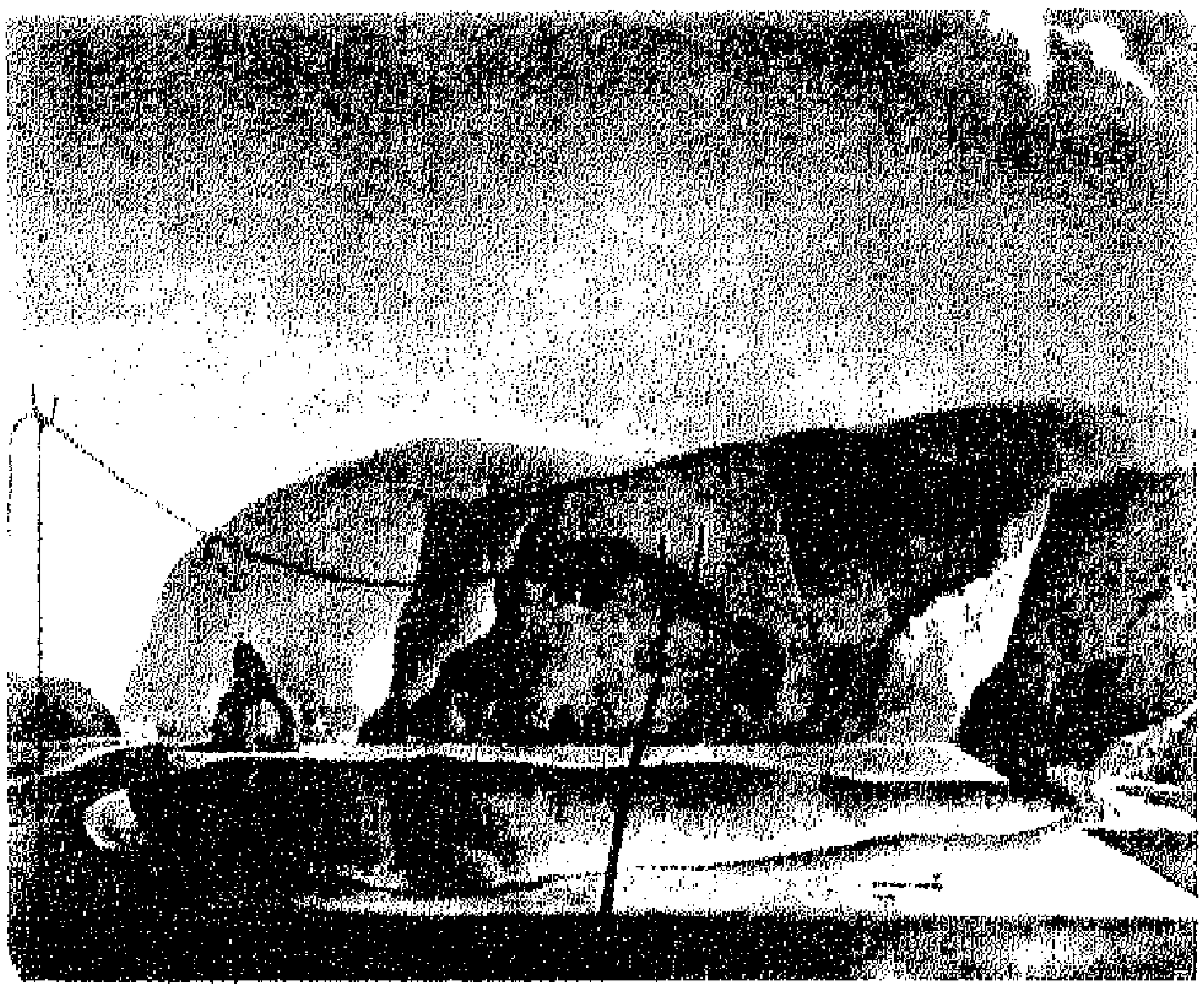

بحيرة الجبال

الإنارة غريبة في خلفية اللوحة. فهناك ضوء بارق على اليسار بين الصخور لا تدري مصدره. وفي الجهة اليمنى ماء يتسلق الجبل وينم عن نوع من الاحتجاج. هذا العمل هو لوحة غير أكاديمية، مليئة بالمتناقضات. حوض الماء (البحيرة) هو في الوقت نفسه سمكة موضوعة على سطح مستو محدد. وهي قد ترمز لتقديم الموت أو إيصال خبر الموت. لا أريد أن أكون جازماً في تحديد ما عنته السمكة في هذه اللوحة لأن رأس السمكة إلى اليمين هو رأس عضو الرجل أيضاً. إن أشكال الأشياء في لوحات دالي كانت تحمل معاني تصل إلى أربعة أحياناً. وهذه هي الحالة نفسها مع ابن جلدته الكاتالوني بيكاسو.

في أعلى رأس السمكة الذي هو عضو الرجل نجد شكلاً صخرياً غريباً يقف متفرداً على الأرض، إذا أمعنا النظر إليه نجد شكل أم وطفل بداخله، إن هذا بلا شك يعني أم دالي ويرمز لعلاقته بها. في خلفية هذه الأم نرى زورقاً أو سفينة شراعية هي بقايا سفينة أو

عمودها الفقري فقط. أما الإطار فقد عُمل بطريقة تبدو فيها اللوحة وكأنها من أعمال بعض الرسامين الكلاسيكيين.

قبل تناول اللوحة الأخرى «تحوّل نارسيسوس» في عام ١٩٣٧ أجد من المناسب ذكر الأسطورة اليونانية التي اعتمدها دالي في هذا العمل. كان (نارسيسوس) شاباً جميلاً جداً، عمره ستة عشر عاماً. وكانت النساء يهمن به، يتبعنه في كل مكان دون أن يلقين اهتماماً منه، وبعد أن تشكى الناس والنساء منه، قرر الإله يوماً أن يوقعه في حب نفسه ـــ أي النرجسية، فجره إلى قصر فيه حوض ماء، وجعله يتطلع إلى صورته في الماء، فلم يستطع أن يدير عينيه عنها. وكان يغضبه جداً أنه كلما أراد أن يحتوي صورته كانت تختفي عنه وما كان قادراً على الابتعاد عن الماء. وهكذا بقي حتى موته، ولما جاءت أخواته لجمع رفاته وجدن وردة النرجس، نامية في مكانه.

إن من الأمور الأولية التي يتعلمها طلاب الفن هو كيف يوضع الشيء أو المشخص الرئيسي في لوحتهم في محل متوسط مناسب، وكيف يسلط الضوء عليه والظل خلفه للتحكم في مسار تحرك العين الناظرة إلى اللوحة. لكن في هذه اللوحة نرى مشخصين متشابهين إلى درجة تثير الإزعاج عندنا أحياناً، الضوء والاهتمام موزعان على الشكلين بطريقة لا ندري إلى أي منهما ننظر وأي منهما أهم من الآخر. وإذا ما تذكرنا هنا مشكلة طفولته وجلّ حياته، وهي أنه وُلد بديلاً لأخيه الميت، فقد يسهل علينا استيعاب هذين الشكلين معاً.

تحول نارسيسوس

في الخلفية نجد مجموعة من نساء أندلسيات وألمانيات وأمريكيات وإنكليزيات، وهن على أغلب الظن، الفاشلات في محاولاتهن مع نارسيسوس، وفي الخلفية نجد أيضاً تمثالاً كلاسيكياً قال عنه دالي إنك إذا تبحرت في نظرك إليه قليلاً فإنه سيختفي من الخلفية التي هي منظر من ماريكاس، (لا أعرف مدى صحة هذا لأنه لم يتحقق معي). النظر إلى سماء اللوحة متعب، فهي سماء مغضنة بالغيوم الداكنة مليئة بالمتاعب، وعلى الأرض بقايا أجزاء من جسم حي يجتره كلب. نرى نارسيسوس يتطلع إلى خياله، ولكن الأشياء تبدو قد تغيرت، فرأسه قد تحول ــ كما قال دالي ــ إلى حبة قمح أو بيضة أو لوزة، سينمو الرأس ليكون وردة النرجس، اليد التي هي نصب منحوت تمسك بيضة أو كرة تمنح الحياة الجديدة. فمنها تنمو الزهرة وهي رأسه في الجهة الأخرى شبيه الجوزة.

كان دالي معجباً بفرويد الذي أعطى السرياليين حرية كبرى بتعريفهم على العلاقة بين الصدفة واللاوعي. لقد حاول دالي الاتصال بفرويد عدة مراة، وفي ١٩٣٨ عندما كان فرويد في لندن، اتصل دالي بادوارد جيمس والكاتب ستيفون فاين وأقنعهما باصطحابه وتقديمه لفرويد، فجاء ذلك اليوم وحمل سلفادور دالي هذه اللوحة معه ليريها لفرويد.

أعلن فرويد بحضور دالي وبصراحة بأنه اعتقد دائماً أن ٩٠٪ من مكونات النبيذ هي نفايات، إلا أن قيمة السرياليين لا تزيد عن كونها مئة بالمئة زبالة، ولكن عندما شرح دالي مكونات هذه اللوحة له، أقر فرويد بأنها ترث شيئاً.

أما عمله «التلفون السرطان»، فهو عمل جميل وفكرة ذكية تلخص وتجمع أكثر الخوف من التلفون والهوس به، صنع دالي ثلاثة نماذج مثل هذا تختلف عن بعضها بعض قليلاً. في هذا العمل تغيير لمعنى التلفون عند الناس وتأثيره على اللاشعور في أعماقهم. إنه يحول التلفون من جهاز بيتي وديع إلى قطعة عمل متحفي مسترجلة ينظر إليها الناس بشغف وفضول ولها وقع غير طبيعي أو متزن أو رائق، تحس أحياناً برغبة في سماع جرس التلفون يرن، وكذلك تشعر بأن السرطان حي سيتحرك بعد قليل. هناك أكثر من إشارة إلى الجنس في هذا العمل وفي أكثر أعمال دالي الأخرى، لأن حياته الجنسية كانت مثيرة، فقد تزوج (غاله) التي طلقها الشاعر ايلوار الذي كان يحب أن يجمع أكثر من شخص في فراشه يمارسون الجنس معاً. وقد قالت إنه كان يفضل إجراء حفلات الاستقبال في فراشهما. وليس غريباً أن نجد أعضاء السرطان التناسلية موضوعة على فتحة الفم بالذات. وإن بعض أجزاء السرطان مشابهة لما في طيات عضو المرأة التناسلي.

سنة ١٩٣٦ أقيم معرض لندن السريالي، فارتدى دالي بدلة غطاس البحر في افتتاح المعرض. ولكن خللاً ما حدث في مفاتيح البدلة فلم يستطع الخروج منها بعد نفاد الأوكسجين. وأنقذه رجال الإطفاء من الاختناق بتقطيعهم حديد البدلة لإخراجه منها.

قال دالي ذات مرة: «الفرق الوحيد بيني وبين المجنون هو أنني لست مجنوناً». لقد كان محقاً في ذلك، لأنه حوّل تلك الأفكار الغريبة الشاذة التي راودته إلى أعمال فنية من لوحات ونحوت. ليس من السهل تقديم تقييم ملخص عن سلفادور دالي وأعماله، ولكن الاطلاع على الأسباب التي حملت أندريه بريتون (منظّر السريالية) لطرده من المجموعة السريالية قد تساعد في أخذ فكرة أكثر دقة عنه.

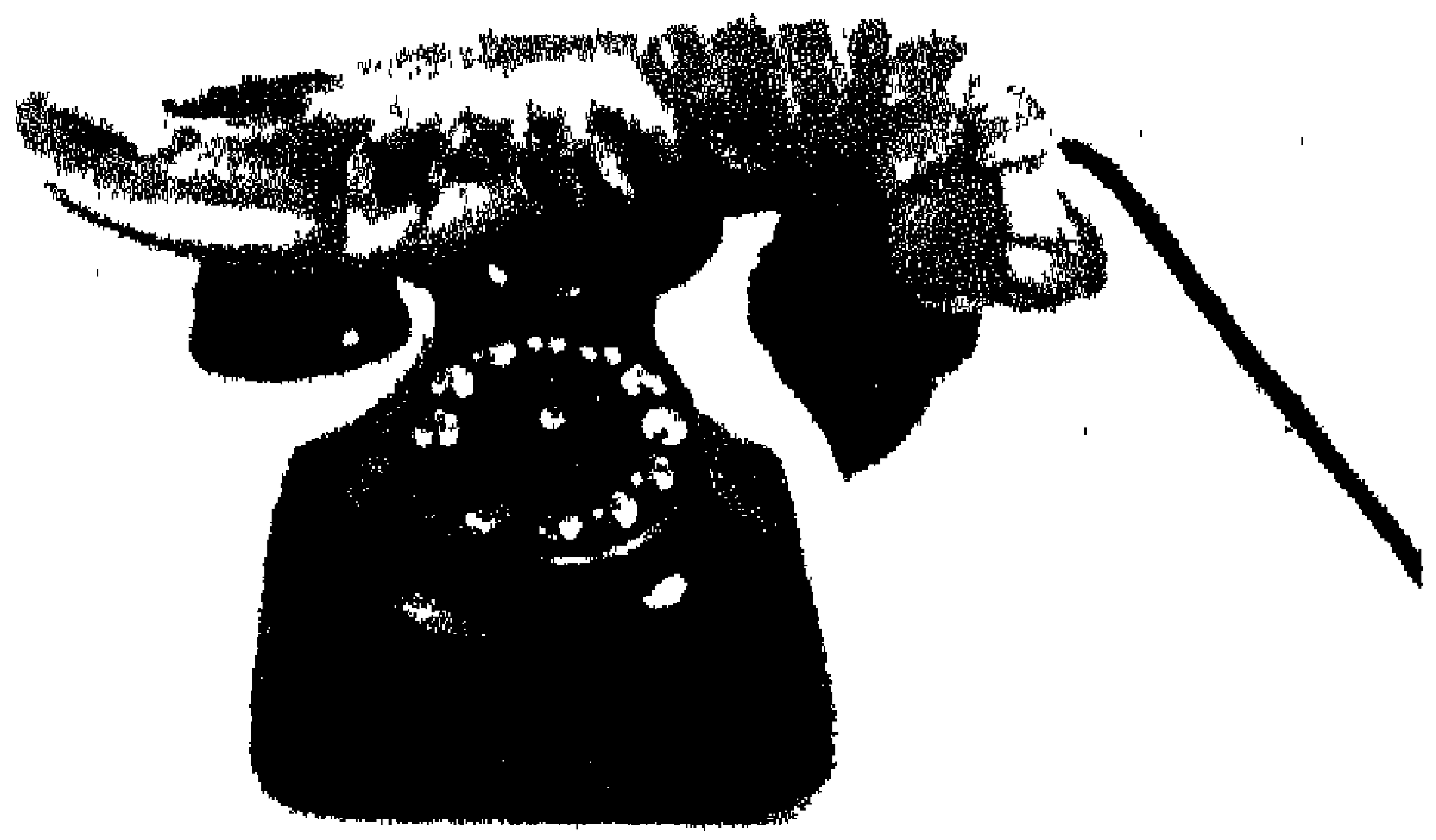

التلفون السرطان

القصة العراقية

حوار مع القاص محي الأشيقر

«ما أفعله محاولة لإحياء مدينة شخصية»

حاوره: جنان جاسم حلاّوي

إلى رومانسية شفافة، تنحو عوالم الأشيقر بلغة صوفية، عذبة طيّعة تارة، ومتوترة متألمة تارة أخرى، فهو يرمّز من بلده العراق، وبلدته كربلاء صوراً معشّقة بالألم والخوف والعذاب، وحالات مكتظة بالأسرار والوحدة والحيرات، وليس هذا وحده خصيصة كتابه الوحيد «أصوات محذوفة»، إنما للمنفى مساحات أكبر من مدن (الشام، بيروت، مالمو) وأصغر من وجع المنفى ذاته، الداق أبداً أجراس الذاكرة الكربلائية، على وقع حوافر حصان الإمام، الذي لم ييأس، قدر يأس أحفاده العراقيين في عصرهم المظلم الجديد: في أقدارهم المرّة، ونهاياتهم الفاجعة، وأحلامهم المجهضة، وتشتتهم المروّع، حتى أصغر جزيرة في أمداء المحيطات. وللمرأة دائماً في نصوص الأشيقر حضرة القديسة المربكة في ازدحام الحالات والأزمان: المرأة المظلومة التي لا تجد حامياً ولائذاً ومنتبذاً لها إلا في مشاهد الأئمة والأولياء، إلا في نفسها المشبوبة بالأحلام والمترعة بالخفايا المعطرة بالحنان، والالفة التي تفتقدها غالباً في عالم يغص بالموت والقتل والدماء والجنون والحروب والمنافي. الأشيقر مثله مثل كل العراقيين المنفيين يحمل صليبه على ظهره ويمشي إلى أين؟ لا أحد يدري! فطريق الجلجلة طويل.

□ تقول في قصة «مقتبل النسيان»: الكتابة قناع يلبسه الخائف، ليعبر من خلاله نوم الآخرين، هلاّ استرسلت لتوضّح للقارئ أكثر معنى الكتابة عندك؟

إن ما يرد في سياق أي عمل سواء على مستوى السرد أو الحوار أو تداعي شخصية ما، إنما هو نتاج لفضاء النص وعالم الشخصية والحالة المتناولة. وتالياً إن تحولات العمل ونبضه وإشاراته، هي مكونات ووحدات لها نسيجها الخاص، وتنطوي بدورها على ما هو مستقل في وعي الشخصية وزمانها ومكانها وحواراتها الموجودة في النص. وهذا يعني ـــ كما أعتقد ـــ أن ليس كل ما يرد في ثنايا العمل يعبّر حرفياً، وبالمعنى الشخصي، عن مجموع مفاهيم كاتب أو منتج النص. أما عن معنى الكتابة عندي، فأقول ببساطة شديدة: إن الكتابة بالنسبة لي عارض فقدان وخسارة؛ وربما من هنا تأتي حاجة البعض، عندما تمّحي وتتشوه ملامح الأشياء والأحوال، أو عندما تقع في تخوم وأطوال التفسخ والانحطاط والرخويات ـــ وتلك أنواع من الربح والحضور ـــ إلى الرغبة بالانقذاف إلى نار الآلام والمباهج وهم يطلقون ذلك الدعاء العالي والدّال: «اللهم ضعني في التجربة».

□ ذاكرتك مفتوحة على عوالم صوفية، ومسيل صور يتلاطم شعراً ألا تعتقد أن بعضاً من أقاصيصك يقترب من الخاطرة، ويبتعد خطوات عن تقنيات القصة القصيرة؟

ما يحدث لنا في هذا العصر لهو أوسع بكثير من الخيال و«قوانين» الخيال، وبالضد من العناصر الأولى للبقاء والحلم. وعطفاً على بعض من ذلك، لا أظن أن بمقدور أي عمل إبداعي ينشد البقاء ـــ للحظة متعة أو معرفة ـــ وهو منشغل بتوفر كامل عناصر هذا النوع الأدبي أو ذاك. إن تزحزحاً مخيفاً طرأ على كل شيء. ولايزال. والخاطرة ـــ لغة وتأويلاً ـــ تعني: ما يخطر بالقلب من أمر، أو ما يلوح في الفكر وعلى البال، أو ما يجري ذكره بعد نسيان، أو الهاجس، وقد تطلق على القلب والنفس مجازاً. وتلك المعاني، كما أحسب، من ألوان طيف أية لحظة إبداع وانخطاف.

□ شدة استيلاء النوستالجيا عليك واضحة في نصوصك حول (مدينتك كربلاء، البيت القديم، الحارة القديمة، الأماكن المقدسة حيث عشت) وهو تكرار بات ملحاً في أغلب كتابات المنفيين العراقيين، ما تفسير هذه الظاهرة لديك؟ وألا يمكن الكتابة في المنفى خارج سيطرة النوستالجيا؟

الحنين، والشوق، والرغبة بالعَود: هي مترادفات ماء التجربة الإنسانية ومراياها. وهي لدى العراقي ـــ بعيداً عن عنعنات الخصوصية ـــ ثابت من ثوابت بنيته الروحية حتى أعوام خلت. والأسباب في ذلك كثيرة ولا مجال للاستفاضة بشأنها هنا. إن تواريخ

الإكراه والتعقب والهدر والفقدان هي علامات وطعنات مرئية على فؤاد العراقي وعقله وجسده. وما فقده هذا المخلوق ــ إن في داخل البلاد أو خارجها ــ ليس هو المكان ولا الذكريات ولا الأهل. . . إنما هو أكثر من ذلك. العراقيون، قبل أن يوهبوا للمنافي والعزلات، كانوا يرثون زمانهم، ومكانهم، وأحبتهم. . . ويسالون جنانهم المستحيلة ويختلفون لذاكرتهم أبداً. الجيل الذي أنا منه ــ مع شديد امتعاضي من كلمة جيل هذه ــ لم «يربح» خسائره بل خسائر من تلوه. إن المجموعة البشرية التي ولدت معها عام ١٩٥٢ لم يبق منها على قيد الحياة إلا بقية مخلوقات. نحن بقية نوع شبه مباد. لقد خصّت السلطة العراقية مواليد ١٩٥٢ في منتصف أعوام الحرب العراقية/ الإيرانية بقرار يقضي بإعفاء من تبقوا على قيد الحياة. . . من الاستمرار في الخدمة العسكرية، لأنهم شارفوا على الانقراض، بسبب من المرات الكثيرة التي سيقوا فيها إلى خطوط القتال.

□ الأحداث تضيع في خضم اللغة، وتهويمات سردية، مجنحة الكلمات، كثيفة، وغامضة حتى، وكأن اللغة هي التي تحيا في قصصك، بل كنت حوّلت شخوصك عالماً من كلمات، ملغزاً، وسرياً، كيف تفسر هذا المنحى في أسلوبك؟

ربما يعود الأمر إلى شدة جمال الحالات والشخوص والأمكنة والتواريخ التي عشت وتنفست جلالها، وشراستها، وأحسب أن اللغة هي قوام السمع والبصر والحلم. إن تربيتي الروحية والاجتماعية الأولى قامت على أساس قول الشيء وحياته. . . ورؤيته. فأنا ابن بيئة لا تكتفي بقراءة الأشياء واستبطانها، بل تعيد تمثلها غناءً وتجويداً وهمساً وتضرعاً وصراخاً. . . من أصوات المؤذنين ومشيعي الموتى و(رواديد) مجالس العزاء الحسينية إلى مجوّدي القرآن وقرائه إلى أصوات عشرات بل مئات الألوف من الناس ــ صوت موحد ــ وهم يتدفقون في شوارع المدينة ومتاهاتها، في مواكب المناطق والمدن، أو في ذلك الموكب العجيب، الشبيه بفرات من الأجساد المسمى بعزاء طويريج، وما بين اللهجة واللغة تتوازى وتتقاطع وتتماهى أصوات حروف وأسماء سُحنات وأجراس مهج وحديقة معارف لن تمّحي من الذاكرة: جواد المؤذن، الشيخ هادي، حمزة الصغير، الشيخ عبد الزهرة الكعبي. . . ومعهم أو قبلهم أو بعدهم مسيل إشارات على جدران المرمر والقاشان والموزاييك ومرايا الذهب والرايات والسجاد وأرصفة لا تنتهي تعرض وتقول ما يخطر بالبال، وما ترجوه من كتب الأدعية والصلوات والنصوص العرفانية ودواوين أشعار رثاء الأئمة، إلى المترجمات الأدبية الشائعة ومؤلفات نجيب

محفوظ ونزار قباني والحاج زاير وكتاب مظفر النواب «للريل وحمد»... حتى الروايات البوليسية، وصولاً إلى تفاسير القرآن وكتب اللغة وتواريخ المدن وشروح المعلقات ومؤلفات طه حسين وفرويد ونرفال وأندريه جيد... كل شيء كان معروضاً للافتتان وللتذكار وللاقتناء وللتأمل والاستخدام، مع الماء والطعام والهدايا والتصاوير والأرواح والعقول.

وإذا ما وافقت على جزء من توصلك ـــ أي أن اللغة هي التي تحيا في قصصي ـــ فسأضيف: أن ذلك قد يتعلق بهذا المستوى أو ذاك لبعض مما أكتب، وأن ثمة ما لا يمكن قوله وتنفسه إلا عبر «الكثافة والتجنّح والتهويم وحتى الغموض...» للاقتراب من حفريات أخرى ـــ نفسية وطقوسية ـــ تقع ما قبل الوقائع الخارجية وجديرة في أن تُضاء وتحيا في اللغة.

□ رغبات ولذائذ وموت وألم وخوف وبكاء، هل تكون تلكم مجرد ثيمات كربلائية، ودلالات عاشورائية، تستنبتها في كتاباتك، كأنها صياغات ضمائرية، فنية لأجواء مدينتك كربلاء، التي هي شكل من أشكال وعيك؟

ثمة توصل دقيق وبسيط للرائع الراحل غالب هلسا، يقول فيه: إن المكان يلد السر. وردت تلك العبارة في بحث كتب ونشر في وقت لاحق على كتابتي ونشري لأغلب نصوصي. استناداً إلى ذلك التوصل أود الإشارة إلى ما يلي: هناك طراز من البلدان ـــ والعراق من هذا الطراز ـــ ليس من السهل أن يُعرَف متى يبدأ زمن الفرد وأين ينتهي تاريخ الجماعة، وتالياً من الصعب الفصل الواضح بين تجارب الفرد الروحية والجمالية، وبين تجارب المكان المذهلة. علىَ الضفة العامة: أنا ابن لمجتمع مشمول بالحراك السياسي والاجتماعي والنفسي والديني، بمستويات كثيراً ما تصل إلى درجة الانمحاء أو الغليان. بعضها سمعت وقرأت عنه، وبعضها عايشت عن قرب واحتكاك حتى حدود الموت والتشرد. وعلى الضفة الخاصة: أنا ابن بيئة شبه دينية بالارتباط مع يوم حياة مدينتي كربلاء. و(كربلاء) لغة وصوتاً هي نص شخصي وعام، شفهي ومكتوب، صامت ومؤدى. في هذه المدينة كان كل شيء يقود إلى التنوع، الذي هو جوهر الإبداع، من تباين الجماعات البشرية التي تفد وتذهب... إلى اختلاف عوالمها وطقوسها، إلى شكل أداء تلك الطقوس، إلى التدرج في إيقاع حواسها ومظاهر الاحتفاء ذات الطابع الوجداني المتداخلة مع أعمق الجروح النفسية والاجتماعية والسياسية.

وهناك في قلب ذلك المشهد، كان ثمة طفل لا يرغب بالعودة إلى البيت، إنه مطلق السراح للتو من المدرسة، متأبطاً كتبه ودفاتره، مأخوذاً بما يدور ويحدث حوله: فهذا موكب عزاء جديد، وهناك خصومة تجري وهو مسكون بفضول أن يعرف ماذا يحدث، وهناك شخص ينادي على بضاعة تتكرر على ملابسه وصوته، وعلى البضاعة هيئة تمساح، هذا مقهى تهاجمه شرطة، وذاك بائع هدايا وألعاب لا جسد له يغني لألعابه، وتلك لافتات تسبقها رايات ملونة جالبة معها البصرة، وبغداد، والسماوة، والناصرية، والكوت، وعين تمر، والدغارة، والهويدر، وطوزخورماتو، وخانقين. . . إنها سهلة التهجي، وهذه طفلة من عمره بل أصغر يقودها رجل غليظ الصوت ينادي: «اللي ضايعتله بنيّه. . . عيونها سود وشعرها طويل. . .»، وها هو يرغب بالعودة إلى البيت، إلى وجه أمه وصوتها ورائحتها، فتستقبله: «هذا غداك، أكل يمّه» ويجيبها «يمّه ما أريد أكل. أريد أسولف. شفت أشياء. . . باوعي يمّه، اسمعي» ذلك الطفل هو أنا. إن التزعزع والقلق والرغبة بالاندفاع إلى ضفة الفرح، كانت تتساكن مع الهجوع والتطامن والأحزان المكبوتة. ما أفعله هو محاولة لإعادة إحياء مدينة شخصية!

□ وجع المرأة المرير، الخافت والسرّي، يتماهى في قصصك مع المشهد الديني، الشيعي (الطواف حول مراقد الأئمة، والتشبث بأقفاص قبورهم، وتقديم النذور، وقراءة الأدعية. . . الخ) هل هو عالم ميتافيزيقي تجد فيه أنت الخلاص الروحي للمرأة، وربما خلاصك، أم مجرد تصوير لحالات اجتماعية، شعبية، وتقاليد لا يُعنى منها سوى إبراز خصائص أمكنة المدينة المقدسة: كربلاء؟

يحيا العراقي، رجلاً كان أو امرأة، منذ ما لا أعلم. . . على أرض روحية مفعمة بالرموز والدلالات القوية. وهي نتاج عميق وبعيد لمراحل وعوامل وأدوار تخص ذاكرة حياة عموم المنطقة التي ينتمي إليها العراق، وتاريخه. ابدأ من أي لوح أو رقيم طيني، وافحص أي مقطع عرضي اجتماعي أو نفسي لأية منطقة أو جزء من العراق، وستجد الأعماق التي يتغلغل فيها هذا العالم. ما أحاوله في هذا الجانب هو رصد لبعض الأحوال والتجارب بالمعنيين الداخلي والخارجي، والبعض منها يستحق الوقوف والمعالجة بمنظورات الجمال، ونقد الأذى. نحن بلاد ـــ نسبياً ـــ خالية من التوثيق الجمالي، والدراسات الإنسانية المتطورة. نعم، هناك ريادات كبيرة وعالية في بعض الحقول (إنجازات جواد علي، وطه باقر، وعلي الوردي، وعبد الجليل الطاهر، وعلي الشوك. . .) ما يفعله العمل

الإبداعي ــ في مثل تجارب بلداننا ــ هو بمثابة ذخيرة معرفية قد تأتي نتائجها مرة أخرى في مرايا علوم وحقول وفنون أخرى.

□ مأساة المنفيين العراقيين واضحة في جوانب عديدة من مجموعتك (أصوات محذوفة)، أهي تحويرات أسلوبية لمأساتك الشخصية، كونها بعض سيرة ذاتية لمنفاك؟

نعم، ولا. وبلا تفجّع... أقول لك، ما انفقد مني ليس وطناً، بل زماناً... أو شيئاً آخر لا تطاله اللغة هذه اللحظة. كان الرحالة والمؤرخون الأول يطلقون على بلادي اسماً عجيباً في شدة أناقته وجماله، يسمونه «سُرة الأقاليم». إن مأساتي الشخصية عند مقارنتها مع عذابات أي عراقي، إن هناك في الداخل أو في المنفى، لا تشكل سوى جرح أمام قارة من الألم والغياب. هناك جزء من سيرتي الشخصية، وما تبقى تنويع على تجارب أخرى.

□ في قصتك «أمطار غزيرة» وداع جميل لبيروت ــ أيام الاجتياح الإسرائيلي ــ عام ١٩٨٢، كيف كانت بيروت لك وللعراقيين ذلك الزمان، والصلة بها هل تبهت الآن، أم تتوهج في تنائي ماراثونات المنافي؟

الحديث عن بيروت وتالياً عن لبنان له مذاق خاص بالنسبة للعراقيين من مختلف الأعمار والتجارب، والأمر قد يبتعد عن عام ٨٢ ــ على خصوصية ذلك العام ومرارته ــ ويتدفق مع تلك الصلات الوجدانية والمعرفية التي تربط الكثير من أبناء العراق ولبنان بتراب المعارف والتجارب، وفي الدور الهام والمتواصل الذي لعبته بيروت كأحد مراكز التنوير والجمال. إلا أن ما عرفته وعشته في هذه المدينة المذهلة مع نهاية السبعينات هو أمر آخر يقع في لبّ تجارب العصيان والفرح، وتذكارات أعوام أحد أخطر العقود التي عرفتها المدينة. وصلتها في مدخل ١٩٧٩، ويومها كانت ــ وأظنها مرشحة دائماً ــ الملاذ الأكثر عدالة وحناناً، بالبشر الذين كانوا بين ظهرانيها، بأهلها وبحرها وهوائها، كادت أن تعوضني عن عراقي الشخصي! كانت الحياة فيها من أصغر تفصيل إلى أشرس المحن أمراً يقع بما هو أوسع وأجمل من أن يُروى أو يستوعب في أي عمل شفاهي أو كتابي. وأظن، إلى بعض من ذلك تعود أسباب عدم وقوعنا على الكثير من الأعمال الإبداعية الحية والمتوترة والجديدة، بما يؤشر لتلك

الأناقة ولذلك الألم والخراب. نعم، هناك نصوص وكتابات اقتربت وفعلت ذلك، ولكنها قليلة.

منذ فترة انتهيت من كتابة عمل، في أحد أقسامه تناولت جزءاً من تجربة تلك الأعوام. أرجو أن يكون نصيبه من نصيب الأعمال التي عرفت قول حبها وجمالها لهذه المدينة النبيلة. إن بيروت اسم غير قابل للحذف أو النسيان، كما كربلاء.

مالمو/ السويد، أذار ١٩٩٦

محي الأشيقر في سطور:

- ☐ من مواليد كربلاء عام ١٩٥٢
- ☐ مقيم في السويد/ مالمو، منذ عام ١٩٩١
- ☐ بين أعوام ١٩٧٩ ــ ١٩٩٠ عمل ونشر في الصحافة الصادرة في بيروت ودمشق.
- ☐ كتابه القصصي الأول «أصوات محذوفة» صدر عام ١٩٩٤ (كوبنهاغن)
- ☐ أصدر مع كتّاب عراقيين كتاباً قصصياً مشتركاً «ضريح الصمت» عام ١٩٩٥/ بلجيكا.

هوامش لقصص لم تكتب بعد

لؤي عبد الإله

يكتب أحد المصورين البارزين ما معناه: «إن التقاط أيِ صورة محدد بالعالم الداخلي للفرد، لكأن الصورَ الملتقطة مخزونة في داخل المصور».

هذا يعني أن المشهد الذي نود التقاط صورته، له ما يكافئه من مشاعر وأفكار في أعماق ذواتنا، أو أن الصورة ليست إلا صدىً لما هو موجود في وعي المصور. لذلك، وبالرغم من سهولة عملية التصوير التي لا تتطلب سوى الكبس على زر الكاميرا، فإن المصور ليس حراً دون قيود في اختيار مشاهد صوره.

ينطبق ذلك على الكتابة القصصية أيضاً. إذ أن مواضيع القصص موجودة داخل الكاتب، وكل ما يفعلُه هو العثور على ما يقابلُها في العالم الخارجي، فينشئ آصرة بين العالمين، لكأن الكتابة هي حوار من نوع خاص بين العالم الداخلي للقاص والعالم الخارجي. لكن إنجاز ذلك يتطلب اجتيازَ عقبات وأشراك كثيرة. بالنسبة لي هنالك ثلاث معضلات رئيسية تواجهني مع كل عمل أبدأ به، وهي تتطلب إيجاد حل لها قبل أو أثناء الكتابة. الأولى: هي الزاوية التي سأنقل الحكاية منها للقارئ. أي من سيقوم بنقل الحكاية له؟ هل هو البطل نفسُه أم صديقُه أم الكاتبُ؟ وإذا كان الكاتب، فأين هو موقعه؟ في داخل وعي البطل أم خارجه؟ هل هو يقف على الأرض ولا يرى أكثر مما يراه البطلُ أم يسكن في الفضاء فيشاهد أكثر من الآخر؟ إن اختيار زاوية النظر سيحدد كونَ القصة تقترب من حدود مملكة الفن، أم هي حكاية مواعظ. إنها، باختصار، وجهة نظر القاص أو الزاوية التي

ستكتب منها الحكاية.

المشكلة الثانية: كيف يستطيع القاص التخلص من شراك العاطفية، أو المنحى العاطفي في الكتابة؟ يقول دستويفسكي إن المشاعر النبيلة لا تخلق إلا أدباً رديئاً، وما يعنيه بذلك هو أن تكون قيم الكاتب ومثله مرافقة له أثناء الكتابة، فتجعله ينحاز إلى بعض أبطاله ضد البعض الآخر. هذا سيقود إلى أن يفقد القاص ذلك الحس الفلسفي الذي ينظر إلى أفعال الشخصيات كأدوار محكومة بمنطق مصادفات مجنونة أو تاريخ عبثي.

في إلياذة هوميروس الإغريقي، نجد الشاعر يتابع بحيادية كبيرة مجرى حرب طروادة التي استمرت عشرة أعوام بين أبناء قومه الإغريق والطرواديين، مفترضاً أن أفعال البشر ليست إلا تمثيلاً للصراع بين آلهة السماء، وأنهم ليسوا إلا دمى بيد تلك القوى الغيبية، ومن هذا المنطق الخرافي يتساوى، عند هوميروس، الصديق والعدو، الشرير والخيّر، الشجاع والجبان، لكنه في الوقت نفسه يساعد على إنجاز واحد من أعظم الأعمال الأدبية التي مازالت قراءته بعد أكثر من ألفي عام على إنجازه مصدراً لمتعة كبيرة.

المنحى العاطفي في القصة أو الرواية يظهر حينما يستدر الكاتب عواطف قرائه بنقل ما يعاني منه بعض أبطاله من ظلم واضطهاد وتعذيب وإفقار، ناسياً أن جميع القراء متفقون معه تماماً قبل وبعد قراءة قصته. وناسياً أيضاً أن دوره (إذا كان ذلك الكاتب يبحث عن دور ما) هو الكشف عن أسباب هذه المظالم لا عبر النقل الميكانيكي للواقع بل عبر الأسطورة، عبر ألف ليلة وليلة، عبر الرمز، عبر ما لا أدريه من الأساليب الكثيرة الأخرى، التي تهدف إلى الإيحاء لا التلقين، إلى الإيماء لا المباشرة.

إن لوحة فنية جيدة لوجه امرأة، قد يغير الناس بشكل إيجابي أكثر بكثير من تلك اللوحات المملوءة بأجسام المشوهين تحت التعذيب. الشر لا يضمحل بوضع مرآة مكبرة أو مصغرة أمامه، بل بخلق نقيضه. وقد يستطيع الجمال أخيراً إنقاذ العالم، من يدري؟

المعضلة الثالثة التي تشغلني هي العلاقة بين ما هو حقيقي وما هو متخيل. إذ أجد أن عليّ إعمال التغيير لمادة الواقع جذرياً عبر الإضافة والحذف والتضخيم، وتبديل شخصية بأخرى، ودمج عدة شخصيات بواحدة، وتبديل مدينة بأخرى. الهدف من ذلك هو تخليص النص من الوقوع في فلك صنف أدبي آخر وأعني به «أدب المذكرات». ذلك سيساعد أيضاً على التعبير عن الفكرة التي تقف وراء القصة، وتحقيق التوافق بين أجزائها.

يمكن النظر إلى الحقيقي والمتخيل من زاوية أخرى: أحداث الواقع تقع مرة واحدة،

أبطال الواقع شاحبون، ومملون، واستثنائيون، وعمل الكاتب هو في جعل هذه الأحداث قابلة للحدوث مراراً، وجعل شخصيات الواقع مشحونة بالحياةْ، جعلهم كائنات إنسانية مشعة، تشبهنا كثيراً وتختلف عنا كثيراً أيضاً. وهنا ينجح القاص بخلق الواقع المتخيّل لعمله. ألا تبدو أحلامنا شبيهة بالواقع المتخيل للقصة؟ الحلم هو رسالة يبعثها اللاوعي لنا، أثناء النوم، مستخدماً لغة رمزية، شفافة، موحية. أتذكر كيف كانت بعض النساء المسنات في قريتي يفسرن الأحلام، مؤولات كل عنصر فيها إلى رمز له معنى متفق عليه في ذاكرة الناس الجمعية. القصة، من جانبها، تتبنى الرمز والإيحاء بنفس الطريقة التي تتبنى به أحلامنا هذين العنصرين. الفارق الوحيد يكمن في التأويل، إذ أن الكاتب يمتلك حرية كبيرة في منح رموزه المعنى الذي يرتأيه، في اختيار طريقة الإيحاء التي تناسبه.

ما تسعى الكتابة القصصية إليه، بالنسبة لي، هو محاكاة الواقع بشكل فني. أن تكون القصة شكلاً إيمائياً للواقع، مثلما تمثل حركات راقصي الباليهْ الواقعَ الإنساني بلغة رمزية.

الكتابة هي بحث دؤوب ومتواصل عن أشكال تعبير جديدة، ومغامرة سرية في بحر غامض، حليفُه الفشل غالباً، والنجاح أحياناً.

الثقافة الجديدة

بحاجة إلى دعمكم

بالاشتراك والتبرع يساهم القراء في دعم المجلة كي تتطور ويستمر وصولها إلى القراء داخل الوطن: بأقل من عشر كلفتها الفعلية

«المشهد القصصي العراقي الجديد»

هواء نقي بعيداً عن «مستوطنة الكلاب»

نجم والي

الإبداع في بلد تغيب عنه الحريات يمثل أحد أشكال «استيتيك المقاومة» (وهو عنوان رواية بيتر فايس الضخمة الغير مترجمة لحد الآن التي يتحدث فيها عن مجموعة من الشباب يبتكرون أشكالاً جمالية للمقاومة في زمن النازية بألمانيا). ومن هو ذكي ويريد قول الحقيقة، يخترع القصص. قصي حسن الخفاجي لا يتحدث في قصته «مستوطنة الكلاب» عن مدينته البصرة التي أنهكتها القذائف، بل عن منطقة زراعية عُين بها، على أطرافها «أرض خلاء. أرض تابعة للمشروع. أنهارها سريعة. وبعيدة تحدها تلال عالية». وهناك يرى رجالاً فيهم «شيء من بدائية الحياة... فعيونهم غاطسة في محاجرها: عمياء، سوداء، أو رمادية، وغامضة... وهناك أقفاص حديدية تواجه الخانات المتساوية، تُحجز فيها الكلاب ذات الفصائل النادرة، أما الكلاب العادية فتُترك في الأبنية المسورة في الأسلاك»، وعندما يزحف ذات فجر مع الحارس الأشيب عباس ليريا ما يحدث يتفاجآ بالرجال «ينصبون مقصلة، إنها تعمل بطريقة السحب، هناك عتلة قوية، وشفرة باشطة، الدكة تعمل بتحريك العتلة المزيتة... الشفرة طويلة. لذا يقودون الكلاب إليها. إنها تتسع لثلاثة... توضع تحت الشفرة وتحرك العتلة... فتقطع رؤوسها»، ثم تُسلخ بعد ذلك من جلودها ويُلف لحمها. ولأننا ندري أن كل العراق تحول إلى مستوطنة كلاب، فتكفي بعض التلميحات، لنعرف حجم الكارثة ومن هم القتلة. إن قصة قصي، ستبقى منقوشة في ذاكرة القصة العراقية وستجد طريقها إلى الكتب المدرسية ذات يوم.

دار الأمد، التي هي عبارة عن جهد إبداعي شخصي وجريء يقف خلفه الزميل فاضل جواد (يعيش في الأردن حالياً)، هي التي وراء إصدار كتاب «المشهد الجديد في القصة العراقية» (أصدرت أيضاً المشهد الجديد في الشعر العراقي، سأعرضه في فرصة قادمة)، والمشهد يحوي اثنين وعشرين قصة قصيرة لكتاب وكاتبات، يصنفون ضمن اصطلاحات النقد التقليدية بجيل «الثمانينات». المقصود به أولئك الذين بدأوا في النشر بعد الحرب العراقية الأولى. المقصود هنا، أكثر أولئك الذين لا ينتمون إلى الأدب السلطوي الممجد للحرب والذي تتساوى قيمة الإنسان فيه مع الجزمة العسكرية (ربما لأسباب تكتيكية، لتمرير باقي القصص يحوي الكتاب ست قصص من «مستوطنة الكلاب»، لن أمر عليهم). ولكن الباقين يكتبون عن مشهد الخراب العراقي بحذق فني عال. فإذا كانت الحرب هناك تُري دائماً الوجه الوحيد البشع الذي تملكه، فلماذا لا يجربون، ويواجهونها بالجمال كنقيض، وبالإنسان الغير معني بقتل الآخر، حتى وإن كلف ذلك بعضهم أشكال التعذيب في أروقة الأمن العامة أو الموت في «مستوطنة الكلاب» ـــ كما حدث للقاصين حسن مطلك وحاكم محمد ـــ (أنظر إلى شهادة القاص عدنان حسين أحمد في جريدة الوفاق لندن، عددي ٢١ و٢٦ نوفمبر ١٩٩٥).

من أولئك الذين يعيدون تشكيل الخرابات الميلانكولية العراقية هي إرادة الجبوري التي تكتب بشفافية تجعل القلب يقفز من قفصه، في قصتها «رماد ندي». تقف عند محطة الباص، مثل كل يوم وتنتظر «كل صباح اللعبة نفسها والوجوه نفسها والصمت. كنا متفقين على الأدوار. نراقب بعضنا بعضاً خفية بدون تخطيط مسبق. . . من دون كلمات، من دون أن يزعج أحدنا الآخر». تتساءل، هل يصبح الانتظار تعويضاً عن غياب الأمل؟، لأنها وحيدة في زمن عصيب. ليست وحدها الوحيدة، إنما كل الذين تزدحم بهم منطقة الباص: المرأة الحامل. . . الصبيان الثلاثة. . . الفتاة الشابة. الشاب النزق. . . الأم. . . طفلها. لا أحد يتحدث مع أحد، كل واحد بمنلوجه الداخلي، وكأن القصة تُروى منهم جميعاً. وكأنهم هم الذين يجيئون ذات يوم ويكتشفون: لم يأت أحد. «لقد حضرت الحرب»، حينها يتغير إيقاع كل شيء. «في الحرب لا مواعيد دقيقة للباص. . . يأتي مثل الموت بلا موعد». وفي الحرب تستحضر الصور التي غابت عنا نفسها: «أتذكر كلمات بطل الساعة الخامسة والعشرين، وهو يفكر بلوحات بيكاسو وكيف أنه بدأ يفهمها في شاحنات الاعتقال، أردد أني بدأت أفهمها أنا الأخرى». تتصاعد قصة إرادة، حتى تتساءل، عندما ترى الناس بعد قصف الطائرات، يزيلون الغبار وشظايا الزجاج «من يلملم ما

تشظى في داخلنا؟». ولكن زميلهم كاظم عبد الزهرة يبدأ من حيث ينتهي (ينتهي؟) سؤال إرادة. فهو يتحدث في قصته «الذئاب على الثلج» عن تصدي العائلة التي ذبحها الغريب. «كان لي أخوان وأختان وأم تحبني وأبي مات قديماً. كان أخي الكبير يعيلنا والباقون يأكلون، وبعد أن زارنا الغريب صار لي أخ وأختان وأم تحبني وأبي مات قديماً، ولا أحد يعيلنا والباقون لا يأكلون». وكلما عاد إلى البيت، رأى الغريب مع ذئابه، السكين الحادة تلتمع في اليد، من سيُذبح عند جذع النخلة المحراب التي تتوسط الدار؟، لأن كاظم مثل إرادة ومثل زملائه الآخرين، يجربون في اللغة، حتى أنها تصبح جزءاً من الحدث، جزءاً من استيتيك المقاومة، لا علاقة لها بالإنشاء الذي راكمه ما يسمى بالأدب الستيني. فبراعة القاص فاضل جواد تكمن بالذات في تلبس اللغة له، حتى تبدو هي التي تقص وليس هو: «رصاص بمختلف العيارات يخطئ كل شيء سوى الأحياء... اليوم تاريخي على ما أظن، بعد أن جف طفلي الوحيد من الخوف... ونهضت في الصباح لأجدني مرة أخرى لصق زوجتي التي يكلفني دفنها ساعة واحدة... أو دقائق فقط أرمي بها من النافذة إلى الخارج... ولكنني منذ ثلاث ليال لم أستطع انتزاع ذلك؟»، وإذا كان بطل فاضل يترقب «خريف المدينة التي لم يتبق من أوراقها سواه، فإن القاص صلاح زه نكنه يكتب عن «قيامة الدم» في المدينة ذاتها التي يعمها الخراب، فعندما يفتح الناس الحنفيات تبدأ الدماء في التجمع، دماء الصنابير والأنهار والأمطار، حتى أن تانكرات المدينة راحت تسحب الدماء وترميها خارج المدينة، لكنها تعود مرة أخرى. أما في قصته الأخرى فالكابوس يجثم عليه أكثر لأنهم خيطوا فمه. الدم يغمر أيضاً قصة «ومضة دم» لعلي السوداني، التي يلجأ فيها إلى استخدام حكاية تراثية «من الفجر الأول إلى الفجر الثاني، استمرت السماء تمطر دماً مدراراً ومن فجر إلى فجر ظل الحجيج يلوكون تراباً تيمناً وبركة».

الكابوس حاضر في أغلب قصص المجموعة، فحميد المختار يكتب في قصته «وحوش الصالة» ينبغي أن نبحث عن مجال آخر لأرواحنا «إن أحداثاً تنتظر بابل، فنبوخذ نصر سيقود الجيش إلى الـ... البطولة لا الجمال»، حينها يشم رائحة شواء بشري فيقول «رائحة شواء تذكرني بالحرب». الكابوس ذاته يحاصر «الرجل الغريق» لجابر خليفة جابر، فهو حتى بعد موته يطرحه فريق من الرجال يلبسون بدلات تشبه بدلات الأطباء، لكننا نعرف أنهم ليسوا أطباء، فقد وضعوا صدره مفتوحاً وقد تناثرت محتوياته على منضدة سوداء، وكانوا منهمكين بالقلب قبل كل شيء حيث شرعوا بتشريحه بمشاطرهم «بحثاً عن حلم يشبه الورم الخبيث» قيل إن قلب ذلك الغريق مصاب به... هذا الحلم الذي

يشبه الورم مصاب به مجنون دلال علي في قصتها «الأدعية» يجعله يصيح بالطيور: «اذهبوا إلى الأراضي النقية الهواء والفضاء المضيء، اهربوا من غربان الليل السوداء، اكتشفوا معنى الحرية. ما أجمل أن يصبح للإنسان فضاء شاسع يملكه وحده كالطيور فلا رقيب... يأكل وينام ويحمي أطفاله يطير متى يشاء ومتى يشاء ثم يعود مساءً إلى عشه الآمن». الكابوس أيضاً يحطم رؤى صلاح صلاح في قصته «بقعة لون»، عبثاً يحاول تذكر الأمسية الجميلة مع المرأة التي يحبها «أخذت تفك آصرة شعرها فيما جلس هو عاكفاً ساقه. شعر بلفح الجمرات يزحف على وجهه وشاهد الاحمرار المرن يتوهج في شفتيها المستديرتين». لكن كيف للمشهد أن يتكامل في بلد الكوابيس، إذ بعدها تناثر كل شيء أمامه «ازداد النثار زخماً وأخذ يسمع تساقطه، مرت من أمامه مثل أخيلة، بقايا الثيران المجنحة هاربة، أبصر قفا الرجلين اللذين كانا يحملانه...» . موت الحلم يحضر في «قصة» ضياء سالم «حوار لأزمنة سيئة» التي هي أقرب للنص، والتي يحضر خراب الحرب في لغتها، فللغيبوبة «شظاياها» وللحظة «انفجارها»، وللصراخ «دوي». الحرب هي التي تحطم الجمال في قصة نعيم عبد مهلهل «فتاة الاستعلامات»، فالفتى الجميل، الذي كانت تصنع أمه من شعره الضفائر، هو مشوه الآن، لأن «قديماً كانت هناك حرب. حرب كلفته فتنته القديمة»، وحتى فتاة الاستعلامات التي كانت ابتسامتها عزاءه الوحيد تتركه مع خرابه، يبحث عن طريق جديد، مثل مولود كريم شعلان في «سفح الولادة»، الذي تركته أمه وحيداً. كريم يسمي ذلك حادثاً مفزعاً، لأن مولوده الصغير «وقف محركاً كل أطرافه، فاغراً كل ثقوبه، مستفسراً عن طريق كي يمر...».

هناك قصة تحكي بمهارة عن المحنة العراقية الغير منتهية. فالقاص محمد اسماعيل يكتب قصة مليئة بالكوميديا السوداء «أوديب المغفل». ثور هائج يحل على سطح دارهم، له قدرة فائقة على التمظهر بخيالات متعددة، فأحياناً يستحيل إلى جمع من الكائنات المجهرية، والحيوانات الخرافية المنقرضة. ولكن الأم تبدو أنها تستأنس لوجود الثور، «إن لأمي وجهاً بشعاً، ذا ملامح تصلح للتهديد، بليغاً، فأسنانها قوية... حادة وصفراء، تفرق بينها اسودادات مقززة، والبعض منها يبدو عليه تكشط أزلي»، وهذه الأم الكريهة تستقدم رجلاً غريباً، أخرق، «استسهلنا أيضاً فحل بنا دون سابق معرفة ولا حتى استئذان... والعجيب أننا قبلناه بتسليم تام، كأنما وجوده أمر مفروغ منه». هكذا يعيش الأطفال والأب حيرى بين الثور الذي يتسلل خلسة إلى مطبخ الأم يتخبط بخرقه الغريب، يلطم رأسه بيديه، والجدران، وبكل ما يقع في طريقه، وبين الرجل الغريب. ولكن الأب

الذي يكون في نزهة عبر نافذة غرفته، المطلة على سكون الحديقة، بينهما الليل، ومن ورائها الشارع المقفر، يحلم باصطياد المطبخ... ووضع الغريب عند باب السلم، داعياً إياه إلى طرد الثور، وإخلاء الدور من كليهما، حسماً للأمور.

إن قصة محمد اسماعيل تُري كيف أن الاستيتيك، الذي هو سحر الدفاع عن النفس، يشتغل، والذي يبدأ في المجموعة مع قصة إرادة الجبوري «رماد ندي» التي تحضر بها الحرب، مقصة العراق، منذ الصفحة الأولى، والذي يتنفس هواءه النقي في القصة كمكان للمقاومة، وتصدمنا أيضاً كمشاهدين بعيدين عن «مستوطنة الكلاب» العراقية هنالك، وعن مستوطنات الكلاب الأخرى في عالمنا.

هامبورغ

إصـــــدارات وردتـــــنـــا

عـلـي الـشـوك

ملامح من التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب،

مكتبة رمضان، لندن/ دار المدى، دمشق

د. مؤيد عبد الستار

ترجمة «رامايانا»، ملحمة هندية،

دار الكنوز الأدبية

ده نكي، العدد ١ أربيل

مساهمات لجمال عبدول، به خشان زنكنه، شه مام شه وقي، ناصر حسامي، دلسوز حه مه، به هار، هادي محمود، نه ميره محه مه د، شوكريه رسول، شورش، ثاري بابان

النهج العدد ٦

مساهمات لمحمود أمين العالم، سمير أمين، لؤي أدهم، عبد الهادي عباس، لطفي حاتم، عزيز العظمة، نعيم الأشهب، فهمية شرف الدين، فيصل دراج، عايدة سيف الدولة، محمد فرج، أحمد زيدان، أحمد شرف، مدحت الزاهد، فالح عبد الجبار، ميثم الجنابي، جواد بشارة، مجيد مسعود

المدى العدد ١٢

مساهمات لسعدي يوسف، خالد زغريت، رانية سمارة، عبد الحكيم الذنون، صبحي الطعان، مصطفى الحسناوي، سلام صادق، سعد سرحان، ياسين عدنان، مؤيد عبد الستار، حميد الخاقاني، دلاور قره داغي، محمد علي اليوسفي

«أحلام الفيديو» للؤي عبد الإله

قصص ناضجة وأخرى مفبركة

جنان جاسم حلاوي

لا أدري ما الذي يجعل بعضاً من قصص العراقيين في المنفى يدعو إلى الملل، ربما هو البحث عن أصول الذات المترجرجة، الضائعة بين الماضي وبين الحاضر، مع شحنات خفيفة من تذكارات الماضي وكمشة من هموم الحاضر، وقفلة على وزن قفلات الأبوذيّة، في نهاية القصة لإعطاء مغزى ما، وكأننا إزاء معرض صور متتال لشخصيات تأتي وتذهب، دون أن تهب وجوداً قصصياً حقيقياً: وجوداً ينبع من ذات الشخصية القصصية، ومن كونها ذاتاً موضوعية هي الأخرى. إن عدم وجود حيادية أسلوبية، ليجعل ابتكار القص أمراً مستحيلاً، فلا عجب أن نرى قصة «أحلام الفيديو» (الأولى في مجموعة لؤي عبد الإله المسماة بالاسم ذاته*) من ذلك الطابع المنغولي (نسبة إلى الأطفال المنغوليين): فمن حلم بطل القصة بأبيه الذي يدينه لأنه «بدائي وقاس»، إلى تمزقه النفسي بعد فشله في السياسة، إلى اصطدامه بالإرث التربوي الأوروبي «الجميل»!! (وهو حقيقة أكثر تعنتاً وفولاذية وقساوة من إرثنا التربوي العراقي ــ ملاحظة شخصية من كاتب السطور ــ)، إلى وهم العودة إلى الماضي ورحيل الزوجة الأوروبية: كل ذلك يُسرد في قصة قصيرة! الأمر الذي أربك السرد بأجمعه حتى أضحى باهتاً، وغير مقنع، بسبب رغبة القاص في حكاية المعاناة دفعة واحدة وبلا تروٍ، إنها تيمة عامة وشائعة عند القاصين العراقيين المنفيين، ونادراً ما تجاوزوها. بينما تنجح قصة «مدرسة المكارم»

* أحلام الفيديو وقصص أخرى/ لؤي عبد الإله/ دار الجندي/ الطبعة الأولى ١٩٩٦/ دمشق.

في توظيف أسلوبها ولغتها نحو آفاق الطفولة، حيث الشد الخفيف المرح، والسعي لوصف كون طفولي واضح، ساذج، وسري، فالقاص يدنو من صفاء لغته وحيويتها، كلما ابتعد عن تكريس الفكرة في النسيج القصصي بمعنى أن يكتب بلا أفكار مسبقة (سياسية، أو ايديولوجية، أو تربوية. . .) فنقرأ بيقظة وراحة، سيرة أطفال في حي شعبي يدهشهم كبيرهم (هادي) بأسراره التي هي ليست غير أسرار الكبار الجنسية، مع نهاية مفتوحة على الاحتمالات والتأويل، وعودة ثانية في قصة «قبلة الحياة» إلى الإنشاء والحشو، كما في القصة الأولى «أحلام الفيديو»: رجعة إلى رومانسية عتيقة، لا يجرؤ على كتابتها أحد، لأنها من عاديات متاحف القص، وبلغة مفخّمة، ملأى بلحظات وصفية للبحر، مشغولة بعناد إنشائي، تزييني حتى الوسوسة، نتابع المنفي الذي يصاحب مليكة، والمبتلي بحالة تفتت نفسي غير معروف مصدره (اللهم إلا كونه منفياً. . . الخ «القوانة»!) بينما حبيبته/ زوجته مليكة تحب الحياة، وتنقذ غريقاً. . . إنه يائس وهي متفائلة، إنها قريبة من الحياة والحب، وهو بعيد عنها، وهكذا فلا قرأنا قصة ولا هم يحزنون، إنما انطباعات تأليفية تقرب من الخاطرة، وبأسلوب حاول الجموح في ميدان السرد، إلى وجود أحداث في قماشة القص مابرحت غير مفهومة: مثل شخصية مراد، وعلاقته بالزوجين، وطبيعة الشك الذي زرعه بينهما: (مراد) غير نام، وبعيد، وبرغم صفاء أجواء البحر، تركد الحبكة، عند الحدود الضحلة لطين المخيلة، على لغة ميتة.

تتمكن قصة «كفاءة من نوع خاص» من شد القارئ وجذبه، فاللغة تنساب طيعة، تؤدي غرضها في تصوير الشخصيات ورسم أبعادها النفسية، فنحن أمام باحث عن عمل: عراقي، منفي، يجد وظيفة عند محامٍ ورجل أعمال عراقي يدعى (الأدهمي) وهذا غريب الأطوار، غاضب، متقلب المزاج، ومحتال أيضاً، يعامل موظفيه بنزق. يصبح العاطل عن العمل موظفاً عنده مع جانيت وسوزان (السكرتيرة، والعاملة على الآلة الكاتبة) اللتين وقعتا في غرامه، تسير الأمور على ما يرام بداية، ثم يبدأ الأدهمي بمحاسبة الموظف بقسوة، ولاإنسانية، ثم يزيد من ساعات عمله، ويقلل أجرته. يدخل الشبحان في حالة ارتباط عجيبة (شبح الخادم وشبح المخدوم)، ويكرس القاص كل طاقته لرصد كل طرائف ومداخلات تلكم العلاقة التي تصف جانباً مهماً من السلوك البشري. يكتب عبد الإله بحذق قصة تشيخوفية، تقترب كثيراً من ضفاف الواقعية النقدية في الأدب.

ينأى القاص مسافة خطوات من أسلوبه الواقعي ليوسع شق باب مخيلته الذي ضاق عليه، وعلينا طوال الصفحات الخمسين الأولى من الكتاب، يفتح درفة الباب، فينسل

وننسل معه إلى مجال رحب، فضاء فانتازي، يترك القارئ معلقاً بين الوهم وبين الحقيقة، بين الشك وبين اليقين، يتميز الأسلوب في قصة «الحارس الجليدي» ويرقى إلى مستوى جيد من القدرة القصصية على تخييل الواقع وسرده في آن، من غير قسر ولا أواليات أحداث مألوفة، فالغرابة في الحدث وهبتنا سياقاً مموهاً، مواربا، ومتماسكا. فما قصة الحارس الجليدي؟ إنه مجرد سجين عسكري يرضى بالخروج من الحبس لتأدية مهام الحراسة، في بقعة نائية، صحراوية، يغطيها الجليد، وفي طقس كابوسي يخطو خطواته العسكرية المسموعة، في الساحة، فجراً، أمام السجناء، كأنما القدر يسخر من الجميع، في مشهد سينمائي شاذ التفاصيل، ليصير (جاسماً: الحارس الجليدي) إنساناً غير واقعي، بل يتحول المكان والزمان إلى عنصرين غير حقيقيين أيضاً، إن أزمان الحروب، الحبلى بالغرائب، لهي قاسية ومدمرة، إلى درجة تحولها من واقع إلى وهم، فالوهم في القصة هذي يلعب دور المعادل الموضوعي للخوف والغياب والقسر، عندئذ يفقد العالم خواصه المادية فتتمثله الذات المهشمة والمقهورة، حتى تفقد الذات نفسها يقينها بذاتها، تصبح وهماً هي الأخرى، وكثيراً ما تصح نبرة الهلع عند حصول الكوارث فنسمع الصرخة: يا إلهي لا نصدق ما يحدث! مع أن ما يحصل قد حصل في حدود الحقيقة المرة، سوى أن خواص الواقع ذاتها تنتج وهمها، في هول القمع الذي يستلب الذات البشرية. ترقى قصة «الحارس الجليدي» إلى مصاف قصص الأمريكي (راي برادبري)، تشبهها في النبرة الفانتازية المشدودة بالترقب والذهول والرعب والمفاجأة.

وفي «سالفة» لافتة تتكرر عن مجتمع الصغار وعلاقته بالكبار، وبداية حلول الخراب، ونهاية زمن عذري، أليف، وهادئ، نقرأ: دوائر الطفل الطبيعية، المحمية، الجميلة، تصطدم بمجال مشوش كبير، وخطر، نقرأ خبرية طفل يعيش في قريته، في أمكنته الأليفة، في بيئته البعيدة كل البعد عن أن تكون متميزة، إنها الطبيعة الأبدية البحت، التي لا تعاني من تغيير منظورها، رغم الرهبة البادية على وجوه الكبار عشية الثورة على الملك. سيرتان: الأولى، فطرية وغافلة، والأخرى تنذر بالغموض، فلا يعرف الطفل سبب كل ما يجري، وسبب تغيير الصورة على الحائط (إحلال صورة الثوار محل صورة الملك) وهدير المارشات العسكرية؛ قصة «أشجار السدر» مكتوبة بلغة كثيفة، تتيح لموضوعها قابلية التماسك، خالقة سياقاً قصصياً ثراً وإمكانات لتصورات أكبر عن واقع الناس في زمن يتغير بسرعة نحو المجهول، وإن بقي المكان ثابتاً، هادئاً، مؤنساً. فالزمن الآن أصبح هو السيد، الذي سيأتي بالانقلابات المفاجئة، المؤثرة في أشكال المكان، لكن أنى للطفل أن

يدرك ذلك! بل لن يدركه إلا بعد أن يصبح كبيراً. ومن حسنات قصة «أشجار السدر» أنها لم تفسر دلالاتها كما أفعل أنا الآن، إنما تركت النهاية مفتوحة، حيث بإمكان القارئ تخيل ما سيحدث.

ذات الوقت الذي أنتهي فيه من قصة جيدة، تفاجئني أخرى مفككة بعنوان «حالة حصار» عن المعزوفة إياها: أحلام المنفي وأمانيه، والتي سأتجاوزها لأجد نفسي في حقل قصص قصيرة جداً تحت يافطة: «حكايات كليلة ودمنة» وأظن أن صاحبنا عبد الإله آثر أن ينهي كتابه على طريقته الخاصة، بأقصوصات ذات نكهة طريفة، تماهي في رمزيتها، وتوليفها، وفبركتها حالة عامة، معيوشة، فهنا حمامة تعود محترقة إلى صويحباتها في الفخ، وهناك الخان الذي يزوره ضحاياه في أحلامه، أو حكاية العجل المسمن الذي ينتظر الذبح. . . إلخ. حكايات مرتبة على هدى ذبذبات تشير إلى اضطرابات حاقت بالإنسان (حروب، قمع، نفي)، ترشح في شبكة النص الرمزي، المتقن صناعةً وتركيباً، والعلني في غايته، وأهدافه، بالتالي فالترميز المفتَرَض، لهو ترتيب غير عفوي، بل متعمد وإن كان متخيلاً، إلا أنه يؤدي أغراضاً أخلاقية، أو تربوية، أو سياسية، من هنا النقص الواضح في عملية الخلق نفسها، حيث الكتابة لا تبتكر أحداثاً، قدر ما تعدها إعداداً، شاغلة رموزاً مقابل وقائع، مع ذلك فلقد وجدت متعة في هذا النمط الآلي من القص.

جنوب القطب الشمالي

السويد/ ١٩٩٦

قراءة أخرى في «زهرة الأنبياء» لسالمة صالح

محمود سعيد

ليس سهلاً الكتابة عن نص صعب مشاغب مثل «زهرة الأنبياء»* لسالمة صالح. فهو كتاب يستعصي على التلخيص والاستشهاد. فلكي تدعم ما تكتب بشاهد وجب عليك أن تذكر كل النص. وما هذا بعمل سهل وإلا أصبحت من مؤيدي ترك الصلاة بينما أنت تبغي الحض عليها. وتأتي صعوبة النص من جهد الكاتبة لترجعنا إلى فردوسنا المفقود... إلى طفولتنا، وهذا هو المستحيل الذي أقرت به ببساطة: «ولكن ما من طريق يسلكه المرء مرتين» على أنها لم تيأس من المحاولة، لقد أجبرتنا على اقتحام الماضي على ظهر غيوم من ذكريات ترتعش في قلب طفلة حساسة تكتشف روعة الحياة.

إنها تحدثنا عن مدينتها، حياتها، طفولتها. فبالرغم من أنها لم تسلك الطريق مرتين أعادت رسم الحياة بأنامل فنان مفعم بحب الحياة فجاء النص ينبض بدقات قلب كبير لتلك الطفلة التي مازالت صغيرة، لم تكتهل، وسوف لا تشيخ أبداً.

بعد أن أنهيت الكتاب الذي لم يشدني مثله إلا القليل، رجعت إلى الغلاف فرأيت الناشر قد صنفه «قصة» عندها ابتسمت: أو مجموعة قصص؟ لا. أهو نص؟ رواية؟ لا. لماذا؟ إنه كل هذه الأجناس معاً. وبرأيي هو رواية ذات فصول... رواية فيها بطلان لا أكثر.. مدينة وطفلة أو مدينة طفلة واحدة. الطفلة تعيش عملية اكتشاف الكون لتبني مدينتها الخاصة عبر تفصيلات جعلتني أبكي، أضحك، أتألم، أفرح، أغضب، لأنها

* الرواية من مطبوعات المدى ١٩٩٤.

استعارت عيني وقلبي وجوارحي فأجزنتني لأنها كانت أقدر مني على التعبير، وأغضبتني لأنها كانت أقوى مني ذاكرة وأفرحتني لأنها فقأت دملة المشاعر عندي على الرغم من أنها كانت أغزر مني عواطف وأحاسيس.

أي معول ثر نبش ماضياً لا يمكن أن يعود. فحتى في تلك المدينة، وبالرغم من الجوع والحصار وسيوف أعداء الداخل والخارج اختفى أو كاد التنور المصنوع من الطين والقش وحل محله تنور حديد قميء رمادي كريه عند البعض القليل فقط، إذ يفضل الأغلب شراء الخبز من الأفران، لكن الكاتبة بعثت «في الذاكرة من جديد سحب الدخان، ورائحة الخبز الساخن، وطعم الانتظار لطفل نافد الصبر يرقب رغيفاً يُقلب على وجهه الآخر، لم ينضج بعد. أصابع صغيرة تنقل الرغيف الذي نضج لتوه من يد إلى أخرى، فلا تحترق أو تفقأ الفقاعات السمر على وجهه».

لكنها نسيت كيف كنا نأكل الخبز الحار مهشماً وهو ساخن بعد أن نخلطه بالسمن ونرش عليه السكر الناعم، كيف ينهرش تحت أسناننا، كيف نلعق أصابعنا قبل أن نغسلها. ها هي واقفة تتفرج وتضحك. . . آه ما اسم تلك الأكلة البسيطة؟ لقد نسيت الكاتبة الاسم. الآن تذكرته ــ المريس.

سرت مع سالمة صالح في رحلتها الغامضة، نزلت معها السلم الذي يقود إلى هوة عميقة «نمكث لحظات فنعتاد الظلمة، ونتبين حجارة الرحى. . .» معصرة زيت السمسم و«الطحينية» نسيت الاسم ثانية. كانت تشتري «العسير» «تلك هي حثالة السمسم المعصور، تبسط أقراصاً صغيرة سميكة» مرة ثانية تنسى اسم هذه الأقراص. لماذا؟ اسمها «عسير» لأنها سميكة وقوية تحت الأسنان، إن تلك الحثالة التافهة طعام أشد الناس فقراً، يأدمونها مع «الجاي» المحلي بالسكر.

لو ترددت الكاتبة على باب الطوب لشاهدت جموع الفلاحين جالسين على قارعة الطريق يتغدون بينما يدخل غيرهم المطاعم القريبة ليأكلوا ما يلذ ويطيب وبخاصة الكباب الذي تشتهر به تلك المدينة آنذاك ــ كباب السيد بكر والأربيلي.

ركزت الكاتبة علامات على الطريق الذي حاولت أن تسلكه مرة أخرى، علامات مشتركة بينها وبين القارئ الذي جايلها. وربما كانت تقصدني أنا بالذات، أو هكذا شعرت بالرغم من كوني أكبر منها سناً على ما أظن.

وجاءت عباراتها لتأكيد تلك العلامات كمقدمة لها: «إن المرء ليتقدم في السن، ويزداد بعداً عن طفولته، فإن لم يحتفظ بذاكرة يقظة سقط كل شيء في النسيان». كان «الخروف

العنيد» وقصة «نور الدين» و«القرد والغيلم» و. . . مئات الأشياء الأخرى، تلك العلامات كانت أشبه بجزر صغيرة في بحر الطفولة العارم الذي ولجه الجميع.

إن كتابها الصغير يزدحم بالأسئلة البريئة التي تقودنا إلى لذة الاكتشاف، فها هي شمعة الحاصود ــ وليس الحصاد ــ نقطة ضوء، «نجمة تتحرك» وها نحن نصطادها ونحبسها في علبة الثقاب وها نحن ــ هي ــ لا نتخلى عن أحلامنا في الحصول على سراج الليل. من بين الأعمال المطبوعة قلما يقع بين يديك كتاب يتحدث عن شيء أصيل، دافق، ملذ، يغوص عميقاً في مسالك ماض مازال ينبض بعفوية، أسلوب أفضل ما ينعت به أنه سهل ممتنع، أشبه بالشعر وليس بشعر بل أعمق منه، وأشبه بالنثر وليس منه لأنه أغنى أحاسيس ومشاعر.

مقدرة تصويرية

عند سالمة صالح كل شيء حي، كل شيء له قلب، كل شيء يحب ويحب: المدينة، الحجارة، الأسوار، السراديب، الحدائق، الطرق. أما وصفها للطريق إلى الدير فمذهل: «وها أني أصادف من هم أكثر مني مهارة في القفز والتسلق، هذه النقيطات السود التي تتحرك على بعد ما هي إلا ماعز جبلي. . .».

لم تتكلم سالمة صالح عن مدينتها التاريخية، ولا عن دورها قبل أو بعد الآشوريين أو العراقيين الفرس أو العراقيين بعد الإسلام أو بعد المغول أو العراقيين العثمانيين، لم تتكلم عن انتفاضاتها، ولا عن بطولاتها أمام نادرشاه، حتى أنها لم تذكر أو تنوه عن إضراب القصابين الذي استمر ستة أيام بكاملها والذي أسقط وزارة وغيّر وزير داخلية عتيد (سعيد قزاز). لم تتكلم عن أي حقبة مضت، أرادت أن توثق قليلاً من كثير من فلكلور سائد، وهي بإهمالها المدينة كواقع معماري حضاري عوضت عنه بما رأت من سحرة وعادات وتقاليد، بذلك جعلتنا نتشارك لا الرؤيا وحسب بل المشاعر.

أي أسى عميق ينتابك وأنت تتشرب مرارة امرأة سجينة بين جدران أربعة تتوق للنزهة، لترى زهور الربيع وخضرته لتتنفس نسائمه، فيبادر زوجها لتحقيق حلمها: «جلب لها عشب الربيع وفرشه على السطح». أما قصة لعبة الصبر، وقصة محمد الذي تناديه أخته «تعال ولا تجيء» والذي تذبحه زوجة أبيه وتأكله، فهما ــ القصتان ــ تدميان القلب.

سرت معها أني سارت، سمعت معها نداء بائعة الخيضر، وتذوقت ثمرة الخرنوب وعدت معها أحمل حصيلة رحلتي: «فطريات تشبه درنات البطاطا ذات حلاوة باهتة، وأبصالاً سكرية، وفي أحيان قليلة كان هنالك الحماض».

لكن سالمة نسيت للمرة الرابعة اسم هذه الدرنات «حج كبي» واسم البصيلات «فريونة». نسيت أيضاً أن تذكر اسم «المآجن» التي تضرب بها الثياب المغسولة بالكيل حيث أنها تسمى بالمحلية «الخاطور» كما أنها ذكرت كلمة المزلاج ولم تتذكر الكلمة الأضبط «السقاطة».

كان ما صورته سالمة صالح عن الحمامات والكيل والحديقة الكبيرة وريزومات السعد، والجسر الحديدي ونظامه الذي لم يخرق أبداً: «ممر للمجيء وآخر للعودة». وفي الوسط شارع. . . قذفنا إلى الطرف الأكثر حياة من شارع نينوى بأسواقه ومحاله، سياراته وشاحناته، وضوضائه التي لا تهدأ، كان ذلك لا ينسى، كانت آخر مرة عبرت فيها الجسر بعد الحرب الأخيرة، عبرته ــ مع شديد الأسف ــ بالسيارة ففقدت نشوة الطفولة وأنا أراقب دجلة السريع يشق طريقه كالسيف».

أما عربات العيد ودواليبه «الخشيم» الذي أسمته «قمرية» والشقوق التي تبتلع كل ما يخزن فيها، وأم سليمان التي أسمتها «العظاية» والدويبات الصغيرة السمراء الرمادية، وموضوعات الإنشاء، التي لا تتغير، العطلة الصيفية، والحمار الذي يعرف طريقه في الرحلة الأولى، والأم التي تحارب الخراب بعزيمة لا تفتر، وقوارير الكنوز الوهمية التي تتخلف من هدم البيوت، والصبية التي فوجئت بالسمن يفيض من البراني، وبيض القطا المرشوش بنقط بيضاء وبنية، ومئات الأشياء الأخرى والتفصيلات الدقيقة. ما كان ليأتلف وينسجم ويبدو نصاً فائقاً رائعاً لو لم تكن المؤلفة تملك موهبة أصيلة وفناً راسخاً ومقدرة فذة على التصوير لا تضاهى. فلأول مرة في اللغة العربية يستطيع نص بطلتاه طفلة صغيرة ومدينة أن يشد القارئ هذا الشد المتماسك ويغرقه في متعة لا تنتهي.

كيف استطاعت أن تحتفظ بهذا الكم من الذكريات؟ مازلت أحس بغاز (النامليت) يصعد من لهاثي إلى أعلى أنفي. أما زهيرات البيبون، وشقائق النعمان، والكلمات المنحوتة على شواهد القبور «يا زائراً ترابي. . . ابك على شبابي. . . الخ». والقمطر الذي أصرت أن تستعمله بدلاً من «رحلة» والليمون أم الفلسين، أما هذه العلامات فستبقى تدلني إلى مجاهل طرقتها مرة ومازلت أحس بنكهتها اللذيذة.

مرحلة منسية

لم تقصد الكاتبة أن تؤرخ لمدينتها لكنها وهي تنظر إلى الماضي بعينها الثاقبة المستبصرة وبروحها الشفافة وثقت مرحلة منسية، لابد أن يستفيد منها المؤرخون مستقبلاً:

ـــ كان الرجال يروون حكايات طريفة عن دوريات الحكومة العثمانية التي كانت تبحث عن الهاربين، «من الجيش»، كان أبوها هارباً وكذلك أبي. ويبدو أن جيلهم لم يكن مقتنعاً بالحرب التي زج فيها بحيث شكل الهروب ظاهرة لم تكن فردية بأي حال، وفضل البعض الأسر عند الروس إلى انتهاء الحرب. . . وهكذا فعل أحفادهم في الحروب اللاحقة. . . فأي حرب مقنعة؟

ـــ عناية الكنيسة بأيتام المسيحيين.

ـــ حرص التعليم على إتقان قراءة القرآن.

ـــ «بيت سيد توحي» ومقدرتهم على شفاء النكاف بالرقى.

ـــ إهمال المدينة للشعراء.

ـــ استعداد المدينة لموسم الشتاء وإعداد البرغل والحبية والرشتة والسويق.

ـــ النوم في السطوح ـــ انتهى الآن ـــ وتأمل السماء وبواكير مطر الخريف.

ـــ المنادي الشعبي: يا سامعين الصوت.

ـــ أبواب المدينة وشوارعها.

ـــ محطة القطار والحمامات والفوط والمناشف المعلقة على الحبال والجدران في الشوارع.

ـــ أسواق المدينة وجماليات المهن، ومقاييس الملابس: «العباءة سبعة أمتار = تسعة أذرع لا تسعة أمتار».

كان تعاطف الطفلة مع الحيوان علامة واضحة لا يمكن أن يغفلها أي متصد للكتابة عن «زهرة الأنبياء»، وصفت العلاقة مع القطة والسنجاب واليربوع والسنونو والحمار وصفاً يأخذ بمجامع القلوب: «ثم إني خفت على سنونوتي من القطط فاشتريت لها قفصاً، وضعتها فيه في المساء، وفي الصباح وجدتها تستلقي مفرودة الجناحين ميتة. ما كنت أعرف أن هذه الطيور الصغيرة التي تبني أعشاشها في الغرف العتيقة غير قابلة للامتلاك».

ولا تقل روعة الأسلوب شُعيرة إذا وصفت الزهور أو الأمطار، فكان قلمها ساحراً

يعيد لكل جماد تتناوله خلقه وتكوينه.

ولابد وأنا أتطرق إلى مقدرة سالمة صالح من أن أذكر بعض تعبيراتها المتفوقة التي تدل على مران طويل وتجربة مستفيضة، فحروفها تخزنا بمسلات لذيذة مدغدغة، فعندما تسلم على معلمتها التي نسيتها بعد مضي مدة طويلة «ترد تحيتي بوجه جامد... بعد حين أشعر أن تحيتي فائضة وأنني ربما جرحت وحدتها...».

ويتكرر مثل هذا التعبير المتألق في ص٧٤، ٨٤، ١٠٩، ١١٠ وتقريباً في كل صفحة فكأن هذه التعبيرات درر وجواهر تزين جيد ومعاصم وجبهة حسناء تفتن الناس.

غير أنني أود أن أعرف من قصدت بابن الخياط، إذ أن هناك غير واحد أشهرهم نحوي، وسواء أصابت أو أخطأت في ذكره فإن ذلك لا يقلل من عظمة كتاب أدبي يعتبر تحفة ودرة فريدة شديدة الأصالة، عميقة بقدر ما تحويه من شفافية وصدق ومقدرة على التعبير، فتهنئة وتحية من القلب على هذا الإنجاز.

«متاهة المصحح»

رياض الخضيري

بسبب الأماكن المفتوحة. انسحبت
إلى الداخل لأصنع حلمي...

أية صورة رائعة للمتاهة حينما تأخذ شكل زهرة حجرية لها خمسة أجنحة. ماكرة وذكية حد الروعة. خيمياء الحجر. تركة غير متناسقة مسكونة بالفراغ. مساحات حلمية تكثف الغامض والسري وتمنحه أبعاد السحر. لذلك فهي لا تمنح نفسها بسهولة للوصف أو التفرج، لأنها في الوقت الذي تكون فيه مرئية، تنسحب بأجنحتها، دهشاتها الخمس إلى العمق فتصبح مغلقة ومعكوسة ومشحونة بالتردد.

زمنها في الخارج يمتد لثلاثة قرون ويضغط في الداخل إلى لحظة واحدة، سائبة، تمتلئ بخيالات يصنعها دوار الغبار المسكون بعفن القرون الثلاثة والموضوع عن قصد وسط خمس دهشات مقببة لا تحمل مظهر عمل إنسان. وربما هي رموز لكائن واسع معقد يشعر بالوحدة. كائن انفلت من زمنه وصنع الحلم.

شعرت وسطها وكأني محفوظ بدفء المنزل، عطر قديم يحمل رائحة أعشاب مخدرة تخللت حواسي وأشاعت جواً من النعاس. إحساس بالسكون لا يتسم بفوضى الحياة وشخوصها.

كان «المصحح» يسميها ــ متاهة القصر ــ وجدتها مرسومة بخرائطه في عدة أشكال مختلفة لكنها متشابهة في روحها. قلقة ودافئة. تستلب ذاكرة الداخل إليها وتمنحه ذاكرتها عبر دهشاتها الملونة فتصبح منفاه.

يتساوى عنده الزمن وتتحرر ذاكرته من حياتها السابقة. تبهجه اللعبة الذكية فيبقى

في دائرة مفرغة يجتر ذاكرة «الآغا الأبيض» يعيش إرثه القديم.

إنها متاهة بلا مخارج، واختيار أعده المصحح بدقة... حلم كائن منسجم الإيقاع، ورغبة مجنونة باقتناص لحظة من الزمن يحفظها الدعاء.

ـــ يا رب احفظ حلم الآغا الأبيض...

الدعاء الذي لم أفهم مغزى وجوده في كل مكان، مكتوباً بخمسة خطوط عربية متقنة لتكتمل خدعة الآغا الأبيض عند حركة الشفاه.

رسمها المصحح على شكل زهرة اللؤلؤ ذات الخمس بتلات، متصلة مع بعضها عن طريق قنوات تنزل مع كل بتلة إلى القاع وتجلب الهواء من أماكن سرية تنيرها وتدفئها شمعة المشعبذ التي لا تنفد.

نور الشمعة يصل إلى بتلاتها الخمس ماراً بنفس الطرق التي يسلكها الهواء لصنع خمس دهشات مقببة ذات وجود معلن لكي لا يصل الضجر إلى قلب الأميرة.

الدهشات مأوى الأميرة... زمنها راكد وذاكرتها بيضاء باستثناء دعائها وخيالاتها الموضوعة عن قصد... إنها خدعة «الفلكي» غير القابلة للكشف. لأنها بلا مخارج وزمنها حُبس لحظة إغلاق الجدار على دهشة الكوفي أولى دهشات زهرة اللؤلؤ الممتدة بطريقة عمودية ناحية الأسفل. كما وجدتها في خرائط المصحح وكما دخلتها بعد ذلك لتصبح منفاي الأخير، المنفى الطوعي الذي اخترته عبثاً ككل اختياراتي السابقة، لاستبدل حياتي التافهة بذاكرة الآغا الأبيض. أحمل إرثه القديم.

دخلت المتاهة وكأنها بنيت من أجل روحي، إلفة ليس من السهل إقامة التوازن بينها وبين ما كان يحيط بي... ورغم السلالم الكثيرة التي نزلت أو صعدت عليها فإن استجابتي الأولى أليفة وكأنها مكاني الذي ولدت فيه. فلم أتعثر أو أصطدم بدرجة عالية أو مكسورة. وشعرت بأني سيد المكان وأستطيع الذهاب إلى غرفة نومي دونما الحاجة إلى دليل أو نور شمعة. لكني عندما توسطته وأصبحت تحت القبة الهائلة شعرت بضآلتي وأنا أنتشر بآلاف الأحجام على قطع فسيفسائها.

اختلطت صورتي مع الدعاء. همست به فتلقفت القبة الكبيرة همسي وانفتحت آلاف الأفواه من سقفها لتردد معي الدعاء.

ـــ يا رب احفظ حلم الآغا الأبيض.

خدعة الآغا مكتوبة بخمسة خطوط عربية متقنة متداخلة مع بعضها تملأ المكان. على الشرفات والجدران والسقوف. الدعاء مازال يحتفظ ببهائه وألوانه. حروفه بارزة

منقوشة على حيطان المتاهة.

ـــ يا رب احفظ حلم الآغا الأبيض.

وجدته في الأروقة مخطوطاً بثلث القلم تلمع من حوله أصداف أسماك مذهبة ومتداخلاً مع زخرفة كيزان الصنوبر بالنسخ المنحني الطياش الذي يدور بحرية ويعطي إحساساً بالاستمرار إلى ما لانهاية... وجدته في الساحات وحدائق الزهور يشغل أسيجتها مع زهرة اللوتس بهندسة الثابت المستقر.

وعلى القاعات الكبيرة وحمامات الجواري الوسيمات. امتدت يد الناسخ ونقشت على صدور العقبان والصقور الدعاء بالرقعة الفارغ من الحياة لتسلبها حياتها... وجدته على القناطر والبوائك يتخلل المراوح النخيلية يمر بينها بانحناءاته الأخاذة وينساب برقة لقتل فراغ الشكل.

ميّزته بصعوبة على باب الشريعة وسط قوانين الآغا وفرماناته تموهه زخرفة الإجازة الزرقاء والخضراء... الدعاء لم يتغير، ترفعه أكف منحوتات بشرية إلى السماء

ـــ يا رب احفظ حلم الآغا الأبيض.

المنحوتات نفسها مزخرفة من الرأس إلى القدم بأشكال هندسية مجردة، نجوم مثمنة معينات، مثلثات. لتسلب الشكل جسمه... ثم رأيت آثار أقدام الآغا على بلاط الرواق المغبر وكأنه لم يغادره بعد، يحفظه الدعاء.

شممت رائحة تبغه وأنصتّ لوشوشة جواريه قرب نافورة مياه. «وسيمات وبدينات» كما رآهن الفرنسي فنان الذكريات ورسمهن جالسات أو واقفات كصف من الدمى بثيابهن الحريرية البراقة يتوسطهن الآغا والأميرة تحتضن ركبتيه.

وميزت وجهه وفأسه الرهيب وسط معاركه التي لا تنتهي. رأيته في أواخر حياته على عملته المعدنية كملك الديناري بأنفه المعقوف وذقنه المشذب بعناية محاطاً بدائرة الدعاء نفسه.

وشعرت لحظة بأني قريب منه. ربما أكون أحد أسلافه أو ضحاياه. «المتاهة» كأي وجود سري تستعصي على من يتعامل مع هندستها وأروقتها ودهشاتها كبناء مجرد، لذلك بقيت ثلاثة قرون مختفية خلف جدرانها وبابها الوحيد المشرع عن ظلمة يسكنها الغموض بانتظار من يدخلها ويفتض عذرية جدار الدهشة.

كان المصحح في خرائطه يحاول أن يكيّف عالم المتاهة فأشار إلى أمكنة أشبه بالمقصورات بأحجام وأبعاد متفاوتة. أربع منها رئيسية وواحدة عن زهرة اللؤلؤ.

مرسومة بنزق واضح وكأنها أعجزته، واختار للأمكنة اسم الدهشات. يفصلها عن جزء القبة المكشوف جدار دهشة الكوفي المبني من الخارج بحجارة كبيرة غير مصقولة تحسستها بأصابعي فشعرت بعدوى المكان.

الدهشات بلا نوافذ أو كوى وبلا أبواب. لا تغادرها الروائح ولا الأصوات ويتعطل فيها الزمن لأنها خارجة عنه ومبنية مع حركة الجوزاء حتى لحظة دخولها في برج الجدي وهي اللحظة التي يتوقف فيها الزمن في الكون كله ثانية واحدة جزّأها فلكيو الآغا إلى خمس دهشات ملونة وفي تلك الثانية أغلقوا الجدار، فتلقفني فراغ الزمن المضغوط إلى لحظة سائبة ودخلت الدهشة.

رأيت النور والشمعة العجيبة التي لا تنفد والمشعبذ بملابسه الزرقاء يحتضن ذبالتها المرتعشة بسبب الريح الغربية التي أيقظت روحها. فتكور المشعبذ حولها يحميها بكفيه وجسده. وعندما هدأت واتسق نورها رفع رأسه ناحيتي ببطء ولمحت على شفتيه ابتسامة ساخرة اختفى على أثرها مخلفاً زرقة نقية لونت الدهشة. شممت من خلالها عطر الأميرة. رائحة احتجت إلى الكثير لأميزها — طيب تركي ممزوج بالصندل — ورأيت جسد الأميرة الناحل كالطيف يهرب مذعوراً.

إنها أشبه بالحلم هذه الزرقة النقية المحاطة بأربعة جدران ملساء، مصقولة بالميناء تكثف نورها ودفئها قباب صغيرة ترتبط بقناطر بدون أعمدة وتغطي أربعة إيوانات ضخمة. أبهاء فسيحة تقوم سقوفها على عقود مدببة مغطاة بالقاشاني الأخضر الضارب للزرقة لاختزان وشوشة الأميرة، همسها وحتى اطرافة جفنيها. . . كل شيء كالهمس ينساب برقة ويصل أذني مربكاً تموهه عقود طويلة.

الدعاء ذاته. يا رب احفظ حلم الآغا الأبيض. وجدته في دهشة الكوفي. ثابتاً مستقراً. يمتد من أسفل كأذرع وأصابع بأشكاله الهندسية المحسوبة بدقة على الجدران الأربعة ويعطي إحساساً بالثبات والرسوخ.

أصابع الناسخ امتدت لسلب روح الدهشة وتعويم شكلها حتى لا تشعر الأميرة بالضجر. وجدت مخطوطات في ركن الدهشة تركها ورّاقون على عجل. أوراق صفراء تحولت إلى نثار عندما تصفحتها، وجه الآغا بذقنه المشذب بعناية وأنفه أنف الصقر تحول إلى نثار هو الآخر عندما لامست أصابعي صورته، للورقة في الدهشة حياة واحدة بمجرد أن تلامس تهرب. أنا لا أفهم الأحجية، الخدعة. . . كلمات الوراقين ووجه الآغا امتزجت مع بعضها والتصقت بثيابي وشغلت فراغ المكان. فأصبح جسدي خفيفاً وكأني

أريد أن أطير. الأحجية القديمة نفسها. . . النبوءة.

شعرت بيد توضع على كتفي، دافئة وحية. أعادت الثقل إلى جسدي. «المصحح» رأيته. فقال ــ أنت في دهشة الكوفي، هنا لا حساب للماضي ولا للحاضر، إنها حيلة فلكية بارعة لاختزال الزمن ولا أنصحك بالتوغل أكثر. . . إنه الفراغ. . .

ارتجفت شفتاه حينما نطق الكلمة. أمسك بكفي: لنخرج من هنا. وسحبني وراءه.

قلت: والأميرة؟!

قال: إنهم وهم.

وهرب ناحية جدار الدهشة فتحركت الريح الخاملة واضطرب نور الشمعة، جريت نحوها مذعوراً أخفي ذبالتها بكفي وأحميها بجسدي وعندما هدأت واتسق نورها كان المصحح قد اختفى. لكنها الابتسامة الساخرة ذاتها. ارتسمت على الجدران الأربعة برضى.

الريح حملت نثار الكتب، كلمات الوراقين، صورة الآغا الأبيض بسالفيه الأشيبين وأعادت للدهشة زرقتها النقية ووضوحها الأخاذ. فظهر طيف الأميرة مرة أخرى، انبثق من وسط الإيوان الضخم. عيناها تدعوانني للنزول أكثر، لمحت بريقها الأخاذ قبل أن يخفيها الجدار. . . أظنها أشارت لي. أومأت برأسها فتتبعتها مأخوذاً بذلك الجمال، الذي لا أملك إلا أن أحزن حينما أتذكره.

اللون الأزرق بدأ يضمحل ويكتسب خضرة باردة انفتحت على دهشة الفارسي المشبعة برائحة البخور المنبعث من موقد في الزاوية. دخان أزرق كثيف تشوبه خضرة تبعثها الجدران وحروف الدعاء. الدهشة خضراء. فارغة، صامتة وحزينة.

يا رب احفظ حلم الآغا الأبيض.

تنساب الخطوط برقة، نحيفة ودقيقة. تتضخم وكأنها قطعت، تلتقي عند السقف. قوارب وأشرعة مزينة بالنقاط. لونها أخضر تسبح في فراغ الزمن.

زهور «اللاله» تحيط بالدعاء وتنتشر بإيقاع رتيب ومنسجم، على الجدران والقباب وتكون خليطاً مدهشاً من الرسوم لتعيد بداية تكوين الخليقة.

هذا «آدم» يستعد لأكل التفاحة مع حواء وقربهما الشجرة والأفعى. نوح يبني فلكه في الوقت الذي يفور فيه الماء من التنور. ابراهيم يخطو فوق النار. مريم العذراء تحمل وليدها العاري. وهذا المسيح يبرئ البرص والمجذومين. والوحي في طريقه إلى الغار. والحسين مع رفاقه يسيرون بمواكبهم إلى الشهادة.

عشاق الخيّام يتحلقون حوله وتلامذة النظامي يستمعون. الشيرازيان يسيران على مرج أخضر. وأبطال الشاهنامة جميعهم أحياء يتوسطهم الفردوسي الشيخ وبيده كتاب الملوك.

الدخان يحمل الموجودات كالسراب، يضفي عليها أبعاداً هائلة فتظهر ضبابية بشكل متعرج. رأيت الفلكي صانع الدهشات الخمس وهو ينتظر لحظة دخول الجوزاء في برج الجدي مع عدته الهندسية الغريبة التي أمسك بها ذاكرة الأغا وخزنها بصندوق زجاج. اقتربت منه أرقب الذاكرة من خلف الزجاج. قال دون أن يرفع عينيه:

ـــ احذر.

جلست إلى جانبه، ذاكرة الأغا قطع كريستالية ملونة ومرصوفة بنظام دقيق وملتصقة مع بعضها حول الحلم الملون، زهرة اللؤلؤ الكبيرة... الفلكي مشغول بالانتظار ولم يأبه لوجودي. عيناه حمراوان تحيطهما هالة سوداء مخيفة. تنتقلان بسرعة على الخارطة ومواقع البرجين... الذاكرة كسول تتمطى وتتحرك ببطء لتأخذ شكلاً آخر. فحملتها بيد مرتعشة ووضعتها بحضني.

اضطرب الكريستال وكأني أيقظت روحه. بدأ يتحرك، يصطدم بالجدار الزجاجي ويتلاصق مع بعضه ويكوّن أشكالاً هرمية، مكعبة ودائرية.

قال الفلكي: احذر لا تطلق الذاكرة.

هدأ الكريستال وزحف ناحية بعضه والتصق، وعاد الفلكي يتابع مهمته بانتظار اللحظة التي يُحبس فيها الزمن... لحظة المصحح التي كان يبحث عنها في ظلمة المعابد وعلوم الأقدمين. كان يقول. عندما اكتشف سر هذه اللحظة سأفتح المتاهة.

ربما كان يقلقه الموت، لأن سرقة لحظة من الزمن وإيداعها في أماكن لا يخترقها نور عالمنا هذا ولا هواؤه ـــ كالدهشة ـــ تجعل حيوات المكان تعيش قروناً دون أن تشيخ.

قال الفلكي وكأنه حدس ما أفكر فيه: لا تأخذها.

ولمحت على شفتيه ابتسامة لم أفهم مغزاها. حملت الذاكرة وتراجعت بقلق إلى الخلف.

ابتعدت عنه كثيراً ولم أعد أرى من ملامح وجهه سوى ظل الابتسامة الساخرة التي سلبتني القدرة على تمييز الأمكنة التي أمر بها، فاختفى اللون الأخضر تماماً أثناء تراجعي القلق دون أن أعلم أني خرجت من دهشة الفارسي ودخلت دهشة الديواني الحمراء، التي لم أتمكن من الإحاطة ببنائها لأنها مصممة على شكل دهليز أحمر ينتهي إلى دهاليز أخرى

متشابهة. لونها غامق يأتي على شكل دفعات متوجة ويشيع الخوف في النفس. وكأني وسط بركة دماء.

شعرت بلزوجة تحت قدمي ووجدت صعوبة بحملها فاستندت على جدران الدهليز أتلمس طريقي. الجدار ناعم وصقيل برودته سرت بجسدي فارتعشت. اصطدمت أصابعي بحروف الدعاء البارزة. وكأن الدعاء هو الرابط الوحيد الذي يشد الدهشات إلى بعضها ويشي برغبة الأغا الأبيض في البقاء إلى الأبد.

المتاهة لا تمنح أجوبة. . . يا رب احفظ حلم الأغا الأبيض.

الأصابع نفسها نسخت الدعاء على الجدران والسقف بخطوط الديواني المتصلة مع بعضها بانحناءاتها التلقائية وكأن الدعاء كلمة واحدة مكررة آلاف المرات على امتداد الدهليز الأحمر. دخلته أحمل الذاكرة. إنه ضيق وملتو، يتفرع عند كل مترين إلى فرع آخر ويستمر التفرع إلى عدد لا يحصر ليصنع متاهة صغيرة في قلب الدهشة، ويتوقف التفرع في غرفة صغيرة يملؤها الدعاء.

وجدت بداخلها ثلاثة شيوخ حول منضدة ترتفع عن الأرض قليلاً، جالسين بصمت، يضعون أيديهم في حجورهم ويحدقون بالمنضدة. ثيابهم حمراء ولحاهم طويلة بالغة الطول.

الغرفة صامتة ونظيفة. دخلتها مع الذاكرة المجنونة التي لا تثبت والتي أثارت صخباً رفع على أثره الشيوخ الثلاثة أبصارهم بوقت واحد ناحيتي. عيون حمراء مجهدة تحيطها الهالة المخيفة ذاتها. ملامحهم متشابهة ولحاهم بيضاء تتخللها حمرة خفيفة. نظروا إلى وجهي وإلى الذاكرة ثم عادوا يحدقون بالمنضدة.

قلت: إني أبحث عن مخرج؟

وفجأة شعرت بأنهم يبتسمون. ابتسامة المشعبذ والجدران. ابتسموا دون أن يرفعوا أبصارهم عن المنضدة. فاجتزتهم متابعاً الدهليز الأحمر المتفرع فأجد نفس الغرفة ونفس الشيوخ الثلاثة أسألهم عن المخرج فيبتسمون.

شعرت بالإجهاد من دوراني الطويل الذي لا ينقطع، دون أن أصل أو أكتشف أشخاصاً آخرين يمكن أن أحدثهم باستثناء الشيوخ الثلاثة الصامتين والذين أجدهم في نهاية كل دهليز.

قلت مهدداً: يجب أن أخرج.

ودخلت غرفتهم الحمراء. فركضوا ثلاثتهم بخفة عجيبة والتصقوا بالزاوية واحداً

خلف الآخر. وعلى وجوههم نفس الابتسامة. . . رميت الذاكرة على الأرض فتقافزوا بفرح بانتظار أن أطلقها. قربوا أنوفهم الكبيرة منها. فركلتها بعيداً وصرخت:

ــ ضجرت. . .

تضخم الصوت آلاف المرات. تلقفته الممرات المتقاطعة وتشكيلات الحروف الملتوية وأعادته ناحيتي بشكل لا يحتمل. واستطعت تمييزه:

ــ الآغا الأبيض حزين.

الصوت يزداد تضخماً في دورة لا تنقطع، يدور في الدهشة ولا يجد مخرجاً ينفذ منه ويصل أذني بدوي هائل. فركضت إلى أماكن أخرى أحتمي بها فلا أجد غير الغرف المربعة والشيوخ الثلاثة بملامحهم المتخشبة يظهرون في كل مكان والصرخة نفسها بوقع أشد ترجع إلى أذني في دورة لا تنتهي أيقظت حياة الدهشة، وظهر المشعبذ ووقف وسط الممر وفتح عباءته وأمسك الصوت.

قلت هامساً: سأخرج.

قال المشعبذ وهو يمضي مبتعداً: اخرج من الغرفة الحمراء. إنها بلا جدران. فمشيت قليلاً وانعطفت إلى أول غرفة صادفتني، الشيوخ الثلاثة عادوا إلى أمكنتهم حول المنضدة يحدقون فيها بصمت. والذاكرة مرمية بعيداً عنهم. حملتها واجتزتهم. اخترقت الجدار. النور الأحمر الذي توهمته جداراً. ووجدت دهشة الثلث الكريستالية ذات اللون الرمادي الذي يمنح للأشياء روحاً استشعرتها من الوعاء المزجج بالكريستال. جلال الخط المعقد ينساب بحذر على صخرة محفورة وسط الدهشة، يرتفع منها ثمانية أعمدة رخامية تغطيها قبة صغيرة تضم بحنو قبراً عليه أوراق آس لم يتيبس بعد. وقرب القبر وجدت الأميرة مع بهلوانها وكأنهما في «بابة» ظلية وهي تحركه بسوط جلدي. . . ملابسها رمادية، هي ترتدي ثوباً من الترتر البراق تمسك طرفه بيدها اليسرى وباليمنى تضرب بالسوط على الأرض فيتحرك البهلوان محاولاً إسعاد الأميرة.

يقرب وجهه من قدميها وجسده يهتز. كأنه يبكي. تبدو حركاته ضارعة وإيماءاته حزينة. إنه يمثل. يطلب منها شيئاً وعجيزته تهتز. ربما يريدها أن تعتقه؟

لامست شفتاه قدميها. لكن تعابير وجه الأميرة لم تتغير. صارمة وقاسية. رأيت يدها النحيلة ترفع السوط إلى أعلى. أعلى من رأسها وعلى امتداد ذراعيها وتنزله على ظهره. رفيعاً وقاسياً. مزق ملابسه وغار بعيداً في الجلد، فتدفق الدم من الجرح. انبثق بقوة على الأرض وسقطت قطرات منه على وجهي. دافئة وممتلئة بالحياة. ابتسمت الأميرة، فأدار

البهلوان وجهه. أنف كبير بشع وفم أحمر واسع يلتقي مع الأذنين وبشرة مطلية بطلاء أبيض. ابتسم لأميرته ورقص. إنه خفيف كالريح حتى ظننت أنه سيطير أثناء دورانه حول نفسه.

ارتفعت قدماه عن الأرض وازداد جسده ارتفاعاً مع دورانه السريع فحلق في فضاء الدهشة. كتلة رمادية لم أعد أميز منها سوى بياض الوجه.

تحرك الكريستال وأصدر صوتاً توقف على أثره طيران البهلوان وسط الأميرة. . . نزل مبهوراً إلى الأرض يحدق بوجهي. ضيّق عينيه كمن يريد أن يتذكر وفجأة شعرت بانه سيبكي. تلاحقت أنفاسه وعيناه تنتقلان بين وجهي وذاكرة الآغا. ورأيت دموعه تتساقط. سيل من الدموع لا يعقل سرق مني اللحظة التي توهمت فيها أن البهلوان حقيقة.

لكنها الدموع، دافئة أيضاً، نزلت على وجهه وملابسه وتصاعد منها بخار. كونت تحته بقعة واسعة تبعث بخاراً. حتى ظننت أن البخار سيحمله ويطير. وكأنه حدس ما أفكر فيه اقترب مني وأمسك يدي. جسده حار ناعم ويده شاحبة رقيقة عليها آثار سياط قديمة ودماء قال: لماذا؟!

خرجت الكلمة من فمه كالهمس فلم أفهم ما يعنيه. . . ضربت الأميرة بسوطها على الأرض فتحرك راقصاً وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة، لا تشبه ابتسامة المشعبذ ولا الشيوخ. وكأني رأيتها ذات يوم، بل جزمت بأني أعرفها.

تكرر مشهد الضرب مرة أخرى فارتفع جسد البهلوان في الدهشة. رأيته يصعد إلى أنصاف القباب وتحتويه القبة الرمادية الواسعة حتى لم أعد أراه. وعندما اختفى تماماً وجدت الأميرة تقف إلى جانبي. . . شممت عطرها الأخاذ قريباً من أنفي وسوطها يتحرك قرب قدمي عليه آثار دماء البهلوان.

رفعته عالياً وضربت به الأرض فانفلت مني جسدي وتحرك يرقص. انساب بطريقة غامضة لا أفهمها وتحررت قدماي من تشبثهما. وبدأت أدور حول نفسي مع الذاكرة التي بدأت تصدر أصواتاً مؤلمة أثناء اصطدامها بجدار الصندوق الزجاجي، فأخرجتني من وهم الجسد فتوقفت.

الأميرة تبتسم بسخرية، فابتعدت راكضاً أحتضن الذاكرة وقد استعدت جسدي واختفى طيف الأميرة وفرقعة سوطها وما عدت أرى الجدران. . . لا جدران أمامي ولا خلفي، مجرد فراغ موحش ثقيل وصمت. حتى الذاكرة أخافها الصمت فلم تصدر صوتاً، ألمح حركتها المضطربة. جنون قطعها وهي تحاول الالتصاق مع بعضها لتأخذ شكلها

الطبيعي دون ضجة. لكن حركة جسدي الخائف تمنعها من الثبات.

ومن بعيد لمحت الصخرة المحفورة على شكل قبة بثمانية أعمدة، فاتجهت ناحيتها وتحسست أوراق الآس الخضراء وبرودة الرخام الرمادي. جلست عند حافة القبر المزين بالدعاء.

يا رب احفظ حلم الأغا الأبيض.

وضعت الذاكرة المنهكة عليه فرأيتها تزحف نحو بعضها ببطء وتلتصق مكونة دائرة تحتضن الحلم الملون وتهدأ حتى خلتها نامت، فأصاب جسدي خدر طفيف ورغبة في النوم لا تقاوم فاستندت على حافة القبر أحدق بالفراغ الرمادي... مساحات لامتناهية مضببة ودافئة يغلفها الصمت... الفراغ... الفراغ الذي كان يخشاه المصحح وحذرني منه. يبدو أني توغلت بعيداً. ذهبت إلى أماكن لا أدركها.

كأن اللعبة أوشكت على النهاية. لا جدران يمكن اختراقها وليس هناك سوى الأميرة والجسد الذي يهرب إلى الفراغ... هل أعود إليها؟! لكنها وقع أقدام، ضربات خفيفة على الأرضية الناعمة ونشيج رجل يبكي. أسمعه بوضوح... إنه البهلوان... جلس على القبر وأخذ ينظف جراحه ويبكي، دم حقيقي ودموع حقيقية. ربما هي المرة الأولى التي أجد فيها حقيقة داخل المتاهة.

جلس قرب الذاكرة، أبعدها عنه وهو ينظر إليها باشمئزاز ثم بدأ يمسح الأصباغ عن وجهه. رفع الأنف البشع وظهرت سمرة الوجه الأليفة والذقن الحليق.

يا إلهي... هل من الممكن أن يكون هو؟! المصحح. هي هي خدعة الأغا الأبيض، خيالات الفلكي، نور المشعبذ؟ لكنه الوجه الحائر نفسه الذي يبحث عن سر اللحظة... لكنه لون الدهشة المتموج هو الذي يحرك الملامح فيربكني.

قلت: المصحح؟!

قال: لا فائدة: إنه الفراغ.

أمسكت كفه فأكمل: لا خيار لك، أطلق الذاكرة.

توقف خلفي وشعرت بأصابعه تنغرز في كتفي... فدفعت الذاكرة وشاهدت سقوطها وتناثرها على الأرض الصلبة. قطع زرقاء تحلقت حولي وأصابع نحيلة غطت عينيّ، أغمضتهما فشممت رائحة طيب تركي ممزوج بالصندل، رائحة لذيذة تدور بها جوار من حولي «وسيمات وبدينات». إحدى عشرة امرأة بأعمار مختلفة تتوسطهن الأميرة... سمعت أنغاماً شرقية تنبعث من جدران الدهشة البيضاء. موسيقيون مهرة

يضربون على الأعواد والصنوج. بياض باهر يحيط بي. الجدران، الدعاء، الأثواب.

توزعت النساء خلفي وبعضهن جلسن أمامي، رائحتهن بعثت في جسدي رغبة وحشية، جوع سنين طويلة أزاحته أثداء عارمة تريد أن تنفلت من جسدها. تندلق على رقبتي وأكتافي وفخذي وأصبحت محاطاً بنعومة باهرة وضحكات.

مددت ذراعيّ على سعتهما وانغرست أصابعي بلحم طري ينبض بالحياة. أجساد تتلوى، تندفع استداراتها إلى كفي. تأوهات وغنج أبيض. . . دخل القصر شخص لا أعرفه، لم أره من قبل، ملابسه غريبة ملونة ولون شعره أشقر. إنه لا يشبهنا. اقترب مني وعدّل من وضع عمامتي ورتب النساء. أبعد أجسادهن عني وقال: ابتسم.

فابتسمت. أخرج الرجل الغريب فرشاة وألواناً وبدأ يرسم. أصبح كل شيء جاداً. توقفت ضحكات النساء وأخذن مظهراً جدياً. . . الأميرة جالسة عند قدمي وقد أرخت شعرها، شفتاها مضمومتانِ وملامحها صارمة قاسية. صفحة وجهها بيضاء تعكرها صفرة تزيدها جمالاً فلم أتمالك نفسي وأمررت أصابعي على رقبتها. . . تذمر الرجل الغريب وأعاد يدي إلى حضني وقال: اهدأ.

لم تعد تستهويني، جالساً لساعات طويلة بلا حراك وهو يلتهم أجساد نسائي بعينيه الخارقتين، صدورهن البيضاء وأقدامهن البيضاء.

همست في أذن الأميرة: ضجرت.

صرخ أحد الحراس بصوت مريع: الأغا الأبيض حزين.

انتقل صوته كالصدى، تلقفه حرس القصر والمدينة وحرس الأبواب والحصن ونادوا به في أرجاء المدينة. صدى غاضب، حزين ومهدد، تحرك على أثره كل شيء.

سمعت هرجاً، شاهدت أعلاماً ترتفع، ملونة بألوان حلمي، رأيتها تظهر حول نوافذ قصري، غناء مبهج وأطفال يلبسون ثياباً ملونة توزعوا على النوافذ وأخذوا يصفرون بألحان شجية. فالتصقت بي النساء أكثر، أنفاسهن الحارة تلفح عنقي. ونصبوا أمامي حلمي الملون ذا الخمس دهشات، زهرة اللؤلؤ التي حلمت بها طويلاً وابتكاري الذي لم يسبقني إليه أحد، رغبتي في صنع حلم مستحيل يحفظه الدعاء.

احتضنتني الأميرة وقالت: إنه قصري، حلم الأغا هو قصر الأميرة.

أحضر المشعبذ نوره الأبدي، الشمعة العجيبة التي لا تنفد.

قال الفلكي: نحن ننتظر لحظة دخول الجوزاء في الجدي.

وعاد يحدق بخرائطه ومقاييسه، أخاف عيني هذا الرجل. إنه يعرف أشياء لا

تصدق... هو الذي احتال عليّ وأخذ ذاكرتي ليضعها في الحلم... رأيتها تتسرب من رأسي، قطع كريستال ملون. تساقطت على الأرض وانتشرت في القصر كقطرات الزئبق. تتقافز دون أن يستطيع أحد إمساكها. اختفت جميعها خلف الستائر والخزائن وفي الأركان وتحت أقدام حرسي. زحفت خلفها وفي رأسي فراغ لا أفهمه وكأني ولدت للتو، مجرد طنين بدأ يحشر بقعقعة سلاح وهمهمة.

ــ مولاي الآغا لا تتعب نفسك في البحث سأتولى الأمر بنفسي.

صرخت: امسكوها...

حدثت في القصر بلبلة وأخذ الجميع يبحث عنها وهي تتقافز، تفر هاربة إلى أماكن أخرى. فشعرت بالرعب وبدأت بالصراخ. زحف الحرس على بطونهم يتربصون بها وعندما تصبح بين أصابعهم تفلت إلى أماكن أخرى فأصابهم الضجر وبدأوا بسحقها بأحذيتهم لكن دون جدوى تتقافز بينهم، زرقاء زئبقية وهو يبتسم بسخرية ويحمل بيده طائراً ميكانيكياً صنع من زجاج وأطلقه خلف الذاكرة.

أدار الطائر عينيه في أرجاء المكان ثم انقضّ خلف القطع يلتقط الكريستال بحذق ويصدر أصوات أبواق. التقطها واحدة إثر الأخرى حتى تلك التي اختفت في شقوق الجدران وكأنه يعرف عددها. وعندما انتهى أطلق صوت بوق طويل وتوقف خاضعاً قرب قدميه.

ربت على ظهره وحمله، ثم خلع رقبته ورجليه وذنبه فأصبح صندوق زجاج وقال:

ــ الآن انتهى الأمر... ستبقى إلى الأبد تنتقل وسط خمس دهشات.

رفع الفلكي رأسه من الخرائط وصرخ.

ــ إنها اللحظة... قادمة.

رفحاء ١٩٩٣

حصار يوسف

سلام ابراهيم

يجلس يوسف على كرسيه في زاوية الغرفة التي هدأت للتو. يدير عينيه المخذولتين باكتئاب. الأرائك فارغة، بقايا الطعام متناثرة على الطاولة القائمة وسط الغرفة. كل شيء ينام الآن، الكتب في أدراجها، الليل في الأزقة، القطط، الستائر الساكنة. الخطى التي كانت تضج في الغرفة تحولت إلى دخان. رائحة الخمرة قوية تكتم أنفاسه. يلبث خاملاً متكوراً يفكر في يوم العمل المتعب الذي ينتظره وجريه وراء أخيه

ـ اجلب الحامل... أغرز الشاخص... ناولني قدح ماء...

ويرميه بنظرات ضيق وازدراء تحيله رماداً... أين يذهب... إلى أين يلجأ... إلى أين...؟. ينهض من الكرسي... يبسط الفراش على البلاط، يستلقي، شيء ما ثقيل يضغط على رأسه. هذا السكون... تك... تك... تك... دقات الساعة الجدارية رتيبة ترن في السكون. الضوء أحمر شديد الخفوت... الباب مغلق... شيء ما يكبل جسده... مشدوداً إلى الفراش... تك... تك... تك... تجيء من خلف رأسه... السكون... الدقات. الدقات السكون. يسمع خطى تهبط السلم خفيفة ناعمة، تتوضح، تقترب، خطى هادئة... خطى أنثوية... تك... طب... بالتناوب... طب... تك...

... يجلس منزوياً على أريكة خشبية بزاوية الغرفة، زهرة تروح وتجيء أمامه بثوب أسود فضفاض فوالدها مات قبل أشهر، سعاد بوجهها المستدير وشفتيها المكتنزتين الحمراوين وعينيها الواسعتين وقامتها القصيرة يلمحها تلج الغرفة الأخرى

وتعود بعد لحظات بثوب جديد شفاف. حلمتا الثديين الناهدين... خطوط اللباس الداخلي... وظلال السرة المعتمة بدت واضحة وهي ترتمي جنب عشيقها الأسمر. ليلى بوجهها البيضوي وأنفها الأقنى ترتخي إلى كتف زوجها واضعة ساقاً على ساق بشكل انحسر معه ثوبها عند منتصف الفخذين فبان لحمها الحنطي اللدن. ضجيج الضحك يدوي بصمته... وحيداً منزوياً يخالس النظر وهم يرتشفون الخمرة.

ــ ثوبي جميل

ــ وجهك أجمل

ــ قتلني اللون الأسود

ــ كان والدك نبيلاً رحمة الله عليه.

... ها... ها... ها... الضحك. جامداً... لا أحد يتوجه ليوسف بكلمة... الظلمة خلف النافذة. سعاد تنحني إلى وجه صاحبها وتمص شفتيه... يرتفع الثوب الشفاف القصير كاشفاً منبت الفخذين البيضاوين من الخلف... جامد الوجه... تك... طب... الخطوات تزداد وضوحاً، مسمراً في فراشه، موتور الأعصاب، يحاول النهوض يستند على ساعديه... تجمدتا لصق البلاط كقطعتي خشب... طب... طب... يد تعبث بأكرة الباب... صر... صر... أزت الأكرة...

تقول زهرة:

ــ اصعد ونم معنا على السطح.

يجيب بصوت متخشب:

ــ لا... سأنام في الغرفة.

يصيحون به:

ــ لماذا؟

ــ...

يصرّ وبعينين حزينتين يتابع أقدامهم ترتقي درجات السلم... وجه أبيه القاسي... زوجة أبيه يلفان حاجياته بصرة ويلقيانها في الشارع. يقول أبوه:

ــ كبرت لديك ثلاثة أخوة.

تقول زوجة أبيه:

ــ اذهب إلى أمك.

وجه أمه المهجور... الهرم... غرفتها الباردة الرطبة في زاوية نزل قديم بزقاق من

أزقة بغداد القديمة، لا تكف عن الندب والشكوى... ها... ها... صدى الضحك يتردد برأسه... تك... تك... طب... تك... الخطوات تختلط على السلم المفضي إلى السطح.

... ليس لدى سواك... لكنك شخت قبل الأوان... وتركتنا مذعورين نلوذ بزوايا غرف عتيقة، مشققة الجدران، باردة نذبل في رطوبتها ونخشى وقع خطى تقترب... فنتفرق هلعاً هاربين من النوافذ، قافزين من السطوح.

تأخذه حيرة الشارع... إلى أين يذهب؟... إلى هذا... أو ذاك... أو... الكل متشابهون، الكل لديهم مشاغل تلهيهم عن همومه... وأمه... لا إنه يكتئب من الشكوى ووجهها المهجور القانط يفتت قلبه... الأكرة تكمل دورتها، وعلى الضوء الأحمر الخافت يندفع الباب إلى الداخل مليماً مليماً... ظل ينضح أنوثة يظهر في شق الباب... الخوف... الخوف... يسد عليه الأبواب... الكل يتحاشاه... الكل ينخطف لونه حالما يراه... تك... تك... تك... دقات بطيئة قاتلة... تنفتح الباب إلى آخرها... تدخل زهرة بقامتها المتوسطة متوردة الوجنتين، نضت الثوب الأسود، وارتدت فستاناً أحمر شفافاً... تدنو منه... متجمداً في فراشه يتصنع الإغفاءة... تمد ذراعها البضة العارية، تزيح الغطاء عن جسده حد النصف، يباعد أجفانه، تميل فوقه قمراً من نار... الثوب شفاف أحمر... الصدر عار أحمر... الوجه أحمر تقطر كلماتها الناعسة:

ـــ استيقظ لتذهب مع أخيك إلى الشغل.

تك... تك... الاحمرار يغطي جسد زوجة أخيه المكتنز، ثوبها الناعم الطويل يخط خلفها وهي تعود أدراجها... تغيب في ظلال الممر العاتم... أصابعها الطويلة الغضة تلتم وتسحب الباب من أكرتها، تسدها. الخطى الناعمة تخفت شيئاً فشيئاً، صرير باب آخر يفتح... شيء ما يدور، انهمار ماء حنفية، طرطشة صوت أقدام تصعد السلم... تب... تب... تب... قطرات الماء تتساقط على البلاط... دقات الساعة رتيبة... تك... تب... تك... تب...

يقول وجه شاحب:

ـــ أوثقوا ذراعيه خلف ظهره بعد أن خلعوا عنه ملابسه ورشوا التيزاب على جلده قطرة قطرة.

ـــ...

ـــ عندما أطلقوه كان مرتج العقل.

ـــ...

ــ ظل يجوب شوارع المدينة بأسماله يكلم أشباحه.

ــ . . .

ــ صدقني. . اترك. . ط بالسياسة. . .

تك. . تب. . تك. . تب. . وجه أمه يشحب، يشحب، يصفر، تك. . يصفر. . أصابعها تستطيل عدة أمتار ناحلة. . . تبكي دون صوت بدمع أصفر، يحملها أبوه على ظهره ويهرول خارجاً إلى حديقة البيت الخلفية تصرخ. . . تصرخ دون أن يخرج صوتها، تغرز أظافرها بعنقه، يعض خصرها. . . جامد الروح ساكنها، ينظر إلى ما يفعله أبوه بعينين ثلجيتين.

تقول ليلى:

ــ أموت بك.

تهمس سعاد:

ــ الليلة يا حبيبي ماذا سأفعل بك.

وتنهض راقصة. . . يتلوى جسدها ويرتجف خلف ثوبها الشفاف وكأنها مصابة بالحمى، أخوه يغني بصوته الأجش:

«ما خطرتش على بالك يوم. . . تسأل عني»

وأنت يا يوسف من يسأل عنك، من؟ من. . .؟ وأنت الكل ينساك بحضورك.

ليلى تتمايل في جلستها وترتشف جرعة من كأسها المترع، زوجها الطربان يدندن وهو يغمض عينيه. زهرة تضحك بخجل وتهرع إلى المطبخ لتأتي بطبق آخر. . . تب. . . تب. . . تب. . . رتيبة ترن في السكون تك. . . تك. . . القطرات الرقاص. . . يرمي أمه إلى تراب الحديقة، يقيد يديها، يكمم فمها، يحفر بمعول لامع، عيناها الفزعتان تبحثان عن النافذة حيث يجلس، ينظر بصمت وشيء ما يشده إلى مكانه. السماء كالحة، يضع المعول جانباً، يدحرجها نحو الحفرة ويسقطها، تتمسك بالحافة، يدوس أصابعها ببسطاله الثقيل، عيناها الهلعتان المستنجدتان تغيبان رويداً. . . رويداً. . . تك. . . تك. . . طب. . . طب. . . قطرات الماء تزداد وضوحاً، تتلاحق تطغى على دقات الساعة الجدارية، ثم تصبح كطنين متصل. . . شيء ما يضغط على صدره، شيء ثقيل ـ يحلقون شعر الرأس بموس حاد، يقيدون يديه إلى كرسي حديدي يتوسط الغرفة، ومن بحر الظلام تسقط قطرة ماء على نقطة معينة من الرأس. . . تسقط الثانية. . . الثالثة. . . الفاصلة بين قطرة وأخرى ثابتة. . . الظلمة ولحظات الانتظار. . . القطرة تصير جبلاً. . . ويدفعونه إلى

حافة الجنون...

طنين الماء يقوى قليلاً... قليلاً، ثم ينهمر بهدير في الحمام... ـــ يجلس منزوياً على كرسيه، مهجوراً... متوحداً مع بؤسه... يشعر بالغثيان، يكاد يتقيأ... يغادر مكمنه مسرعاً نحو الباب القريب قاصداً المغاسل.

من الباب نصف الموارب للغرفة الأخرى، يبصر سعاد نصف عارية ملتصقة بعشيقها وهي تتأوه لاعقة أذنه يداه تعبث وتمسح فخذيها البيضاوين الممتلئين، يعود مرتجفاً إلى جلسته المنزوية... تك... تك... خرقت الدقات طنين الماء، دوّر عينيه... ستائر النافذة حمراء... الصمت... الصمت مطبق.

... يلهث... يلهث ناهباً رصيف الشارع يغط في الزحام، يتلفت بهلع متوجساً من وجوه مريبة تسعى خلفه وجوه أبواب تؤدي إلى أنفاق رطبة موحشة، يلهث... يلهث... مكبوت النفس بالرعب... كف ثقيلة تضغط على عنقه... تك... تك... طب... طب... أقدام تهبط على السلم، يزداد وقعها... طب... طب... تتوضح... طب... ضحك مغناج... تأوهات... يخفت طنين الماء يعود خريراً، ضحك مخنوق، جامداً على فراشه... حفيف ثوب ينزع... همس خافت... تأوه غنج، ضحك مكتوم، ـــ أنت مستعجل... ايدك يوه ه ه تك... تك... اش... اش... انتظر... انتظر... افتح زر السوتيان... خرير الماء يعود موصولاً، الستائر حمراء الباب أحمر، الليل أحمر، يستعر في مكانه، يترمد، وجه أخته البريء التي أخذها رجل غريب في ليلة عاصفة، وجوه أخوانه الهازئة... وحيداً يلطو في زوايا الغرف... مهملاً، منسياً... لا أحد يتوجه إليه بكلمة، وجه أمه المتظلم وهي تسقيه شاياً، وجه صديق يبهت يبهت ويذوي في عتمة الماضي والأقبية التي أخذته غفلة... طب... طب... أقدام أخرى تنزل على السلم، حفيف ثوب طويل، حركة أشبه بالعراك، حركة ثوب ينزع، جسد سعاد العاري، ليلى، زهرة، فحيح يأتي من تحت باب غرفة النوم، يقفز من فراشه... عينا أمه الفزعتان تغيبان في الحفرة، وجه أبيه القاسي، وجه أخيه الساخر، يسير على مهل، يلج الممر... تك... تك... لحيتك أوى لحيتك وخزتني... ها... ها... ضحك مكتوم... دعيني، لا، لا اتركني، لا لا لا أحتمل الله يخليك ما أتحمل اواه اواه اوى... ينزع قميصه... لم يبق عليه سوى لباسه الداخلي القصير... يقف... الباب على بعد شبر... خرير الماء... تك... تك... الدقات تهدر... الماء يهدر... الغرفة تهدر... يهدر... الماء الماء يهدر، يجرف الأشياء... تهدر الروح... يمد يده إلى أكرة الباب تزول الرجفة فيديرها ويدفع

الباب. برقت عيون في الظلمة من أجساد عارية الصمت ووميض العيون المتشهية، الصمت وضجيج الماء تك... تك... دوى الصمت يخنق الساعة والماء، الصمت ووهج العيون الفسفورية، ماذا يفعل؟ الظلمة كثيفة خيال، يتحرك لونه أفتح، يرقص، يخطر، يقترب، يبتعد، يريد... يريد... الزمن... ماذا؟ الزمن سبيكة رصاص، تنزلق يداه إلى لباسه ببطء... ينزله بأصابعه فيتكوم بين ساقيه... ضحكة مخنوقة، يسكن تمام السكون، يسمع آهة رفيعة، الظلمة والصمت الساقط مرة أخرى، يتحسس الجدار بأصابع متوجسة، يضغط زر المصباح... يطق... يرى نفسه عارياً، معروقاً، لاهثاً، في مرآة الزينة المقابلة، ووحيداً وسط صمت أشياء غرفة النوم الهامدة.

أرياف السليمانية / العراق

كانون الأول ١٩٨٢

هيبت سلطان

نجم محمد

ها أني قد أتيت إليكم راجياً أن تقبلوني واحداً منكم. سأكون باسلاً في تنفيذ كل ما تأمرون به. لا أخشى عدواً، ولا أتردد حين المصاعب... خذوني إليكم...! جربوا قناعاتي...! ولن تخسروا شيئاً بوجود شخص من أمثالي وسط حشودكم.

لا... لا... لا داعي للتفكير في حكايات مثل هذه...! سأتركهم وحدهم يحزرون لماذا قدمت إليهم...! ألم تصلهم أخبار جرافات الحكومة وهي تزيل من الوجود بيوت قريتي الجميلة وطاحونتها الصغيرة ومخابئ العشاق فيها...! تلك التي كانت يوماً مكاناً لمواعيدي السرية مع (روناك)... ثم لماذا سيرفضون استقبال صبي جاء ليلتحق بصفوفهم...! لهم كل الحق في كوني لم أبلغ السادسة عشرة بعد! ولكني على كل حال أقدر على حمل بندقية، وعلى القتال معهم ضد الحكومة. سأصوب وبالدقة على أي هدف سيختارونه، إذا ما أرادوا اختبار مهارتي في الرمي فلقد جربت ذلك مرات كثيرة، مع الصبية في قريتي، قرب حقول البطيخ والتبغ.

سأكون راضياً بحمل حشوات سلاحهم الطويل الفتاك، ذاك الأنبوب الحديدي الطويل الذي يسمونه آر بي جي. سأساعد الرامي وسأحمل حقيبة دواء مفرزتهم، إذا طلبوا مني ذلك. أو سأجرّ بغلهم الذي يستخدمونه في تنقلاتهم حين يكونون راجلين. ولتكن هذه

فترةاختبارلي!وليقرر حوابعدهامايريدون.. لنأطالبهمبحملبندقية...!

سأمهلهم الوقت الكافي للتفكير في جدوى إلحاقي مقاتلاً في صفوفهم.

خواطر كثيرة مرت في باله وعذبته طويلاً وهو يواصل المسير صاعداً، نازلاً، وسط

تلك التلال الخضراء في وادي (بست الشرغة)، متجهاً شمالاً للبحث عنهم. تمنى لو يلقاهم في أول قرية سيصادفها. لربما سيكونون مع سياراتهم الملطخة بالوحل، ليحملوه في واحدة منهن. وقتها سينتشي فرحاً وسينسى الدنيا وما فيها وهو يستمتع بلذة الحلم الذي عذبه لسنوات. سيجلس معهم في مؤخرة السيارة وسيحدق طويلاً صوب بنادقهم المنتصبة كالأشجار وهي مسنودة براحات أياديهم الغليظة. ستصفع الريح وجهه وهي تندفع قوية باردة، محملة برائحة أعشاب الطماطم والسلق والزهور. سيشبع بصره من مشاهد أرض الوادي الندية ونباتاتها الخضراء كل الفصول. ستطرب أذناه لسماع أصوات عجلات سياراتهم وهي تسرع ساحقة وبقسوة أحجار الحصى الناعمة وعلى طول الطرق الملتوية الخطرة في هذا الوادي الكبير.

لمحته حين تجمع رجال المفرزة لتناول وجبة الغداء تحت شجرة جوز عملاقة. ذاك الذي شاركني التهام صحن العدس، أسرّ لي أن صبياً قد التحق بنا في الأمس، وأضاف بأن بلدوزرات وجرافات الحكومة قد هدمت قريته فجر أمس وساوتها بالأرض، ولم يبق له سوى خيار المجيء إلينا وقد أفرح الجميع قدومه. واصل صديقي المقاتل حديثه وهو يواصل تقطيع رغيف الخبز إلى قطع صغيرة ثم ينقعها في صحن العدس لنلتهمها وبشهية. وحين شاهد علامات الحزن والصمت بادية على وجهي، راح يقص علي حكايات عن بطولات الفتيان الأكراد الصغار في المفارز، ولم أعلق على كلامه بشيء ولاذ كلانا بالصمت.

كان صبياً حسن الطلعة، قوي المنكبين، لم ينبت له بعد شارب أو لحية. وكنت قد شاهدته مرات كثيرة قرب مسجد القرية الكبير، حين كنا نزور قريتهم في جولاتنا وسط القرى.

فرح طفولي وبهجة يغمرانه في كل مرة وهو يلمح سياراتنا التيوتا المتجهة صوب القرية. كان يصيح وبأعلى صوته:

ـ جاء الجماعة... جاء الجماعة...

كنا نتوزع للغداء مجاميع صغيرة في بيوت الفلاحين، وكان هو يسبقنا إلى المسجد منتظراً رجوعنا بعد تناول وجبات الغداء وبعد عب أقداح كثيرة من الشاي الأسود الحلو يصر الفلاحون الأكراد على شربه رغم أنف الضيف وعدم رغبته أحياناً.

كان يجلس صامتاً يراقب كل حركة من حركاتنا، متطلعاً نحو أحزمة الرصاص التي تلتف حول بطوننا، ونحو بنادق الكلاشنكوف الطويلة والقصيرة، ونحو المسدسات

والقنابل اليدوية الصغيرة التي تتدلى كرمانات حقيقية من أحزمتنا.

قرابة الشهرين مرا على وجوده معنا، وبالتمام، منذ اليوم الأول الذي مر على هدمهم لقريته. . .

لم تتغير صورته في مخيلتي طوال تلك المدة، رغم البندقية الكبيرة التي صار يحملها على كتفه، ورغم الـ(الكلاو) المزركش الذي كان يلف حوله وبمهارة وبلفات جميلة يشماغا باللونين الأسود والأبيض، خافياً بعضاً من خصلات شعره الأمامية.

لم أكن أعرف بالضبط سر اهتمامي به وانشغالي الزائد في التفكير بقضية التحاقه بنا! كنت أطيل التفكير في الصورة التي سيكون فيها مستقبله في هذه الجولات التي لا تنتهي! كنت أحدث نفسي في السر. . . لربما تكون سنواته الست عشرة قد ذكرتني برائحة تلك الأيام الجميلة من سنوات مراهقتي، وبتلك الكتيبات التي كنت أقرأها وألتهم سطورها سراً في زوايا مسجد (أبو الهوى) وسط مدينتنا الجنوبية الصغيرة، حين يعود المصلون إلى بيوتهم بعد صلاة العشاء.

كعربات القطار، كنا ننزل مسرعين انحدارات جبل (هيبت سلطان) الحادة. . . أربعة عشر رجلاً بالتمام والكمال. وكان هو يسير خلفي تماماً. وأحياناً يكسر الصمت متعمداً ليتقرب مني ويحادثني. ربما كانت تستهويه طريقة نطقي الكردية.

سنوصله إلى القرية. . . سيفرح أبوه الـ(حاج سليمان) بذلك. . . سيدفنه بيده في مقبرة القرية. . . سيكون العزاء كبيراً بكل تأكيد. . . ولكن وجود الجثة سيخفف الكثير. . . وسيجنبنا نطق تلك الكلمات الكريهة «البقاء في حياتكم، استشهد ابنكم، ولم نتمكن من إيصال الجثة إليكم، دفناه في القرية الفلانية».

صوب الشارع الإسفلتي الفاصل بين مدينتي (أربيل) و(كويسنجق)، كنا نسير وفي دواخلنا حلم الوصول إلى الشارع ونصب سيطرة سريعة عليه، ومن ثم الحصول على كمية من البنزين الذي كنا نفرغه من خزانات وقود السيارات المارة بعد أن نجبرها على الوقوف، وبرضى أصحابها أحياناً، وبتهديد بنادقنا أغلب الأحيان.

في الأمس نفد وقود جميع سياراتنا تماماً بعد مسيرة ساعات طويلة وسط الليل. وفي الأمس أيضاً فقدنا (آزاد)، وكان شاباً من شجعان مفرزتنا، فقد أصابت رأسه رصاصة طائشة. حدث هذا منتصف الليل وأثناء المعركة الخاسرة التي خضناها ضد قوات الحكومة بهدف السيطرة على بلدة صغيرة تقبع أسفل الوادي. . . جنود الحكومة صمدوا في مواقعهم وقاتلونا وردوا هجومنا وأفشلوه.

كان الجميع يفكر في الطريقة التي يمكن بواسطتها إيصال جثة (آزاد) إلى عائلته في الوادي البعيد قبل أن تتعفن، كان (فرهاد) أصغرنا سناً وأكثرنا حماسة للقيام بتلك المهمة. أحاط الجثة كما تحيط الأم رضيعها وكان يبكي ويتمتم بكلمات غير مفهومة.

في الطفولة وفي نفس القرية تعرف (فرهاد) على (آزاد) ومنذ تلك الأيام بقيا صديقين، وافترقا فترة عام حين سبقه (آزاد) بالالتحاق بالثورة مبكراً. كان صديق طفولته وذكرياته وصباه. وبرحيله ضاعت ذكريات القرية والأحلام، ومعها ضاع كل شيء.

سياراتنا سريعة ولا يعوزها سوى الوقود، وسنحصل عليه بعد دقائق، ولو كلف ذلك أرواحنا.

رنت كلماته قوية عبر جدار صمتنا. كان مصراً على إيصال جثة صديقه.

جمعنا ما استطعنا أن نجمعه من البنزين بعد أن أوقفنا عشرات السيارات. ثم شرعنا في الرجوع ونحن نقفز كالغزلان إلى سياراتنا. وقبل أن تنطلق السيارات في الحركة، سمعنا صراخاً شق فضاء المكان...

ـــ الجيش... الجيش... الجيش يتقدم...

كان هذا التعبير شائعاً وسط رجال الجبل وهو إشارة إلى تقدم قوات الحكومة.

من بعيد لاحت سيارات الزيل الروسية والمدرعات الكبيرة والدبابات وناقلات الجنود العسكرية المصفحة، وكانت كلها تتجه صوب مكان السيطرة التي أقمناها، ولم يعد في الإمكان مشاهدة إسفلت الشارع الأسود.

ـــ ننسحب صوب القرية ومن طرفها الشرقي نصعد الجبل عبر طريق الوادي الضيقة.

أمر قائد المفرزة الرجال بصوت حازم، وأضاف:

ـــ ليس أمامنا سوى هذا الخيار.. هيا أسرعوا يا أبطال...

لا تبعد القرية عن الشارع سوى مسافة قصيرة، بعدها تبدأ الأرض بالارتفاع تدريجياً لتظهر بدايات الجبل، وحين يصل الرجال إلى القمم العالية، يصعب على رجال الحكومة مقاتلتهم.

لاذ الجميع بالصمت وهو يحتمون بالصخور قرب نهايات القرية. ونحو سيارات وناقلات الحكومة صوبوا جميع بنادقهم، وابتدأت المنازلة.

علا دوي الرصاص والقذائف وبدأ جنود الحكومة يتقدمون مهرولين صوب القرية. الهدف تطويق القرية وأسر أكبر عدد من الرجال.

كان يجلس بالقرب مني. تفصلني عنه مسافة قصيرة وهي كافية على كل حال لكي يسمعني ويراني أيضاً. ولازلت لا أعلم بالضبط لماذا كنت أفكر فيه في تلك اللحظة.

(بوش) الرصاص يتناثر حول الصخور التي احتمينا بأجسادها منبطحين على بطوننا. كنا نطلق بكثافة، ولم نتمكن أن نوقف تقدمهم. كانوا يتقدمون مهرولين كالجراد محتمين بدباباتهم ومدافعهم وهي تغطي تقدمهم، صابة فوق رؤوسنا رحمة نيرانها.

لا شيء سوى دوي المدافع والقذائف وهي تغطي سماء القرية. العصافير فرت خائفة بعد أن داهمها دوي القذائف ولهب النيران ورائحة البارود. ولم يبق من فلاحي القرية أحد. صوب الجبل والسهول والوديان الصغيرة فر الجميع، رجالاً ونساءً وأطفالاً. لقد تركوا كل ما يملكون في أكواخهم عرضة لسلب ونهب رجال الحكومة.

أخافني ذهوله وشروده حين تطلعت إلى ملامح وجهه في تلك اللحظات وسط النيران. وصدمتني طلعته المتيبسة وتحديق عينيه الجامدتين في عيني. ترى ما الذي كان يفكر به في تلك الدقائق المصيرية؟!

ــ اطلق يا فرهاد.. لا وقت للصمت.. اطلق عليهم.. إنهم يتقدمون لقتلنا.. اطلق يا..!!

كررت رجائي مرتين وثلاثاً، ولم يرد علي، ولم ينبس بكلمة واحدة، ولم يتزحزح من مكانه قيد أنملة.

ــ إن لم تقتل قتلوك.. اطلق يا صديقي ولا تخف.. تسلق صوب الجبل واحتمِ بالصخور..! تشجع، كن رجلاً..!!

طوق الجنود القرية من كل جهاتها، ثم باشروا الرمي العشوائي عليها وقد اختلطت أصوات سبابهم وشتائمهم بأصوات الرصاص. وقريباً منهم كانت تسمع شتائم أخرى وبالكردية، أطلقها رجال كانوا يرتدون مثلنا الشراويل واليشاميغ، وقد جاؤوا خصيصاً كأدلاء مع الجنود.

صعدنا بصعوبة إلى أعلى الجبل، إلى القمم. كنا نسرع قبل مجيء الطائرات المروحية. صعدنا هذه المرة دون (فرهاد). لقد ظل جامداً في مكانه عند أطراف القرية. لم تنفع دعواتنا له بالمقاومة وصعود الجبل.

بطيئاً جاء المساء وخيم السكون ثانية على القرية وبيوتها الطينية، وعاد الصمت يلف كل شيء، ومعه صمتت الأشجار، وعادت العصافير حذرة إلى أعشاشها، ومن بعيد، وعلى امتداد الشارع الاسفلتي كانت سيارات الزيل وناقلات الجنود تولي راجعة صوب

المدينة، تاركة خلفها الخراب ورائحة الحرائق. . . وكنا نحدق صوبها طويلاً، مودعين (فرهاد) الذي أخذوه منا أسيراً. . .

على الطريق الترابية، وعلى امتداد حقول الشعير، وسط الهضاب الريفية الخضراء التي تسور مدينة (كويسنجق)، كانت سياراتنا مسرعة كالبرق. سماء زرقاء صافية تضيئها ملايين النجوم الفضية وقمر حزيراني ساحر بدد بسطوعه وفتنة نوره عتمة ذلك الليل الحزين. . .

وضاعت كلمات المقاتل الذي كان منبطحاً قربه. وظل هو صامتاً لم يرف له جفن مواصلاً التحديق والذهول، مبحلقاً في وجوهنا، ممسكاً بأطراف بندقيته بعد أن صارت كالعصا، وبعد أن تحول هو إلى جثة حقيقية لا حراك فيها. لم يكن الوقت كافياً لانتظاره طويلاً. . . كان الانتظار يعني الموت. . . وكان هو لا يعي ذلك، في تلك الدقائق الحرجة من حزيران الذي يطول نهاره ليصبح كالعام.

سأعود
سأعود إلى قريتي
إلى حبيبتي السمراء ذات العيون السوداء
سأعود، وإن طال السفر وبعدت المسافة
سأعود، لأقبلها حتى الصباح

مزقت صمت الليل نغمات تلك الأغنية التي أحبها المقاتلون والتي رددها ذلك الذي يجلس جنبي، وكان راعي أغنام لم يمض على التحاقه بنا سوى ثلاثة شهور. كان يغني غير مكترث للدموع وهي تغطي وجهه. كنا أربعة نجلس في صمت على أرائك سيارة التيوتا الخلفية، ووسطنا كان (آزاد) يرقد هانئاً في نومته الأبدية، وأعشاب جبل (هيبت سلطان) الندية الخضراء تلف جسده، وهناك وعند أطراف القرية أسر الجنود صديق طفولته الذي كان يحلم أن يوصل جثته إلى (حاجي سليمان).

حزيناً. . . صامتاً. . . كنت أجلس وسطهم، ودون إرادة مني كنت أفكر في ملامحه وفي تلك الساعة من ليل حزيران الموحش.

ـــ سنوصله إلى أهله. . . سيفرح حاجي سليمان. . . سيدفنه بيده، لن نقول له. . . دفنا ابنك في القرية الفلانية. . .

دون شعور كنت أردد كلماته متذكراً سنوات صديقه الست عشرة.

ستوكهولم

المسافات المظلمة

كاظم الحلاق

سيارة الدورية تقتفي بنا آثار الصهاريج المبتعدة عن الجادة الاسفلتية الرئيسة. مثل كلبين عجوزين هدّهما التعب، كنا متخشبين في قفص حديد مربوط خلفها... أراني أستعرض جسد صاحبي وهو يضيع في (دشداشته) داكنة اللون حاملاً قنينتيّ ماء بلاستيكيتين وخياراً ملفوفاً بأقراص خبز، فنبدو أشبه ببدو رُحّل نحلم بمدن بيض غُمِرن بفيض ظلال لا تلبث أن تتشكل في الأفق اللانهائي كصيرورة حياة لسنا مُتيقنين من وجودها، متسربلين بالخوف نحث سيرنا، فنحدث خطى متوجسة في جسد الصحراء، لنصل في انبلاج الفجر إلى ساحة تربض فيها شاحنات كثيرة.

توقفت السيارة قرب بناية كبيرة. دلفنا ممراً يفضي إلى عنابر أربعة تفوح منها الرطوبة الممتزجة برائحة العرق البشري. تقابلها حمامات مطلية باللون الأزرق... أي ألم تبعثه الذكرى لرفاق الدرب تلوذ النفس المحطمة بنفحات أرواحهم، أية ذكرى كابوسية تقع بحرارة الفولاذ الحار على رؤوسنا مطاردةً أذهاننا القلقة! كم كانت آلامهم عظيمة وكم كانت صرخاتنا مدوية...

كرة أخرى تفقد الأشياء ثباتها بعينيّ المستغربتين لعطونة الهواء والرطوبة الزاحفة باتجاه أفواه العنابر المفغورة. أمرونا بالدخول في آخر عنبر. كنت أشعر بالغثيان مغيباً وسط سحنات مختلفة من البشر: هنود، بنغال، أفارقة، عرب، إسبان. أتيقّن من وجع الروح ونحن نغرق في الزحام قرب شيخٍ متمدد فوق بلاطة اسمنتية باردة، مشرّعاً

قدميه المتشققتين لضوء شاحب ينسكب من نوافذ جدران عالية... كانت الشقوق غائرة كأنفاق طين عميقة و(يشماغه) الأحمر منحلاً فوق جفنيه المتفصدين بالعرق... بريق الأسئلة يحوّم بعيوننا ونطلق كلمات تتبعثر بوجه الشيخ فتختلط بهمهماته «اسمي صالح، أسكن في مقبرة، جوار ضريح الحسن البصري».

تمددنا على البلاطات وأمسى وجوم الظهيرة يفرز كائنات دخانية لا حياة فيها: وجوه خالية من التعبير تنظر إلى لحرس بعيونها المنطفئة... قلوبنا الفزعة تنحصر تحت إيماءات أصابعهم الممتدة باتجاهنا، فنراهم يعدّون أجسادنا الهاجعة، وكأنهم يحصون أحلامنا... في الساعات التي أعقبت نومنا، كان الشيخ البصري يسير بمحاذاتي وأنا ذاهب إلى الحمام... ذهلت من رؤاه الغريبة وهو يؤكد بخيال يائس، شارداً بأفكاره، أن أجداده يمتون بصلة لعوائل تسكن قريباً من مكاننا، احتضنوا المتعبين والممسوسين في الأيام الكالحة وظلام الظهائر القائظة. ترى أي وهم أو حاجة مجنونة تدفعه لقطع ليالي البراري المغلقة بالعزلة الباهظة حالماً بحياة حميمة بعيداً عن اللحود المترقبة وأزهار الآس الذابلة على الشواهد... لعنة اللقاء بأناس ميسورين تلاحقه وهو لا يتذكر سوى أسماء عوائل الموتى المثبتة على المرمر...

بدت موجة قادمة من أعماق بعيدة قد لفّت سحنته، اختفت وراءها معالم العنبر واستفزّت لمعان عينيه... ينضغط الزمن وتدنو الذكريات المتوغلة في الليالي المحلولكة، امتداد سيارات مكشوفة محملة بالجثث تزحف باتجاه المقبرة وتحلق فوقها أسراب طيور مهاجرة... يشعر الشيخ بعاطفة حب متماهياً مع طيرانها وهي تفرد أجنحتها... ككرات صغيرة تضيع في الأفق.

أحاسيس غريبة تنتابه وهو يجلس عند البوابة متأملاً وحشة المكان... ورغم أنه لم يحزم أمره... يهم بالانصراف صوب الضريح ليلقي نظرةً أخيرة مودّعاً ذكرياته المفعمة بالرؤى السوداء... يحس أن ساقيه مشلولتان وأنه بحاجة إلى قوة تنقله بضع خطوات... قوة تندس بعروقه الخائرة وتخلصه من مشاهد الموت. كان يخيّل إليه أنه يسمع أصواتاً قاسية لفتيات وشبان تندد به... أصواتاً تؤنبه وتلومه كأنها أسواط تجلد الذهن... يظل مشدوداً إليها وهو يحدق إلى روابي القبور حيث انبعاث الأصوات، كان يبصر نفسه داخل تابوت، محكم الغطاء تنغرز بجدرانه إبرٌ حامية، موضوع فوق سيارة مسرعة تدخل بوابة المقبرة... فكر أن منطق الأشياء قد تغير وأن ثلة الفتيات والشبان انتفضت من قبورها ووقفت هناك في مواجهته بعد أن ركلت عفونة الزمن المهيمنة على

التراب، وغسلت الدروب بالدمع مستغيثةً بأصواتها المبحوحة: أيها الشاهد على أحلامنا المقتولة في ظلام النهارات، لقد سئمنا عطونة الوقت المستكينة في التراب... أرجع إلينا أفراحنا الضائعة في برودة العظام... أحسّ الشيخ البصري أن سكاكين الأصوات أخذت تنغرز في لحمه الخافق والسيارات قفلت راجعة بمستطيل الخشب بين فسحات القبور تلاحقها الأصوات المستغيثة، متأرجحة في خيبة يديه الواعيتين لحالات الموت...

عندما فكر بالنداءات والصياح المنبعث من بين كتل التراب والتابوت الأبدي المحكم الغطاء، أجهش ببكاء مرير، كما لو أنه الوحيد الذي أحصى الموت كله يمرّ بين يديه الشائختين في تغسيل الموتى.

كانت ضوضاء العنابر غامضة سحرية... طفق لا يستقر بمكان شاحطاً بنعاله البلاطات جيئة وذهاباً... لم نعد نفكر في دورة الحياة، كنا سجناء لا نختلف عن الموتى إلا بأننا أحياء فقط. شعرت بخدر ثقيل يدبّ بأوصالي وأن شجناً عميقاً يغور في أعماق الشيخ وهو يتمدد بجانبي... صاحبي يومئ إلي من بعيد تعال ساريك... أنهض فأسير معه في ممر ضيق نلمح على جداره نافذة مزججة وحيدة تطل على زنزانات للحبس الانفرادي، مطلية بدهان فاقع، تعشش في أساساتها الرطوبة... تنغلق وتنفتح بعارضات خشب مسيخة. كانت الزنزانات فارغة تغطي أرضيتها أعقاب سكائر وملابس داخلية لطخت بياضها دوائر دم ممزوجة ببقع حليبية مصفرة، يفترشها رجل أربعيني بلحية سوداء مدببة تتخلل كثافتها شعيرات فضية وشاربان كثيفان يغور فوقهما خدان لسعتهما أسواط الريح وخددتهما شموس الصحراء وهو يروم انفتاحها مربوطاً بحبال متينة إلى القضبان... كان مفعماً بالصمت وعيناه تزوغان عن وجهينا في ظلام عصور مضت. أقف كالأبكم وتوشك الأسئلة أن تحرقني... لمَ تنعصر أعيننا بألم المشاهدة... آه أيعني ذلك العذاب المستمر!

قلت لصاحبي: «مَن شد وثاقه إلى العزلة التي أبعدته عن الآخرين؟».

قال: «سمعت من الشيخ أن ذاكرته لا تسعفه بأيما شيء...!».

قلت: «ألا يمنحونه ليلة واحدة لتذكر البراري التي عاش فيها؟».

قال: «ربما مثل كل ليلة يضعونه في شبك حديد مربوط خلف سيارة ويطوفون به في الحارات/ قرب المدارس/ أمام المساجد/ في الأزقة/ قرب المقاهي ودور السينما».

قلت: «وإن لم يعثروا على شيء هنالك؟».
قال: «يقفلون به عائدين إلى الليل حيث النجوم تنذر بالوحدة...!».

***

في عنبرنا يختلط الحلم بالواقع. ففي أحيان كثيرة يأتون بآخرين جدد سرعان ما يتحلقون لسرد حكاياتهم في إشارات شوهاء وكلمات مبتورة، فيعجز المرء عن تتبع كل ما يدور في نفوسهم من ذكريات وآلام. الساعات سلحفاتية تمر ولست أدري كم يوم مضى على وجودنا... اقتربت من الشيخ وحدّقت في وجهه وهو يصحو من نومه ببطء... كانت رغبتي أن أسأله كيف قطع المسافات المظلمة...؟

تراجعت وبدا الأمر غريباً، ولما نظرت ثانية إليه، لم تكن في ذهني أفكار، أحسست أن جسده البدين يئنّ تحت ثقل رؤى سوداء تدهم خياله بينما راحت رائحة الرمل تملأ خياشيمه وتغرورق عيناه بالدمع، فانطلق يقول وكنت أحدق مصغياً... «لكل منا حكاياته، في أول الليل شعرت بدبيب الموت يزحف على الأحياء المرتمية بجوار المقبرة... كنت لا أنشد سوى التخلص من همهمات الموتى المنبعثة من كل مكان... فخرجت إلى الصحراء سائراً على قدميّ، في بداية الظلام عيناي تبحثان فوق منحدر الكثبان الرملية عن ضياء يتلامع... كنت أجتازها متمهلاً، فينساب خدر شفيف إلى جسدي... وأنا جاثم في حفرة صغيرة بين الكثبان، تراءت لي القبور تزحف بأفواهها المفغورة هاتفةً ورائي... سمعتها تتقدم بصيحاتها مستجيرة، كأنها أجراس ضخمة ترن في الأمداء ويتصاعد نواحها ثاقباً أستار الظلام... هل القبور تبكي موتاها آخذة بأيديهم إذا اجتاحهم الخوف...؟! لا أدري لماذا كنت مقتنعاً بأنني لم أتخلص كلية من كوابيس الموت التي تطاردني، سمعت أنيناً يمزق القلب لفتيات يتباكين... تبعته قهقهات خلت أنهم رجال الدورية، تيبست في مكاني... هممت أن أعوي وأتجرد تماماً عن جميع ملابسي لكن القهقهات اختفت متلاشية في الفضاء. كانت غرفتي على مقربة من حجرة المغتسل ويوم تشتد الريح الوحشية، كان يتناهى إلى سمعي عويل الموتى الذين يأتون بهم في أوقات متأخرة من الليل يتكاثف في الآفاق الموطوءة بالأزيز وعندما أشعل فتيلة الفانوس وأخرج متنحنحاً في الظلام، أرى جلبة أشباح بلا خطى يهرعون من قرب نافذة المغتسل... وحينما أفتح الباب لم أكن أبصر سوى آثار خيوط سود تعلو عورات الجثث منسابة بين الأفخاذ لتستقر على الخشب الأدكن، بينما التراب المنهال من السقف يركد

مستقراً في العيون الشمعية المختنقة بالدمع والشاخصة في سماء الحجرة الوطيئة...».

آه، ليتني لم أسمع تلك الأصوات الآتية من أعماق بعيدة... إنها تتضخم متوحشة في الآفاق... عويل الريح ونداءات الموتى التي تكشط الروح... لماذا يعتم ضوء النهارات...؟ لمَ لا تتقدم سوى النسوة إلى التوابيت المنسية في مرافئ الأيام السود؟ العظام المنبوشة/ الأعضاء المنهوكة في الظلام، وسيارات تهفهف بأقمشتها الفاقعة المدوّخة تنهب الشوارع/ أو معطوبة تجثم في الأزقة بمستطيلاتها الخشب تضربها حرارة الشمس فتسيح سوائل قاتمة على صدأ العجلات... كانت حائرة ترقب الآماد تبحث عن أرض آمنة تهتدي إليها بأجداث الموت.

انتفض الشيخ ناشجاً: «إنه الزمن الموعود يا بني... لكنني لم أُسلمْ روحي للشيطان، سأسلك دروباً بيضاً صوب كوة في السماء» انهارت الدموع تحفر في خديه الموشومين بالفجائع خطوطاً سود... وحين أطرفت عيني كي أعطيه بعض الماء ليغسل به الدمع أخذ يشهق بالبكاء وهو ينحو إزاء رجل الزنزانة متحدثاً... «إيه عبد الله... إن الراحة لن تأتيك وأنت منهمك بنسيانك... ستغيب الشمس في منتصف الطريق... وتتحطم أجنحتك الحالمة بنور الصحراء وأنت تجوس ظلام الشوارع المنسية خلف الأحياء التي ترفض أواصر روحك...».

***

في وقت ما بعد الظهيرة، ما من أحد يجرؤ على الكلام، رأس الشيخ ينود والجسد لا ينِي ينتفض بين ركلات الأرجل واليشماغ الأحمر ينزلق فوق العينين الباحثتين في سماء العنبر...! وفيما كنت أحدق كالمأخوذ على مبعدة وهم يتفحصونني من رأسي إلى أصابع قدميّ بنظرات مريبة، شعرت أن آفاق الأرض قد أطبقت وأقطار السماوات... لماذا يضربونه؟ هل تفوّه بكلمات مجنونة عن بكاء الرجل في آخر الليل وخيالاته عن زيارة زوجته وأغنامه له؟ ترى بماذا يتحدث وهو يشير بحركة من رأسه باتجاهنا؟... أية لعنة ستحل بنا لو وشى بأحلامنا المتشظية في الطرقات، وأدخلنا في حكاياته عن الصحراء وأجراس قبورها الراكضة/ عن عورات الجثث المنهوكة في الظلام... هكذا كان يخيل إلي وأنا أنظر إلى مجموعة من الحرس قد أخرجوا الرجل من زنزانته فتجمع حولهم النزلاء ضاجين بأحاديث ساخرة... «لا. لا. إنه لا يريد أن يتذكر قطعانه الضائعة

في الصحراء... إنه مسرور برؤية الشوارع والنساء كل يوم... إنه يريد أن يموت محروقاً بنسيانه...».

سيقف الشيخ البصري لحظة بعد أن ينفضوا من حواليه ماسحاً وجهه المندّى بالماء، محدقاً ببلاهة عينيه الزائغتين في جموع النزلاء، زافراً بكلمات غامضة في وجوههم... أشباح سجناء موتى، لا يهم... سيتحرك بوهن يتطلع إلى وجه البدوي الغارق في الصمت والواقف عند الباب فاتحاً يديه المغضّنتين كما لو يريد أن يعانقه... «عبد الله... عبد الله... لم يبقَ هناك شيء... لم يبقَ سوى الموت أو الرحيل... سنغادر بعدك بوقت قصير لن نعود من هناك... لستُ متأكداً... ربما سيعثر أهلك عليك في لحظة ما... فيزول عنك الحزن وترجع إلى منزلك الصحراء...».

سيعود مقترباً بسذاجة يحدثني عن الموت الذي بدأ هنا وسينتهي هناك... وعن مغادرتنا أرض العنبر وترحيلنا إلى الحدود... أأ صدق ذلك والعن ساعة دخولنا المكان... ساعة موتنا أنا وصاحبي والشيخ...

سنخرج غير مصدّقين، نجلس خلف سيارة تسير بنا على جوانب شوارع عريضة مرصوفة ببلاطات ملونة... ستشتعل الأحلام الضائعة برؤوسنا... أحلام الحياة المطمئنة تتراءى لنا من خلل نوافذ بيوت بطوابق متشابهة تتفادى أشعة الشمس بدهان حليبي... أشكال أرجوانية تلوح في الأفق الملتمع، سيلتفت الشيخ بشراهة مقلباً عينيه بين ستائر بيوتها المرقشة... وما أن نقترب من أطراف أحد الأسواق حتى تضيء أعيننا المبهورة أجسادٌ رخصة لنساء بعباءات سود طافحات بالشهوة يتحلقن حول قفص السيارة الواقفة، بينما الرجل البدوي يتطلع دون اكتراث إلى غبش الأفق المتخلف عبر فسحات الرؤوس.

سيتململ الشيخ مذعوراً وهو يرقب جموع الناس المتجمهرين، رافعاً بصره المتفجع متأملاً صفحة السماء، كما لو أنه يصغي إلى دوي ساعة ضخمة يتناهى إليه موصولاً من أعماق الكون ساعة خلاص ستفتح الأرض فيها أحشاءها وتبتلع كل شيء موجود... متحدثاً عن وحشة عبد الله المذهول مثل حيوان مطرود من زمنه نحو غياهب أراض مجهولة... سينظر في بحر خياله محدقاً في سيارات أجرة وشاحنات يتحرقن إلى الدُخول للمقبرة... متمتماً: لا يهم لا يهم... مقبرة الحسن البصري/ ابراهيم الخليل/ محمد جواد/ العنابر الأربعة/ مقبرة الزمن الذي ينثر فحمه بوجوهنا/ سيرقب جنازة في طريقها إليه... رائحة كافور حرّيفة تصفعُ وجهه وتنغرز بجسده...

سيزيح يشماغه الأحمر عن رأسه. . . لكن ما عساه أن يفعل؟ هل سينتظر أحداً في هذا المساء؟ السيارات تتدافع محاولة الدخول. . . الشيخ يمد يشماغه مقلباً إياه في الريح كفناً أحمر آخذاً بالاتساع. . . العينان الحارستان تتراجعان تنتظران. . . تنتظران بقية الزمن. . . بقية أشلاء الحياة. . . العينان الساكنتان تريان تجمد أطياف الحياة. . . تدركان أهوال الفراق/ موت المساء الذي يعكس ضباباً أسود يعلو القمائر الحمر ويذوب فتفوح رائحة الموت منه.

سيقف برهة يتأمل وجهينا بأسى، كأنه يفارق شخصين حميمين إلى الأبد. . . ثم يجلس قُدامنا على التراب نادباً/ منهوكاً/ ممتعضاً/ سينهض بعد لحظات متوسلاً بمجموعة أشخاص كانوا يتسلمون أوراقنا من سائق السيارة التي أقلتنا بأن يمنحوه بضع دقائق ليتيمم بأكوام رمل على يساره. . . بينما المشاهد السود تتوالى مثل أنصال حادة تُغمد في نخاع ذهنه. . . ستضطرب حركاته وتغشو عينيه ألواح الخشب الملطخة والمهيمنة على ماضيه. . . سيتهادى لسمعه هدير موسيقى جنائزية تقترب بصنوجها المدوية في عنان السماء. . . ستغلي الدماء برأسه وهو يتلفت في الفراغ ماسكاً قبضة رمل أمام ناظريه. . . يخيل إليه أن لحظة صمت قاتلة ستعم المكان. . . تبدأ بعدها أبواق الموسيقى بعزف ألحانها المتصاعدة. . . سيفرش يشماغه/ كفنه الأحمر قبالته بعد أن يمرر قبضته على وجهه ويديه المرتعشتين. . . فيرى البيوت تتهاوى في حضنه. . . تتقوض بعدها البنايات/ الأرصفة/ الباحات/ أيما شيء يطاله الخيال، بينما تثب القبور المفغورة الأفواه تتقافز عبر أسيجة المقبرة محاصرة حشود الناس المفزوعة والذين طفقوا يتراكضون في حلقات تضيق باستمرار تلاحقهم همهماتها كفحيح أفاعٍ مستفزة من هول فاجعة ستقع. . .

والآن ها هو الشيخ البصري يقف متسمراً على الرمال المسفوعة بحرارة الشمس، نادباً، نائحاً بدموعه المحروقة آفاق زمنه المسود. . . بينما نحن نخطو بأقدامنا المتقرحة أمام أحد الأشخاص الذين تسلموا أوراقنا حيث الضوء يموت في جوف شاحنة تقف بانتظارنا والتي سوف تبتعد بنا بعد هنيهة، تشيعها نظرات الشيخ الواقف كالمصلوب في أفق الصحراء العاري.

البصرة/ ١٩٩٤

طرقٌ على الباب!

عدنان عاكف

حين أفقت من نومي مسحت حبات العرق من جبيني وحملقت في ظلام الغرفة لعلي أستوعب ما حدث. ليس هناك سوى الظلام وشخير زوجتي الرتيب.

عرق في ليالي شباط لابد أني كنت أحلم. ويبدو أن الطرقات التي قطعت عليّ الحلم كانت في الحلم أيضاً. اللعنة على هذه الأحلام. أخذت تتكاثر في الأشهر الأخيرة. ضغطت على الزر فامتلأت الغرفة بنور باهت. أخذت سيجارة ورحت أنفث الدخان بلهفة، وأغمضت عيني علّي أستعيد وقائع الحلم، ولكن بدون جدوى. صور مبعثرة وأحداث مبهمة لا رابط بينها. النهاية كانت واضحة: شخص ما عظيم الجثة يحمل صخرة ويطاردني، وأنا أبذل قصارى جهدي للخلاص منه. التفت إلى الوراء فرأيت الصخرة تدنو من رأسي، لكن طرقات على الباب أنقذتني من الكارثة. استيقظت في الوقت المناسب. ابتسمت لحظي السعيد وتنهدت بارتياح.

من وراء الدخان راح وجه الذي كان يطاردني يتشكل تدريجياً. لم أتبين من ملامحه سوى ابتسامته الساخرة. أغمضت عيني لأراه بوضوح فارتفعت الصخرة في الهواء وراحت تدنو مني، وفتحتهما فانتهى كل شيء.

كل شيء كان حلماً: الوجه الساخر والصخرة والطرقات على الباب.

وتمر ليلة أخرى بسلام دون أن يطرق الباب. تمتمت بهذه الكلمات بلا شعور، فراحت زوجتي تتقلب في الفراش. أزاحت اللحاف عن وجهها وتساءلت مغمضة العينين:

ـــ كم الساعة؟

ـــ الثالثة والربع.

ـــ هل جننت؟ تدخن في مثل هذه الساعة! ماذا دهاك؟ أطفئ النور لأنام قليلاً.

التفت نحوها وأطلقت غمامة من الدخان في وجهها وقلت: أعوذ بالله من الطبع النسائي الأعوج. هل منعتك من النوم؟

ثم أزحت خصلات الشعر المتدلية على جبينها وقلت مازحاً: كاد أحدهم أن يبعثر دماغي وأنت تغطين في نوم عميق.

أخبرتها بوقائع الحلم وأضفت: ألا يحق لي أن أدخن بهذه المناسبة؟

لم يرق لها كلامي فادارت لي ظهرها. بعد وهلة من الصمت جاء صوتها من تحت اللحاف تعباً ومعاتباً: دماغي طحنته هموم النهار... لم يعد هناك فرق بين أحلامنا والواقع... قلق، خوف وكوابيس ولاشيء غير الكوابيس.

أدركت جيداً ماذا كانت تعني وإلامَ تشير. لم يكن باستطاعتها أن تحس ما أحس به، وأن تدرك أني لا أدخن احتفاء بسلامة رأسي الذي لم يتبعثر في الحلم، بل لأن الباب لم يُطرق هذه الليلة. وددت لو مكثت مستيقظة لتثرثر، لنطرد القلق والهواجس. التصقت بها وأزحت اللحاف عن رأسها وقلت: لست على حق يا عزيزتي. فشتان ما بين أحلامنا والواقع، بالرغم من كل الشبه بينهما. ما أروع أحلامنا المرعبة، الأحلام الكوابيس... بعدها، وحين تكتشفين أن كل هذا الرعب وتلك الأنفاس اللاهثة كانت مجرد وهم، أحداث نسجها الخيال الليلي المحاصر، وأن دماغك مايزال كتلة واحدة لم يتفتت، عندها تغرقين في بحر من الغبطة ونشوة السلامة التي لا يوفرها لك الواقع في هذه الأيام. وهذه اللحظات هي أسعد اللحظات التي يعيشها المرء في حياته. أما الواقع فإنه كابوس متواصل. في الحلم يمكن لطرقات خفيفة على الباب أن تنقذك من أبشع الكوارث. أما في الواقع فإن المرعب المخيف يأتيك بعد هذه الطرقات الملعونة.

كنت أحاول أن أمزح. هكذا بدأت... ولكن عندما انتهيت وجدت نفسي غارقاً في هموم الواقع وأحزانه وشعرت بأني لم أكن جاداً في حياتي مثلما كنت في تلك اللحظات. وراحت أحداث الواقع تمر أمامي كابسة على انفاسي. أي كابوس واقعنا! نعم، لم تكن زوجتي تبالغ في لعنتها لهموم النهار التي طحنت دماغها. فلو كان بوسع الهموم حقاً أن تطحن الدماغ لتحولت أدمغتنا خلال الأشهر الأخيرة إلى دقيق. ومع ذلك فأنا كنت على حق أيضاً. ألسنا مع إطلالة كل يوم ننتظر مغيب الشمس لنحتمي بظلام الليل من هموم النهار

وما يمكن أن يأتي به، بالرغم من أننا في كل ليلة نموت ألف مرة؟ وصباح كل يوم جديد نبتسم خلسة لأننا مازلنا قادرين على التنفس، ثم نعود ننتظر الظلام وأحلامه الكوابيس بفارغ الصبر كي نموت ألف مرة أخرى... وعادت الهواجس وسكون الليل تثقل عليّ، فندمت لأني أفقت من حلمي المخيف وتمنيت لو أنه استمر بالرغم من كل بشاعته.

أطفأت السيجارة، ومددت يدي كي أطفئ النور، لكن طرقات متسارعة على الباب شلّت يدي. أزحت اللحاف ورحت أرهف السمع. ما هذا؟ أهناك من يطرق الباب بالفعل؟ أيعقل أنهم...؟ ولكن ماذا عن الحلم؟ ألم أكن أحلم قبل قليل؟ لكني رأيت الصخرة وابتسامته الساخرة وحبات العرق. انتابني القلق لكن صوت زوجتي حررني منه، تساءلت وهي تفرك عينيها: ألم تسمع شيئاً؟

ـــ لا أدري... يبدو أن هناك من يطرق الباب... لست متأكداً. لم أعد أفهم شيئاً. كنت أحلم وأخبرتك بذلك، وأنا واثق من ذلك...

تبادلنا نظرات حائرة ثم سألتها بغباء: حسناً، ولماذا يطرقون الباب هكذا، بأيديهم، لم لا يقرعون الجرس؟

ـــ أهذا ما يشغل بالك؟ وما الفرق إن طرقوا أو قرعوا؟ يبدو أن الطارق يقف هنا عند هذا الباب وليس عند باب الحديقة ليقرع الجرس.

أزاحت اللحاف عن جسدها وجلست بجانبي وهي تحملق بي. أزاحت خصلات الشعر المتدلية على جبينها، وبيدها الأخرى أعادت نهدها الأيسر إلى مخبئه تحت قميص النوم، ضاعفت نظراتها القلقة من هواجسي. بالفعل! لم لا يقرعون الجرس كما يفعل الضيوف؟

طرقات متسارعة أخرى ازداد على اثرها خفقان قلبي وسرت في داخلي رعشة خفيفة. أنزلت ساقي من السرير فلسعت قدمي برودة الأرض. تبادلنا نظرات حائرة. نهضت وسرت بخطوات بطيئة، لكني لا أعرف إلى أين، وما علي أن أفعل. اقتربت من باب الغرفة وتسمرتُ في مكاني. حين التفت إليها كانت قد انتعلت خفيها وجلست عاقدة يديها في حضنها. عدت إليها وجلست بقربها وسألتها بعيني: ما العمل؟ مدت يدها نحوي فلامست أطراف أصابعها يدي فشعرت برجفة خفيفة. بلعت ريقها وقالت بصوت أبح مرتجف:

ـــ من الطارق يا ترى؟

كم كان ثقيلاً سؤالها. ونظراتها كانت أثقل وأقسى بكثير. ليتني أعرف الجواب. لم هذه الأسئلة الثقيلة السخيفة التي تؤلم الأذن وتثقل الصدر؟ لو تسكت على الأقل، لو تتركني وشأني وتكف عن ملاحقتي بهاتين العينين الحائرتين... ليتني أعرف من هناك في هذه

الساعة المتأخرة وبهذه الطريقة؟ أيعقل أنهم من. . .؟ لا، بالتأكيد لا! ولم لا؟ ومن أين هذا اليقين؟ إنهم، كما يقال، لا يأتون في الليل إلا نادراً، في الحالات المستعجلة والمهمة فقط، إنهم يفضلون ساعات النهار. يؤدون واجبهم بكل هدوء وبشكل حضاري في الصباح مع بدء يوم العمل. ينتظرون زبائنهم بالقرب من المنازل أو بالقرب من موقع العمل. . .

زادت هذه الفكرة من هواجسي. يا إلهي! ماذا لو كنت حالة مستعجلة؟ وتمر أمامي الأشياء والأحداث والوجوه بسرعة. خليط من الذكريات الحديثة والقديمة، ووجوه أصدقاء لم أعد أراهم منذ أشهر، وآخرين لم يعودوا يرغبون برؤيتي ويتحاشون لقائي، و«نصيحة» المدير لي بالتعقل، ووجه أمي وهي تتوسل إلي أن أرحل قبل أن ألحق بأخي الأصغر الذي لا أحد يعلم إلى أين أخذوه. . .

لم تكن سوى لحظات. . . لكنها كانت كافية لتحويل الذكريات والهواجس إلى أنفاس لاهثة متقطعة وخفقان مضطرب مسموع، ولتبذر بذور الخوف في النفس البشرية الحائرة التي تركت وحدها عارية لتجابه المجهول.

مدت يدها ووضعتها برفق بين يدي دون أن تلتفت نحوي. من رعشات أناملها أدركت ما كانت تعاني. رفعت رأسها فالتقت أعيننا. كان الخوف جاثماً في عينيها وهو يتأهب للانقضاض عليّ. . . وقد فعلها اللعين، انقض علي خوفها فامتزج مع خوفي وضاعفه مرات ومرات، وقطع الشك باليقين: إنهم هم. . . جماعة المدير، الذي، والحق يقال، قد أرضى ضميره حين استدعاني إلى غرفته وحذرني من ليلة كهذه: «أليس من الأفضل أن نتفاهم هنا في غرفتي من مجيئهم إليك في ليلة مظلمة؟ ها أنا أمامك. وقّعتُ وعملت بما يطلبون فلم يمسني أحد بسوء. لماذا تظن أنك أشجع من الآخرين؟».

ـــ ماذا ستفعل؟

لم أسمع صوتها، لكني فهمت ذلك من حركات شفتيها. مع ذلك جفلت. لم يعجبني السؤال. استفزني، وضغط على الدماغ ليتحرك. دماغي اللعين، الذي ظل طيلة هذه الفترة خاملاً، أخذ يتململ ليثقلني بأسئلته اللعينة. هكذا هو دائماً، يحشو الرأس بعشرات الأسئلة التي لا أجوبة لها، ويحاصرني في وقت الشدة من جميع الجهات، ومن ثم يبدأ العتاب والتأنيب. صح النوم أيها العزيز. . . أين كنت. . .؟ ماذا كنت تنتظر؟ فرجاً قريباً؟ معجزة سماوية تعيد الوحش المنفلت إلى رشده؟ بماذا كنت تمني النفس؟. . . استسلمت للرخاوة والنار من حولك تأكل الأخضر واليابس. أرني ما الذي ستفعله الآن، هيا. . . ولكن مهلاً أيها الدماغ المتربع على عرش حكمتك! لا تكن قاسياً هكذا. لم أكن غافلاً وأنت خير من

يعرف ذلك. لم أنفرد في اتخاذ القرار، وقد شاركتني في كل صغيرة وكبيرة... لم أكن من المتفرجين على النار، بل اكتويت بجمرها أكثر من مرة، وحرقنا من الأعصاب أنا وأنت ما يكفي لمد شبكة تغطي بلداً بأكمله... كنت أعتقد أن دوري لم يحن بعد، وأني مازلت بمنأى عن زوار الليل. نصحتني بجواز السفر وها أنا أحمله في جيبي منذ شهرين. قلت إن موعد استعماله لم يحن بعد، وتذكرنا أنا وأنت من لم يستطع الحصول على مثل هذا الجواز، وأولئك الذين لم يمنحهم الوقت فرصة لاستعمال جوازاتهم.

لكن دماغي يرفض الاستسلام. عنيد كالثور دماغي. من جديد يقول بكل شماتة: حسناً يا ابن شداد. مادمت تملك كل هذه الشجاعة فعلام الخوف، ولم كل هذه الرعشات؟ فكر بما أنت مقدم عليه. ماذا ستفعل؟ وما بوسعك أن تفعل؟ لم يبق أمامك سوى الندم... وحتى الندم لم يعد ينفع الآن أيها البطل المزيف... أيها الجبان... اخرس أيها اللعين، أنا لست نادماً. قد أكون خائفاً بالفعل، وربما سيقتلني خوفي، ولكني لست بالجبان. من أية طينة أنت؟ قد أكون نادماً على شيء واحد فقط: أن تكون النهاية بهذه الطريقة التافهة، أن أقع في شراكهم بهذه السهولة... كنت أعرف أنهم سيأتون إلي في يوم ما، وكنت أتوقع قدومهم. ولكن ليس هكذا، ليس الآن. ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ ماذا علي أن أفعل؟ هل انتهى كل شيء حقاً؟ هل أستسلم بهذه السهولة؟ الهرب؟ ولم لا؟ ولكن كيف؟ وإلى أين؟

طرقات متتالية فصلتني عن دماغي وأراحتني منه. قفزت بلا شعور من السرير وأسرعت نحو باب الغرفة. اقتربت زوجتي مني فلفحت أنفاسها الحارة المتسارعة رقبتي من الخلف، فمنحتني قليلاً من الشجاعة. فتحت الباب وخطوت خطوتين في الممر الطويل المظلم وتوقفت. أمامي باب المطبخ وإلى اليسار باب يقود إلى الصالة ومنها باب آخر يقود إلى ممر صغير يؤدي بدوره إلى الباب الخارجي الذي يقف خلفه زوار الليل، إلى اليمين وعلى بعد خطوتين باب يؤدي إلى الحديقة الخلفية. لمحت المفتاح معلقاً في الباب. لا مجال للهرب إلا عبر الحديقة الخلفية. التفت إليها فحدقت في وجهي ثم راحت تنقل بصرها بيني وبين المفتاح... لمحت في عينيها بريق دمعة. لم تكن دمعة بل تلك النداوة التي منها تولد الدموع. وضعت يدي على كتفها برفق وتلعثم لساني ببعض الحروف والكلمات. راحت تتأملني وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة ذابلة باهتة لا تخفي علامات الخوف التي طفحت على وجها. لامست أطراف أناملي شعرها برفق فرمت برأسها على كتفي.

ـــ سأحاول الهرب من هذا الباب... أنت تذهبين لفتح الباب... اسألي من هناك؟ أنا سأحاول من هنا... أعيدي السؤال ثانية وثالثة. قولي إني سافرت إلى البصرة... لا، لا

قولي إنك لا تعرفين شيئاً. لم أعد إلى البيت منذ يومين. أو قولي. . .

لم تنبس بكلمة، واكتفت بهز رأسها. وتوجهت نحو الباب.

تابعتها وهي تبتعد عني. بلعت ريقي وقضمت شفتي السفلى بقوة. كانت خطواتها تضيق كلما اقتربت من الباب. توقفت والتفتت نحوي. لم أتبين ملامح وجهها جيداً، أدارت ظهرها وعاودت مسيرها. بعد ثلاث خطوات توقفت ثم اتجهت نحو النافذة التي تطل على الحديقة. مدت يدها إلى الستارة المسدلة فامتدت يدي إلى قلبي. ولكن الستارة لم تتحرك. تراجعت إلى الخلف دون أن تمس الستارة فصدرت عني زفرة ربما سمعها من كان يقف خلف الباب. عادت مسرعة نحوي ثم توقفت ملتصقة بي. سألتها بعيني عما يجري، وبعينيها أشارت إلى المطبخ وتوجهت إلى هناك. من نافذة المطبخ يمكن رؤية من يقف خلف الباب.

عاد دماغي إلى لعبته المتعبة من جديد. وخلال ثوان طرح ألف كيف وألف لماذا. ماذا دهاك يا ابن أمه؟ أهذا ما كنت تريد؟ أهذه هي النهاية السعيدة لمناضل عتيد؟ أنت الآن تفكر بالهرب. تريد أن تنجو بجلدك وتترك هذه المسكينة المرعوبة للضيوف. إنهم ضيوفك أنت ومن أجلك جاؤوا، أيها الفأر المذعور. . .

غبي ولعين أنت أيها الدماغ، وأنا بريء منك إلى يوم الدين. مع من أنت؟ معي أم تراك مع هؤلاء؟ لست بالفأر، لسنا بالجرذان التعيسة كما تدعي. أنت تعرف جيداً أين هي الخرفان والجرذان. نعم، أصبح الخوف زادنا لسبب بسيط: لأننا لسنا بالجرذان، ورفضنا دخول خيمة الخرفان وجزاريهم. . .

لم أشعر كيف عادت من المطبخ واقتربت مني، وتبعتها أنفاسها اللاهثة.

ــ الظلام لا يسمح بتمييز أحد. لمحت شبحين عند الباب. . . إني خائفة، خائفة.

ليتها لم تقلها، وما كانت بحاجة إلى الكلام. أي بريق مخيف هذا الذي يتألق في عينيها. امتدت يداي نحوها فارتمت إلى صدري. أخذت رعشات جسمها تتسرب إلي.

طرقات متسارعة شلتنا فالتصقنا. صمت رهيب يملأ البيت ويزيد من سواد الليل. أسندتُ رأسي إلى الجدار وأصابعي في شعرها. . .

تحرك الدماغ وعاد إلى أسئلته: كيف ولماذا؟ لكنه كان هذه المرة أقل عدوانية، إذ لم تبدُ أسئلته ثقيلة كالسابق، هذه المرة لم يستفزني ويثير أعصابي. كنت بارداً كالثلج. بالعكس، بدا لي أني أحاول استفزازه كي يعود إلى عدوانيته. فمنذ أن سمعت صوتها المرتعش: «أنا خائفة» انتابني شعور غريب مازلت حتى اللحظة أجهله. مزيج من الخوف

الذي كان يسري في الدم والخجل إزاء «أنا خائفة». شعرت أن الخوف لم يعد يخيفني؛ أصبح أقل وطأة، كان جزء منه قد تنحى تاركاً المجال لهذا الخجل. . .

كان دماغي على حق. لقد تصرفت في لحظة ما كالجبان. والعجيب أن هذا الاعتراف المخجل جعلني أشعر بالهدوء قليلاً. وهل أنا بحاجة إلى شيء آخر غير برود الأعصاب في هذه اللحظات؟ لا، لم يهرب الخوف، مازال جاثماً بثقله فوق صدري، ولكنه لم يعد كما كان. لكن ما هو الخوف؟ وهل حقاً أنه يعشش في الصدر؟ أم في الرأس؟ ألا يقولون إن الخوف يؤدي إلى فقدان الأعصاب، أو إلى توترها؟ لست أدري. كل ما أعرفه هو أني في هذه اللحظات استعدت بعضاً من قدرتي على التفكير بهدوء. لم يعد الهرب من الباب الخلفي ممكناً. ليتني أقدمت على ذلك منذ الطرقات الأولى التي وصلتني في الحلم. . . لقد فات الأوان، لابد أن البيت محاصر من جميع الجهات.

رفعت رأسها عن صدري برفق وقبلتها في عينيها المبتلتين. حاولت أن أعتصر من هذا الجحيم ولو ابتسامة صغيرة لكني فشلت. كلمتها فخرجت كلماتي خرساء. أبعدتُ ظهري عن الجدار وسألت:

ـــ أين المفتاح؟

امتدت يدها بالمفتاح وراحت تنقل بصرها بين عيني وأصابعي التي تحاول أن تمسك المفتاح. نحيتها برفق واتجهت إلى الصالون فتعلقت بيدي. التفتُ إليها فتوسلت عيناها «لا تتركني وحيدة».

ـــ كل شيء سيكون. . .

لم أكمل ما بدأت لأني لم أكن أعرف ما أريد قوله. . . أخذت بيدها وتوجهنا معاً نحو الباب بخطوات قصيرة لينة، وكأننا نخاف أن نمس الأرض بأقدامنا.

أربع طرقات ارتج لها جسدانا المتلامسان وتسمرت أقدامنا في الأرض. تشبثت في كتفي ثم ارتمت بين ذراعيّ. أبعدتها برفق. . . لم تعد نظراتها المستغيثة قادرة على منعي من التوجه إلى الباب. لقد فات الأوان. عاودت السير فانقادت معي. . . لم يعد بيننا وباب الخوف سوى متر واحد. . . اقتربت أكثر حتى كاد وجهي يلتصق بالباب. أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عيني وهمست:

ـــ من هناك؟

ـــ أنا عواطف. . . افتح بسرعة.

يا إلهي! يا خالق الشجعان والفئران!! ما هذا الذي يحدث في أعماقي؟ كرة أرضية بكل

جبالها وبحارها كانت تجثم فوق صدري فأزاحها فجأة ذلك الصوت الحبيب من وراء الباب. أي بركان هذا الذي فجره في صدري ذلك الصوت المستغيث! لماذا أنا تعب هكذا؟ أي تعب غريب هذا! شفتي تدلت. يدي راحت تتأرجح كالبندول ولم تعد قادرة على حمل المفتاح فهوى على الأرض. وساقاي تحولتا إلى كتلة من القطن... يا رب! يا خالق الخوف، لقد فهمت حكمتك. والآن فقط أدركت موقعك وأهميتك أيها الخوف العزيز، يا رفيق المتعبين والملاحقين. أنت سر وجودنا في هذه الدنيا، لقد اعتدناك وأنسناك، وبدونك لم نعد نقوى على الحياة. كم لعناك في الأشهر الأخيرة لأننا لم نكن ندرك هذه الحقيقة: ما أن زال الخوف الجاثم على صدري حتى تبددت قواي وتبخرت.

تراجعت إلى الخلف حتى ارتطم ظهري بالجدار. أسندت إليه رأسي ورحت أفرك مؤخرته. كم بقيت على هذه الحالة؟ ثوان؟ دقائق؟ ساعة؟ أعادني صوت عواطف إلى رشدي. شعرت أن شيئاً ما يتحرك بجانبي. كان ظهر زوجتي ينزلق على الجدار ببطء. تابعتها بنظراتي حتى هوت على الأرض. أحنيت ظهري ومددت لها يدي لأساعدها على النهوض فوجدت نفسي ممدداً جنبها.

الطرقات تعود من جديد. كنت ممدداً بالقرب من الباب وأذني تكاد تلتصق به. أهذا هو الصوت الذي أشعل كل هذا الجحيم؟ لم تكن هذه دقات على باب يراد له أن يفتح، بل لمسات رقيقة على بيانو. كانت عواطف تنقر بهدوء وبإصبع واحدة، وكأنها تخاف أن يسمعها حتى الشخص الذي جاءت من أجله. عجيب أمرك يا دنيا!! حين كنت على بعد أضعاف هذه المسافة، وبيني وبين هذا الباب ثلاثة أبواب وأربعة جدران لم أسمع طرقات عنيفة فحسب، بل سمعت الباب وهو يتحطم، لا بل أجزم أني رأيت وجوههم الكريهة من خلف ثلاثة أبواب... لقد أعماني الخوف، شلني، سلبني جميع حواسي وحول جميع أعصابي إلى لاقطات صوت وأوتار صوتية موجهة إلى هذا الباب... وتطفر إلى شفتي ابتسامة ذليلة. أعض على شفتي بقوة لأقتلها، أو أحاصرها في الأقل، قبل أن تستشري. ولكن هيهات! لم يعد في مقدور الأسنان التي نخرها الخوف أن تقتل الإحساس النقي الذي استيقظ تواً في الأعماق. أخذت الابتسامة تتسع رغماً عني، وها هي تتحول إلى ضحك مرير صامت. كان الجسد يختض، وفي قلبي مرارة لم أعهدها من قبل. وتعتريني رغبة جامحة بالبكاء. شعرت بطراوة ندية في عيني فتوسلت إلى عيني أن لا تخذلاني، لنؤجل الدموع، ليس الآن، أمهليني أيتها العين، يكفيني ما أنا فيه، سننزوي في غرفة مظلمة، وحينها سنبكي معاً أنا وأنت، وعندها اذرفي ما شئت من الدموع التي لابد منها

لغسل كل هذا الخوف والحزن والخجل. . . ليست المرة الأولى التي أشعر فيها بالخجل. فطالما تصبب العرق من جبيني خجلاً لغلطة ارتكبتها. وما أكثر أخطائي وذنوبي. لكني لأول مرة أذوق طعم الخجل النقي الذي لا يخجل. كان مراً علقماً، بل هو أشد مرارة من الخوف الذي سببه.

«ـــ ألا تسمعون؟ ماذا دهاكم؟ افتحو الباب». تهمس عواطف بنبرة مرتبكة يفوح منها الخوف.

ـــ ألا تسمعين؟ إنها أختك عواطف.

لم تلتفت إلي واكتفت بإيماءة صغيرة من رأسها، مددت يدي لأكف الشعر الذي كان يتدلى على وجهها فهوت يدي على فخذها العاري.

دقات سريعة أعادتني إلي وعيي. . . مهلاً يا عواطف، مهلاً أيتها الزنديقة العزيزة. . . ما الذي قذف بك إلينا في هذه الساعة اللعينة؟ زوار الليل أيضاً؟ وما الذي كان بوسعهم أن يفعلوا معكم أكثر مما فعلته أنت الآن بنا؟

ـــ ماذا دهاكم؟ هيا افتحوا الباب، أيقظت جميع الجيران، رأسي يكاد ينفجر. . . أين أنت؟ افتح أرجوك. . .

اطرقي، اطرقي ما شئت، حطمي الباب، ولتتحطم معه يداك. اطرقي واصرخي وأيقظي الجيران، ليستيقظ العالم من غفوته. . .

«ـــ أرجوك انهض وافتح لها الباب». همست من بين أنفاسها اللاهثة وهي تلاعب شعري، تململت في جلستها وأضافت:

ـــ ما الذي جاء بها يا ترى في مثل هذه الساعة؟ زوجها؟ ولكنهم أخذوه منذ يومين. . . لم أخبرك بذلك في حينه. وحين قرأت الاستنكار في عيني أضافت: «قلت لنفسي يكفيه القلق الذي هو فيه. ما الذي جاء بها في مثل هذه الساعة؟». حاولت أن تنهض وهي تردد (وشجابك على المر غير الأمرّ منه).

أحقاً إنها زوجتي؟ أكاد لا أتعرف إلا على قميص النوم. . . التجاعيد البازغة على وجنتيها ولطخ الكحل السوداء التي تحيط بالعينين المحمرتين الذابلتين والذهول الذي يطبع الوجه الشاحب والخوف من السر الذي تحمله أختها التي تقف مستغيثة خلف الباب. . . ها هي زوجتي في تلك اللحظة. ومع ذلك لم يكن بوسع كل هذا أن يخفي الابتسامة الحزينة التي كانت ترقد في أعماق عينيها. . .

بغداد/ ١٩٧٩

صورة*

عهد العهد

إلى الغائبة الحاضرة:
سناء عبد السادة عثمان**

* أسئلة... أسئلة... أسياخ حديد في القلب، تنهشه. هوّن عليّ يا كبدي، فالقلب لا يتسع لغيرها، والنبض نغم حروفها.

* كان يدندن...
خذني للولف خذني ألتمسك للولف خذني
أغنية يرددها دائماً في خلوة غيابها الحاضر الموجود كظله.

* آه يا سنوات العمر، يا لحظة دهر، كيف كبر الصغير؟ صار يتحدث بلغة الكبار، تمتم مع نفسه، حين داهمه الصغير.

* «يموت الآه بشغافي ويرويني نبع صافي
ويفرحني...
أضم خصره ونطير اثنين

---

* بين القويسات أبيات من قصيدة سعدي يوسف «ملحوظات أو كيف كتب الاخضر بن يوسف قصيدته الجديدة؟».

** شهيدة أعدمتها الفاشية الدموية يوم ٢٦ تشرين الأول ١٩٨٨.

أسبگه وهو يسبگني»
كتبها وغناها مع نفسه

* أحزاني دفاتر شعر، في ليل طال صباحه، تباريح سفر هو العمر، عديدة محطاته، يا ولدي. . .
«من يسأل يُعط. . . سوى الحبّ» والأرض قضبان محكمة البنيان، متاريس شرقية، يصنعها الطغيان،
الناس حقائب سفر في الليل، هائمة بين البلدان، بلدي أرصفة، بسطات متناثرة في عمان.

* حدثني يا أبي!. . . ابصرني!

* اقترب يا ضلعي، اجعل ظهرك قريباً لظهري، كي أتدفأ، فلم أذق طعم الدفء منذ سنوات. . . ولا أدري إلى متى يبقى فراشي بارداً. . .؟

* ليلة الزفاف، استعرنا ملابسَ كردية لها، عملت طوقاً لشعرها من سليقان علب السجاير، أقراطاً أحلى من الذهب. كانت عيناها تضم الدنيا كلها. الحب زادنا، والمستقبل بيتنا، احتفلنا وسطه أحبة يحلمون بالخير، على أنغام الأغاني والدبكات الجميلة، وسلاحي بيدي، في منطقة نوزنك نوكان.

* أضم خصره ونطير اثنين
أسبگه وهو يسبگني
حبيبي أهواه لحد الموت، ودونه الموت يأخذني
حياتي بشوفته بساتين ودنيا
ودنيا الما تلملمني

* «لا تسكن، هي، في كلمات المنفى حين يضيق البيت»
لا ترضيها موسكو، إيران، لبنان، سوريا، فاختارت حيث الأهل ــ بغداد ــ لتعجّل

بأحلى الأيام. لكن لليل مخالب. وآه كم كان الليل كافراً، حوتاً أهوج يبتلع الموجودات، يغرس أنيابه، مخالبه، يفرش أذرعه على المدينة. كانت تحمل وزر الذين اجتمعت عليهم حيتان الأرض، وذئاب العصر الحجري، تعمل، تقاتل حتى سارت في قوافل الخالدين. . .

* كانت ولادتك في أحضان الذين يحملون أحلى الأغاني لأيام قادمة. نذرت أمك نفسها لها. ستشهدها من خلال عينيك يا ربيعي. كنا اخترنا «شاخاوان»* اسماً لك في جبال كردستان، وحين نزلنا إلى الموصل، فكرنا أن يكون «أرسلان»، صار حيدر في بغداد، و«سلوان» في السجلات الرسمية.

* «لا تأكل لحم عدو»
بين دهاليز الموت. بين الوديان. رعب الجبال ومخاوف الحيوانات المفترسة. عويل ذئاب، فحيح الأفاعي، العقارب السامة، نجوع نأكل لحومها، لا نجد سواها. كانت هي أقوى من الجوع فلا تأكل.

« عسكرية أم رسم»
هكذا رد على أستاذه، حين أجبره على رسم شيء لا يهواه. كان يرسم مواضيع تفوق سنه مرات: سجين يكسر القضبان، امرأة تحمل على راحة يدها حمامة بيضاء، وأخرى جماجم متراكمة أمام المفوضية السامية في عمان. . .
ـــ يا حبي ـــ «لا تنهش راحة من يطعمك الأزهارْ».

لقد كتب عليك أن تولد في أرض بعيدة، وتكابد المعاناة، وتدلف إلى السجن في الربيع الثالث والنصف، وقد ساومتني عليك كلاب الزمن الحجري، وأنا بين الحياة والموت. كنت مريضاً، دبيب حرارة جسمك العالية تتسلل عبر مسامات جلدي، حين رموك بأحضاني، وددت أن أراك، لكن العينين لا حول لهما معصوبتان، أن أمرر يدي على جبهتك، لكنها مقيدة كالأطراف، قال أحدهم:
ـــ سوف لن تراه

* شاخوان: ابن الجبال.

ـ أعرف سوف تقتلونه قبلي

ـ نحن؟! بل أنت بعنادك.

ـ ما ذنب الطفولة؟ أنتم السبب

ـ بيدك حياته

كنت تتشبث بأصابعك المنهكة بفعل الحمى، تحاول غرزها في جسدي المدمى، لكنك لا تقوى.

كنت أكبر من المرض، أو المرض تآزر معك من أجل أطفال العراق.

* ـ إن كان لكم شيء فانتزعوه مني

ـ سوف لن تراه

* كل أم شريفة هي أمك

يا من عرف النضال طفلاً

قالت سلوى زيادين*

وهي تقبله.

* كان يرسم وجوه نساء، وينعتها بأسماء عاش معها، أو صادفها. هذه صورة جدتي، التي لا تغمض لها عينٌ حتى أنام بأحضانها. هذه عمتي التي تداعبني عند الصباح، وتوقظني بهمس دافئ وخالتي التي تحضنني على صدرها، تشمني كالأريج، وتلك عديلة التي علمتني كسر الخجل والكلام.

* ـ صورة لم أرسمها بعد!

ـ سوف ترسمها يا ولدي يوماً ما، فرسمها صعب، لا يرتقي إليه إلا فنان قدير.

* أحط روحي على الجفنين

واحفر بالضلع رسمه

أبو الليل اللي على المتنين

* شيوعية أردنية، زوجة الرفيق يعقوب زيادين.

منه اتلونت الوسمة
قصايد يا حچي العينين
أبو شامات محله اسمه

* لم تلقمك حليباً فقط، بل طيبة، محبة حتى الرسم تراك تحت خطاها يا دنياي. . . كانت تمارس الرسم والسيراميك وتستخدم المواد البسيطة من مخلفات القماش أيام العمل في بغداد. وكنت أنت تساعدنا في نومك المبكر لنبقى ساعات متأخرة نكمل أعمالنا في الليل. . . ابق يا عزيزي «لا تشرب ماء جبين».

* كانت ستراً للستر حين تعرى في وهج أزيز الطائرات والقنابل في كردستان.

* ـــ عليك أن تستأذن. قال أستاذه في الرسم، في غرفة السكن
ـــ ما يوجد في الغرفة ملك للجميع. رد على أستاذه، الذي نهره حين طلب منه قليلاً من اللاصق.
لله درك يا ولدي ـــ «للضيف الدار، ولكن ليس له أهل الدار». تعطيه عمته قلمين، يتبرع بالزائد لكل محتاج من أقرانه، في رابع مدرسة بين القبول والرفض.

* كانت كذلك ما في جيبها للآخرين، تبتاع الدخان مع الذاهبين للشام، دخان الحمراء، كنتُ أفضله، وترميه عليَّ، علبة اثر أخرى، دون أن ينفد، وحين طلبت منها إعطاء رفيق آخر، كانت قد سبقتني، وقد وزعت عليهم قبل طلبي. هكذا هي، يا ضلعي، خصال الذين يريدون الشمس للآخرين.

* آه يا ولدي «لا تقلب سترتك الأولى حتى لو بليت»
تتغير الأشياء نحو الأفضل. وكم يعذبني تبدل وجوه الناس الواناً، يلبسون اقنعة، يخفون عوراتهم، أو يجدون لوناً لا يتناسب مع صورهم. وتذكر يا دنياي أن أمك من الناس الذين لا تقلب سترتهم الأولى. . . واعلم يا حبيبي أن «في الشيخوخة قد يبدو الشعر الأبيض أسود» وقد يبتدئ الخائن بالمرآة».

* سوف أرسمها يا أبي.

* للولف كل أهلي وبيتي
للولف شرياني وريتي
للولف سلوان تذكاره لمّن تحضرين أمنيتي
خذني. . . وأخذني

* «فلتبحث بين تراب الوطن الغالب
عن خاتمك المغلوب»
خذني للولف خذني.

١٩٩٦/٣/٣١

تداعيات البحيرة البيضاء

مؤيد عبد الستار

قبل حلول عيد رأس السنة الجديدة بأسبوع واحد، ألغيت مشروع سفري إلى مدينة أوبسالا وقررت قضاء العيد مع كلبي الأبقع بوري. فالشعور بالوحدة الذي لازمني في هذه المدينة التي أعيش فيها منذ ثلاث سنوات يدفعني إلى اقتناص أيام العطل لأسافر إلى أحد الأصدقاء ونقضي العطلة معاً. ولا شك أن هذا الكلب الصغير الذي ورثته من جارتي العجوز كان سبباً في إلغاء سفري. ولكنه والحق يقال ليس بالسبب الوحيد، فالكلب باري، الذي أبدلت اسمه فيما بعد إلى بوري، كان ملك جارتي التي طلبت مني العناية به قبل أن ترحل إلى عالمها الأبدي، ولربما كانت تظن أنها ستشفى من دائها العضال وتستعيد كلبها مني. ولكن العناية الإلهية خيبت آمالها فورثت كلبها. ومنذ اليوم الذي دخل فيه هذا الكلب حياتي أصابني هوس التبذير، وكان تبديد المبلغ الذي ادخرته للسفر سبباً إضافياً لإلغاء رحلتي. ومع هذا يجب أن لا أخفي حقيقة سأمي من السفر الذي أخذ ينتابني في الآونة الأخيرة. حتى منظر الحقيبة أصبح يستفزني، فمنذ سنوات وأنا أتنقل حاملاً حقيبتي على كتفي حتى مللت شكلها. لست نادماً على ذلك، فقد خفتت عواطفي التي كانت تحفزني على لقاء المعارف الذين سبق وأن جئت معهم إلى السويد وتوزعنا في مدن متباعدة مختلفة. كنا نحرص على اللقاء كلما سنحت الفرصة فنجتمع عند أحدنا، نجتر الذكريات ونناقش كل ما يخطر على بال، بدءاً من أحوالنا حتى أخبار جورج بوش، أما إذا لعبت الخندريس بالرؤوس فـ«عندك الحساب». في آخر مرة التقينا

كادت الأمور تنتهي نهاية غير حميدة بسبب خلاف نشب بيننا حول الحصار أدى إلى شجار بالأيدي بين بعضنا.

سأقضي عطلة رأس السنة هنا في أوميو، فلا ضير أن أكتشفها أيام الأعياد مع كلبي بوري رغم شعوري بالإلفة في هذه المدينة الباردة. فشقتي التي تطل نوافذها على البحيرة الثلجية تجعلني دائم التذكر لشواطئنا الدافئة التي ضاعت من أيدينا. هذه البحيرة القاسية مثل قالب ثلج تتجمد عواطفي حين أنظر إليها. حاولت مرة أن أخفف من شدة انفعالي، وقلت لنفسي لأتصورها بجعة جميلة، فهذه البحيرة المتجمدة طوال أشهر الشتاء أستطيع تخيلها بجعة بيضاء، أغمضت عينيّ وبدأت أردد: بجعة... بجعة... بيضاء... بجعة... ثم فتحت عيني فوجدتها مازالت تلك البحيرة عينها، فأقلعت عن مثل هذه المحاولات السخيفة، وشعرت بالقشعريرة تسري في أوصالي حين رميت ببصري محاولاً استشراف نهاياتها فلم أر سوى الثلوج البيضاء تمتد أمامي لتتصل بالثلوج التي ترتسم في الأفق الضبابي.

أزيز حاد شق فضاء البحيرة، مجموعة من الشباب تقترب على دراجات نارية تزمجر مسرعة، دراجات تجري على زلاقات بدل الدواليب المطاطية، بقيت أراقبها حتى استدارت ونزلوا عنها. أخرجوا معدات صيد السمك، سحب أحدهم آلة حديد من على دراجته، ذراع مسنن كالمحراث، ثبت نهايته على الجليد وبدأ يدير المقبض بيده حتى حفر سطح البحيرة الجليدي، فعل الجميع مثله بالتناوب وأدلوا بصناراتهم في مياه البحيرة وأخذوا يصطادون السمك بسرعة لم أعهدها.

اصطاد بعضهم سمكاً أرقط واصطاد البعض سمكاً أحمر ذكرني بالسمك الحمري الذي كنا نصطاده على شواطئ دجلة. كنا نفرح بصيدنا كثيراً، عكس هذا الصياد الذي لا يبدو عليه الفرح. أردت أن أسأله إن كان يبيعني السمكة الحمراء التي اصطادها، إلا أنني أحجمت، خشيت أن ينظر إلي بشفقة ويقدمها لي مجاناً.

عاودت السير مبتعداً، فعاد إليّ مذاق السمك الذي كانت جدتي تقفصه بالشواية المضلعة وتشويه بالتنور فتعبق رائحته مثيرة شهية سابع جار. لم أشم فيما بعد، طوال ترحالي، ما يشبه رائحة السمك ذاك، حتى على شواطئ البلطيق يوم شوي لنا موشي سمكة على طريقة (المسكوف). كانت باهتة الطعم، وحين عاتبناه على ذلك قال: ماذا أفعل، لا يوجد هنا سمك شبوط. كان ذلك اليوم الذي أكلنا فيه السمك على شاطئ لتوانيا يوماً دافئاً، وكان البلطيق حلم الوصول إلى الضفة الأخرى، الشواطئ الاسكندنافية. كنا نتحلق حول

السمكة التي تتوهج قرب النار، نسينا قلقنا واضطرابنا الذي يلازمنا بسبب جوازات السفر المزورة التي نحملها، وأي جوازات!. أجدنا عنده جواز يوناني وهو لا يعرف كلمة يونانية واحدة. أما عبد الرحمن فكان جوازه إسرائيلياً باسم موشي، فلقبناه موشي دايان. كان ذلك يغيظه حتى البكاء. وما أن ركبنا باخرة الصيد المهترئة، بعد ذلك بأسبوع لنبحر باتجاه السويد، حتى فاجأنا عبد الرحمن بإلقاء جواز سفره في البحر وصاح: خلصـــ. . . ت.

أعادني نباح بوري إلى البحيرة فنظرت إلى حزام الأشجار التي تشمخ على جانبها الغربي لتشكل مع الثلوج لوحة أخاذة تنعكس على صفحات البحيرة فيضفي جلال شجر الصنوبر الشامخ بهاء على مشهد الغروب الذي يفاجئنا بعد الغداء مباشرة. فالوقت الذي يحد طلوع الشمس وغروبها قصير جداً قرب هذه البحيرة، أما حين تكشف الشمس الخجولة سماء البحيرة وتطرد الضباب فلا بد أن يداخلك السرور لمشهد الأطفال الذين يتسابقون بزلاجاتهم فوق سطح البحيرة.

ويوم أمس حين التقيت جاري الذي يسكن في بنايتنا والذي اعتاد الخروج ليتمشى قبل الغروب. بدا فرحاً بالشمس مشرقة، حياني بحيوية تحيته المعتادة: هاي صَن، وأضاف مبتسماً: يوم مشرق، أليس كذلك؟

ضحكت وأشرت موافقاً برأسي الذي بدا كبيراً بسبب قبعة (الشابكة) الروسية التي عليه. فقد اشتريتها في لتوانيا. وددت لو أحدثه عن شمسنا، عن شهر آب الذي يحرق المسمار في الباب. لا أدري كيف أحدثه عن ذلك، هل يصدقني لو حكيت له كيف نتحمص في الصيف، في قيظ تموز. . . سأحاول يوماً فالشتاء طويل. . .

الاشتراك السنوي

50 دولاراً أو ما يعادلها للأفراد
100 دولار للمؤسسات
يدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 467127-42
ANI HAMED AYOUB
BANQUE LIBANO-FRANCAISE
Bar Elias, LEBANON

أو يدفع إلى رئيس التحرير
يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:
الثقافة الجديدة. سوريا. دمشق ص.ب: ٧١٢٢. تلفون: 4449742. فاكس: 4449724

فكر علمي
ثقافة تقدمية

السعر عشرة دنانير